

ق. ق. ٢١٥

المجتمع الأنكرلسى فى الحصر الأموى

« ١٣٨. ٤٢٢ هـ / ٧٥٥. ١٠٣٠ م »

تألف

الدكتور

حسین یوسف دویدار

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
جامعة الأزهر

0140938



Bibliotheca Alexandrina



١٥٥٦٩

المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

(١٣٨ - ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ٣١٠ م)

المكتبة العامة لكتبة الاسكندرية

رقم المكتبة: ٩٤٦.٨

٣٠٠٢

رقم التسجيل: ١٥.٥١

تأليف

الدكتور

حسين يوسف وزير

استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



الطبعة الأولى
Publication of the Alexandria Library
Bibliothèque Alexandrine

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

This image shows a blank, aged, cream-colored page, likely an endpaper or flyleaf of a book. The paper has a slightly textured appearance with some minor discoloration and faint smudges, characteristic of old paper. The left edge of the page shows the binding of the book, with visible stitching or staples. There is no text or other markings on the page.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله
وصحبه أجمعين . وبعد ...

فلا زالت الأندلس (الفردوس المفقود) — رغم كثرة ما كتب عنها
فى نواحى شتى — تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج
مختلف مظاهر الحياة فيها .

وربما كان من أشد ما تقتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك
الدراسات الشمولية التى تنظر إلى هذه البلاد وحضارتها فى العصر
الإسلامى ككل متماسك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحو
ما تفعل معظم كتب التاريخ ، وبخاصة فى النواحى السياسية
والحربية وإنما تحاول تحليل تلك الحضارة على ضوء نظريات فلسفه
التاريخ أو نظريات الثقافة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة
إلى مثل هذه الدراسات ، فإن الحاجة أشد بالنسبة للأندلس
باعتبارها حالة فريدة فى تاريخ الإسلام تمثل قيام حضارة متميزة
هى مزيج من ثقافة الإسلام والثقافة الأسبانية الأوربية ازدهرت
ازدهارا هائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإسلامى بل
والعالمى أيضا ، ثم أخذت فى الضعف والتدهور والتراجع نتيجة
لما حل بالمسلمين فى الأندلس ، وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى
لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسباني حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنما كانت

تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين فى أصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وراثتها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانتسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والمركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسبانى والصقلبى واليهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه حروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الذى جعل الأسبان يخصصون تاريخهم الوسيط فى أنه تاريخ (حركة الاسترداد) La Recon Quista . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان (بمعركة القرون الثمانية) La Batalla de Ocho هذه الطبيعة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر — حتى فى حال توافرها — تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة أى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لأنها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحي

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتي هي نتاج ما يسمى بالحضارة . لان هذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية فى الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث السياسية ، أو تصوير للمعارك الحربية أو ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلطين فقط . وإنما أصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عامة يمكن الحكم بها على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقدمها .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده - وهو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى - موضوع متشعب الجوانب متصل الحلقات يأخذ بعضه ببعض لأن دراسة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع أنواع الحياة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هذه الدراسة لا تتعرض لكل التفاصيل الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنا ملامح عامة لصورة هذا المجتمع من هذه النواحي التى أغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بها كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نكتا وشذرات كان لابد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظفر الإنسان منها بشئ . وهذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير الملوك والسلطين حيث يجدون مادة خصبة ثرية .

ولست ادعى أننى قد جمعت فأوعيت ، وأننى قد المت بكل دققيقة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متشعب الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقد قسمته إلى فصول ستة : تحدثت فى الفصل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم مميزاتهم ، وتحدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسبان ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن حالة المجتمع الأندلسى من الناحية الدينية لما لها من تأثير كبير على الحياة الاجتماعية .
وأما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعهائر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينة وحفلات ، والعباب وغير ذلك .

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الحالة الاقتصادية وأثرها على الحياة الاجتماعية .

وفى الفصل السادس والأخير تحدثت عن حالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافية .

وقد حاولت قدر جهدى وطاقتى فى هذا الموضوع المتشعب الطويل ، والله وحده يعلم كم عانيت فيه من جهد ومشقة ، وإذا كان فى عملى شئ من النقص أو القصور ، فإننى أتمنى سعة الصدر والتوجيه فيما عسى أن يكون مثارا للنقد أو الاعتراض . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد والهدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/يناير سنة ١٩٩٤ م .

د. حسين يوسف تويدار

مقدمة

(1) مقدمة المؤلف

الفصل الاول

عناصر السكان في الاندلس

تهيد

عناصر السكان فى الأندلس (١)

كان المجتمع الأندلسى يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، وفيه الممالك الجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم (عجم الأندلس) وكانوا فى أكثريتهم من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام فسموا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسبان والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الوافدون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال إفريقيا . وكان أوائلهم يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

(١) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسلطان المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى ، بل يشمل مختلف العناصر التى استظلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويعبر ياقوت الحموى عن هذه التسمية فيقول « هى كلمة أعجبية لم تستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتھا فى الإسلام » .

(معجم البلدان : ج ١ ص ٢٦٣ دار صادر بيروت) ، وبإستثناء
الإشارات المعارضة والقليلة التى وردت فى كتب الرحالة والمؤرخين
والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف
كذلك كلمة (إسبانيا) . والمصادر العربية هذا القليل منها تقول
بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندى (دوزى ت سنة ١٨٨٣ م) أول
من بحث هذه المسألة ، ثم جاء المستشرق (سيبولد) فتوسع
فيها ، وسار على رأى دوزى فى أن كلمة أندلس أخذت من لفظ
(فانداليسيا Wandalacia) أو فنداليسيا . الذى كان يطلق
على إقليم باطقة الذى احتلته قبائل الوندال الجرمانية (أو الفاندال)
ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الأسبان
يطلقون على هذا الإقليم اسم إسبانية أو شبانية باسم رجل
يقال له إسبان بن طيطس أو اشبانس (د . الطاهر مكى : دراسات
أندلسية ص ١٣) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التى كانت تعرف
فى العصر الرومانى باسم (إشباليس Hispalis) .

وكان العرب يطلقون أول الأمر هذا الاسم على هذا الإقليم
الجنوبى بالذات ، ثم عموه على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدأ
سلطان المسلمين فى الفتلص أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضى
الباقية فى أيديهم حتى اقتصر على آخر مملكة لهم بالأندلس وهى
غرناطة (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ،
دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٣) .

وهذا التدرج في التسمية تؤيده رواية الحميري عن البكري
التي يقول فيها : « إن اسم شبه الجزيرة في القديم كان إباريه
(إيبيريا) ، ثم سميت بعد ذلك بإطقة ثم سميت إشبانيا باسم
رجل ملكها في القديم ، أو الإشبان الذين ملكوها في الأول من
الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس أخذا من اسم الأندليش الذين
سكنوها » يقصد بهم قبائل الوندال .
(الروض المعطار ص ٣٢ ، البكري : المسالك والممالك ص ٥٨) .
وعلى هذا فإن لفظ الأندلس معرب من الوندال Vandalus
(الفاندال أو الفاندالوس) وهي القبائل الجرمانية التي غزت شبه
الجزيرة في القرن الخامس الميلادي . فلما جاء المسلمون بعد
الفتح عربوا هذا الاسم من (وندلس) بعد همز الصوت الأول
إلى أندلس : (انظر : د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٤ ،
د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩) .
وتد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عدة تعليقات لهذه
التسمية تبعد عن التحقيق التاريخي ، وتقرب من الروايات السماعية
شبه الأسطورية . فقد ذكر المقرئ عن ابن سعيد المغربي : أن
هذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح
عليه السلام لأنه أول من نزلها .
وذكر ابن الأثير : أنها سميت باسم أندلس بن يافث بن نوح
لأنه أول من سكنها وعمرها .
كما ذكر ابن عسكاري وابن الأثير أيضا : أن أول من سكن

هذه البلاد قوم يعرفون باسم الأندلس بالثين المعجمة فسمى
البلد بهم ثم عرب بعد ذلك بسين مهلة . والمعروف أن هؤلاء
لم يكونوا أول من سكن هذه البلاد ، بل سبقتهم أجناس أخرى
كالفيثيين واليونان والرومان . وثبته بهذه التعليقات ما ذكره
البعض في إطلاق لفظ إسبانيا على هذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذى كان اسمه أصبهان
ثم تحول في لسان العجم إلى إشبان ، وأنه تقابل مع الخضر
عليه السلام ، وبشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت
المقدس في عسارات مسجوعة كسجع الكهان أوردها المقرئ
في (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤) ومنها « يا إشبان إنك لأدو شان ،
وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

أو نسبة إلى رجل صلب في هذه البلاد يسمى إشبانس
إلى غير ذلك (انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠) ويعدها ، الكامل
ج ٤ ص ٥٥٦ ويعدها ، البيان المغرب ج ٢ ص ١ - ٢) .

والرأى الراجح أن هذه التسمية قد أطلقها الفينيقيون - عندما
عزوا هذه البلاد في القرن العاشر قبل الميلاد - على الشاطى الذى
نزلوا عليه Ischepan- im أى شاطىء الأرانب حيث وجودا
أسرابا كثيرة منها عليه . ثم حرف هذا الاسم بعد ذلك إلى
Hespania أو إسبانيا . (انظر : د. أحمد هكل : الأدب
الأندلسى ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى في الأندلس

وأما الماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى في أوروبا وخاصة من المناطق السلافية . وكان تجار الرقيق من الجرمان واليهود وغيرهم يسبونهم صفارا ، ثم يبيعونهم في أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة . ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى — سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل — وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره في إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية في الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها في نواحي شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها في كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسي المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

ص ٩) . هذا وقد ظل اسم الأندلس الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا (إيبيرية) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسي للمسلمين حتى صار في آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح في اللغة الإسبانية اندلثيا أو اندلوسيا (Andalusia) ويطلق الآن على شانية إقليم في جنوب إسبانيا : وهي المرية ، وغرناطة ، وجيان ، ومرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة ، وإشبيلية . انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د. أحمد هيكल الأدب الأندلسي ص ٤٠ ، الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ تحقيق د. محمد شامة) .

دائما البيئة المشتركة ، والثقافة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحدة ، والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك الحضارة التي صبغت هذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكان لكل من هذه العناصر اثره في تلك الحضارة التي لم ينطفىء شعاعها بزوال سلطان المسلمين ، بل ظلت متقدة في نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عديدة ، وما زالت بعض شواهدنا وآثارها باقية في إسبانيا حتى اليوم .

فالحضارة الإسلامية في الأندلس هي نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هذه العناصر البشرية التي عاشت على أرضها وانصهرت غالبا في بوتقتها حتى أصبح لها شخصية مميزة شملت مختلف العناصر هي الشخصية الأندلسية (٢) .



(٢) انظر د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٢٢ .

د. لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ١٧ .

د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٢ - ٢٣ ،

د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس ، مجلة المختار من عالم

الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤ .

أولا : العنصر العربي

مثل العنصر العربي أهم سكان الأندلس ، وأبرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ واستقرت بعد الفتح ، وسماها بالبلديين ، وبلغ عددهم ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب والموالى وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات (١) .

وقد سبقت هذه الطليعة أعداد قليلة كانت في الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد (٢) . يقول صاحب أخبار مجموعة « فدعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر ألفا كانوا من العرب . (أنظر مجلة عالم الفكر ص ١٢٩ عدد ٣ سنة ١٩٨٤) .

(٢) وقيل طارق ابن عمرو (أنظر جذوة المقتبس ص ٢٤٨ ، بغية المتلمس ص ٣٢٨) . وقد اختلف في أصله : فذهب البعض إلى أنه بربري من قبيلة نفزة (نفزاوة) ، وقيل من زناتة (المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٢) ، وذهب البعض الآخر إلى أنه كان مولى لموسى بن نصير من أصل فارسي من همذان . وقيل أنه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صدف ، وقيل مولى لهم .

وذكر ابن عذاري نسبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبد الله ابن رفهون بن ورفجوم بن نيرغاس بن وهاص بن بطوفت بن تفزاو » (البيان المغرب ج ٢ ص ٦) ، وقيل إنه من سبي البربر . والراجح أنه بربري من نفزة . (أنظر أخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩) .

من القبريق والموالي ليس فيهم حرب إلا قليل » (٢) ، ثم طالعة الحبر
ابن عبد الرحمن القشيري (في ذي الحجة ١٩٧ هـ) : حيث قدم واليها على
الاندلس ومعه « أربعائة رجل من إفريقية فمنهم أول طوابع الاندلس
المعدودين » (٣) ، ثم بعد ذلك سنة : لواء القشيري
ثم تعاقبت أفواج العرب بعد ذلك ، ومن أشهرها الفوج الذي
قدم إلى الاندلس مع بلج بن بشير القشيري سنة ١٢٤ هـ ، والذي
أطلق عليه (طالعة بلج) ، وأصبح هؤلاء يلقبون بالشاميين تميزا
لهم عن الطلائع الأولى التي كانت في الفتح وبعده مباشرة واستقرت
وسميت (بالبلديين) ، وكانت هذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منها
ثمانية آلاف من العرب والغان من الموالي (٤) .

كما وفد عدد من العرب الشاميين مع أبي الخضر اليماني سنة ١٢٥ هـ
الذي ولي الاندلس لفض النزاع الذي دار بين البلديين والشاميين ، وإقرار
الأمن والنظام بالاندلس ، وسمى هؤلاء (بالطلعة الثانية) (٥) .

كما قدمت موجة جديدة من القبائل العربية من الأمويين وانصارهم
خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالاندلس بقيادة عبد الرحمن الداخل

=

- (١) انظر عنان : دولة الإسلام في الاندلس هامش ٢ ص ٣٩ .
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢ ، د. أحمد
الشعراوي : دراسات في تاريخ أسبانيا ص ٤٩ — ٥٠ .
(٢) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس ص ٦ ، وانظر كذلك
الروض المعطار ص ٩ ، نفح الطيب ص ٢٣١ ، البيان المغربي
ج ٢ ص ٦ .
(٣) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح
الاندلس ص ١٥ .
(٤) يذكر ابن القوطية أنهم كانوا ثلاثين رجلا ولكننا نعتقد أن تبعهم
كثيرون حيث سمو بالطلعة الثانية (تاريخ افتتاح الاندلس
ص ١٩) .

(صقر قريش) نظرا لاضطهاد العباسيين للامويين وانصارهم بالشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هذه البلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من قيس وكلت واليمن إلى الأندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقد كان هناك عدد كبير من التابعين في هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن أحد الصحابة أشارت إليه بعض المصادر وهو المنذر الأسلمي الذي دخل الأندلس مع موسى ابن نصير. وكان قبل ذلك قد نزل إفريقية ، وذكر أنه حدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الأثير والمقرئ وهو « من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيا فأنا الزعيم لأخذن بيده حتى أدخله الجنة » (٦) .

وقد ذكر القيرواني : أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية (٧) وأن ثلاثة منهم دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير وهم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الأنصاري ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو ثامة بكر بن سوادة الجذامي .

كما ذكر المقرئ وغيره (٨) أسماء آخرين من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير أو بعده ومنهم : أبو راشد حنش ابن عبد الله الصنعاني ، وحيوة بن رجاء التميمي وزيد بن قاصد السكسكي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي — قائد المسلمين في بلاط الشهداء — ،

(٦) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .
(٧) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ .
(٨) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقد وضع ابن بشكوال كتابا لا يعرف له وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس أشار إليه المقرئ وهو بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ٦٠ .

والمغيرة بن أبى بردة الكنانى ، وعلى بن رباح بن نصير اللخمي ، وعياض
ابن عقبة بن نافع الفهري ، ومحمد بن أوس ابن ثابت الانصارى ،
ومنصور بن حزامه ، وعبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكنانى .

وقد اورد المرقى انساب العرب ومنازلهم بالاندلس نقلا عن
ابن غالب وابن حزم فذكر انه « لما استقرت قدم الإسلام بالاندلس ،
وتنام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ،
فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من
قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين
ابن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الاندلس بعد
انتشار ملك بنى أمية ، وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الاندلس ، وكانوا يعرفون
أيضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الاندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من
قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الطواهر ،
ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الاندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء
الفضلاء ، وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر
يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الاندلس الذى غلبه عليها
عبد الرحمن الأموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب
الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الاندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة وأعمالها ،
وإليهم ينسب الوثعبيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى
أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب
الرحلة . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة أريولة
من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خندف من العدنانية . وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية غنى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، ولهم منزل بجوفى بلخسية على ثلاثة أميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى ساعد ابن بكر بن هوازن ومنهم كثير بقرطبة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي وإلى الأندلس .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، وإقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفى مدينة وادي آش ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما أياد بن نزار فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بإشبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والمسلك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية فإن القرشية قدسهم على الفرقتين . وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق » (٩) .

(٩) المقزى : فتح الطيب ج ١ ص ١٣٦ وبعدها . المطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ .

ومن القبائل الشهيرة التي نزلت بعض بيوتها بالأندلس قبيلة الخزرج التي يتصل بها نسب بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس .

ويذكر المقرئ نقلاً عن الرازي : انه دخل الأندلس من ذرية سعد ابن عباد الخزرجي الصحابي الجليل سيد الخزرج رجلان أحدهما نزل أرض تاركونا (تاركنا) ، والآخر نزل قرية من قرى سقرسطونة عرفت بقرية الخزرج (١٠) .

وقد ذكر ابن حزم : انه كان لسعد بن عباد رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « ولسعيد هذا عقب بالأندلس بقرية ويقال لها قريلان من عمل سقرسطونة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عباد ، ويشذونة بنو عرمم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عباد » (١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون أنسابهم ويفتخرون بها وبالصفة التي تربطهم بالقبائل العربية حتى يعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر الأخرى في الأندلس وشكلوا نواة الإرسنقراطية والبرجوازية في المدن (١٢) .

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦٠ ط ١ الحلبي سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جبهة أنساب العرب ص ٣٤٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م

(١٢) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في اسبانيا ص ١٨ ترجمة د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والافخاذ والقبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبي عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتمصبهم في الاعتزاء ، وتقدم القواد على الأجناد ، وجعل في جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصبية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور في الأندلس . وكان لذلك اثره الواضح في انحسار مادة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذي قبل ، وفي إضعاف نفوذ العنصر العربي (١٣) .

ثانيا : العنصر البربرى

البربر هم سكان شمال إفريقيا أو ما يعرف ببلاد المغرب التى تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامى لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة فى المشرق وهى :

المغرب الأدنى (إفريقيا) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان . والمغرب الأقصى وقاعدته فاس(١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقيا ليشمل المغرب الأدنى والأوسط(٢) .

(١) أنظر ابن خلدون المقدمة ص ٥٩ — ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩٤ هامش ٢١ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب فى تسمية البربر بهذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التباغة فى اليبس ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفى غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأحصار فسميت باسمه ، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال : ما بربرتكم فسموا بالبربر (العبر ج ٦ ص ١٠٦) . وذكر الفيروز بادی : أن البربرة هى كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر (ترتيب القاموس المحيط ص ٤٤٠) . وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربى من حير يسمى (بر بن قيس) وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسمها بربرة وسماهم البربر (انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

كلمة بربر أطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

(انظر تاريخ الفتح العربي لليبييا ص ٦) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الاسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة فلما كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية غدت في نظر العرب غير مفهومة ، فأطلقوا عليها بربرة ، كما أطلقوا كلمة عجمة أو أعجمية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى أن هذا اللفظ إفريقي كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروى)

ثم جاء الرومان فأطلقوا هذا الاسم على سكان شمال إفريقية (المغرب) Barbari (بربارى) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربيه المسلمون إلى بربر أو برابر ،

كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم أن عمم على ساكن البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بربرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . (انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٨ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هامش ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ص ١٣ هامش ٢) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتاب العرب إرجاع نسب البربر إلى أصول عربية ، فيذكر الفيروزيارى : أن البربر عرب أصلاً وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقيش بن قيس بن صيفى لها (٣) .
ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكرى : أنه كان لضر ولدان هما قيس وذهبان ، وأن البربر ينسبون إلى قيس بن عيلان من ضر ولذلك يفتخر أحد شعراء البربر بقوله :

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيساً قيس عيلان هم معدن الحق على الخير نال

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : أن لواته من حمير ، وهوارة من كندة ، وزتاته من التباغة أو العمالقة ، وإن زواوة ومكلافه من حمير أيضاً (٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأي فيقول : إن عدداً من سكان

إليه الأب لويس معاوف بقوله « وفى الجاز البربرى هو المتوحش والهيجى » (المنجد فى اللغة والأعلام ص ٣١) .

والحققة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيراً مستهجنًا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزواوة وصنهاجة وكتامة . (انظر د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ح ١ ص ١٢٦) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) المعبر ج ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

تشبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق الساحل الغربي من الجزيرة ، وأنه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرين ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك (٦) .
والحقيقة ان مسألة أصل البربر العربى هذه لا يمكن الجزم فيها برأى قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتعاقب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعا لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظرا لتشعب الآراء وتمدها فى هذه المسألة (٧) .

حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وأنهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وأنهم ينتمون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الأندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعور وزرقة العيون ، وأن البربر هم جدد نسبيا على بلاد المغرب قدموا فى الغالب من جنوب غرب القارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة أولا ، ثم انتشروا غربا ، وأنهم جنس إفريقى أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلط هذين العنصرين نشأ العنصر البربرى الذى استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب (٨) .

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى قيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم النسابون لقيس عيلان أبنا اسمه بر أصلا ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا فى تكاذيب مؤرخى اليمن ، جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٥ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى أنهم ينتمون في أصلهم إلى الجنس الحامى وإن كانوا من نفس العنصر الليبي القديم الذى عرفه الفراعنة (٩) .

ومهما يكن من أصل البربر فيبدو أن العرب قد عرفوا الطريق إلى شمال إفريقيا منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : أن ملوك اليمن من التبابعة قد غزوا شمال إفريقيا عدة مرات فاستكان لغلبهم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان في هذا شيء من التجوز والتعميم . ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جذيين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون (١٠) .

أو أنهما جذيين يهذين الإسمين ، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطابع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون في السواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون في طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الجبال والوديان والصحارى (١١) .

(٩) د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هامش ٧

(١٠) التعبير : ج ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر أن العرب لما دخلوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر المنقب بالأبتر فسموا الأبتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بر فسموا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

وقد فسر البعض هذين الاسمين بانهما نسبة إلى الزى الذى يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذى لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن — والبتر هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة أن هذا التفسير اللغوى لا يقوم على أساس متين فليس من الضرورى على كل برانسى أن يكون مرتديا للبرنس كما أنه ليس بلام أن يكون البترى عاريا منه .

أما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به أيضا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعاً مستقلاً من سائر البربر ، كما أن البرانس المتحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان (١٣) .

وعلى أى الأحوال فقد كان البربر فى معظمهم فى طور البداوة عند الفتح العربى لبلادهم يعيشون فى شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون ، وأغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل منهم دان باليهودية أو المسيحية أو المجوسية (١٤) .

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة للحياة فى شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التى لقوها منهم بالتزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنزل عن الحكوميين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن أثر كبير فى ذلك .

(١٢) د. العبادى : الجبل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٩ .

(١٤) المعبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مما ساعد على انتشار العروبة بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب النوبيين من أن القبائل العربية التي نزلت بشمال إفريقيا قد تبررت بطول الزمن في زيتها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبوله (١٥) .

والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطول اختلاطهم بالمغرب وبخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة هما الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستعمار الفرنسي التي قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبربر والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقترب من صفات العرب — وقد ذكر ابن خلدون هذه الصفات في وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقد وصفهم « بعز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الأئمة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد ، وحسن الكلمة والإغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتهيئة الكسب للمعذوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإيلاء الضيم ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العز ، وأوقت بهم على ثسايا الملك ،

حتى غلبت على الأيدي أيديهم ، ومضت من الخلق بالقبض والبسط
أحكامهم « (١٦) .

وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التي عددها
ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم . ولا ننسى
مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة ،
ولا يزالون إلى الآن في الأعم الأغلب يعتقدون في قراءة الكف وفتح الكتاب
وإدعاء معرفة الغيب (١٧) .

كما ظهر منهم نسبة نظموا أنساب قبائلهم في شجرات شبيهة
بشجرات الانساب العربية وإن كان لا يوثق في هذه الشجرات
كثيرا (١٨) .

هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التي دخلت
إلى الأندلس فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو
طارق بن زياد (١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

(١٦) العبر : ص ج ٦ ص ١٠٤ . وذكر ابن عذارى أن سليمان
ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأخبرني عن البربر قال « هم
أشبه الأعجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية ، غير أنهم
أعذر الناس لا ولاء لهم ولا عهد » وهذا يناقض ما ذكره ابن
خلدون عنهم من الوفاء بالقول والعهد (البيان المغرب ج ٢
ص ٢١) وهذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتاب
في وصف الأقوام أو الأشخاص لأسباب عديدة .

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) أنظر عن نسبه : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ، نفح الطيب ج ١

ص ١٢٣ .

آلاف فى البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعد ذلك إلى اثنى عشر ألفا (٢٠).
وقد كان قرب بلادهم من الأندلس مما سهل من توالى هجراتهم إليها ،
واستقرارهم فيها بعد الفتح ، وكانوا ينزلون بصفة خاصة فى المناطق
الجنوبية والغربية من الأندلس نظرا لشبهها بيئتهم فى المغرب .

وكانت منطقة روندة وإقليم تاركنا بالذات منزلا لجماعات البربر التى
استوطنته بعد استقرار عملية الفتوح الأولى (٢٢) .

وقد عدد ابن حزم فى الجهرة بيوتات البربر فى الأندلس
تفصيلا ... وذكر منهم بنو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت
برية من ملزوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيلة ، وبنو زوال من مغيلة أيضا ،
وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسة ، وبنو
الخروبي من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضا ،
ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هذيل من مديونة ، وبنو عبدوس من سرتة ،
وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بوبدة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى
أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية ، واستأثر جماعة منهم بالأقاليم
الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف (٢١) .

(٢٠) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد
سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر (تاريخ المسلمين ص ١٢٢) .
(٢١) د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ إسبانيا ج ١ ص ١١٣
هامش ٢ دار النهضة العربية سنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء
الأندلس الأول ص ٣٠٦ .

(٢٢) انظر جبهة أنساب العرب ص ٤٩٨ - ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب
٢ دار المعارف بهصر ط ٤ تحقيق هارون .

ثالثا : الموالى

جاء عدد كبير من الموالى إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفى طاعة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٤هـ وكانت هذه الطالعة أو هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب والفين من الموالى (١) . وكان أغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا فى طاعة بنى أمية ومنهم بنو الخليع وبنو وانبسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالى فى الأندلس بهؤلاء الذين دخلوا فى هذه الطالعة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبل ذلك من موالى بنى أمية وأصبحوا يؤلفون حزبا هاما وطائفة قوية تعرف بالأمويين (٢) نظرا لموالاتهم لبنى أمية .

وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالى تأسيس دولة لبنى أمية فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق على يد العباسيين وأنصارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بيوتات الموالى الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومى وكان أبوه بسيل مولى لبنى أمية ويتضح من نسبه أنه من أصل رومى . وقد دخل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، كما تولى أخوه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن .

الكتابة والخيال وغيرها ، كما كان يوسف بن يسيل واليا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ واصبح من كبار رجال الدولة فى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور فى تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شذونة فى عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى فى الدولة . كما دخل فى عداد الموالى بالاندلس عدد كبير من الاسبان الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية بعد الفتح امثال : بنو قسى ، وبنو بارون ، وبنو غومس بن قارلة ، وبنو مرتين واصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم (٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بنى قسى المولدين بالشغر فيقول : « كان قسى قومس (٤) الشغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الاندلس لحق بالشام ، واسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى اول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة

=

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان معه (عشرة آلاف من الامويين والشاميين) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٦ .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالاة أو الحليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخدمه فى شؤنه ويجرى عليه الأرزاق فيصير مولى له (انظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٦) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهى فى الأصل تعنى مرافق الملك ونديمه ، ثم أصبحت تطلق فى اسبانيا زمن القوط على ولاية الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسبانى Corde والفرنسى Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قهط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالانجليزية .

المصرية ، فولد قسى مرتون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى « ثم أخذ
يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم (٥) .

وقد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الأندلس حيث اعتمد عليهم
بنو أمية كثيرا وقتلوههم أهم المناصب فى دولتهم لثقتهم فى الإخلاص .
لها ، فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة . وقد نجح
الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج
زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول ، أو دويلات الطوائف الأولى
التي تمزقت فيها وحدة الأندلس وقام الثوار فى سائر الأنحاء بشق
عصا الطاعة على بنى أمية (٦) .

وقد كان هؤلاء الموالى يحسبون أنفسهم عربا ، ويدعون أرومات
عربية ينسبون أنفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصول ساداتهم وحتى
اولئك الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ادعوا أصولا عربية بمرور
الزمن (٧) .

وسواء صحت هذه الأنساب أم لم تصح فإنها كانت عاملا
أساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كما لو كانوا عربا
يتميزون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة (٨) .

وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالى الخلفاء الأمويين تسبوا

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٦) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣
وبعدها .

(٧) أنظر : المقتبس ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥ ،
تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٠ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فانكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفثه ، ونهى عنه ، وكان له مولى من عتاقة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمى به على جد الأمير فحسنت نشأته وتفقّه وتعبّد واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة . فتوفى بعد عام فى سنة ٢٠٨ هـ (٨) .

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حبان بهذا فلننا نعرف للعرب أسماء اختصوا بها دون الموالى . ولو استعرضنا أسماء بيوت موالى بنى أمية وغيرهم بالاندلس وأسماء ذرائعهم فلننا لا نجد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخالص التى أورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها فى الجمهرة .

كما اننا لا نجد فى المصادر الاندلسية ما يدل على أن أمراء وخلفاء بنى أمية قد ضاقوا ذرعا بذلك فيما عدا هذا الخبر الذى ساقه ابن حبان وما أكثر ما نجد حتى فى الأسر الأسبانية الأصل التى أسلمت من يتسمون بأسماء إسلامية كمحمد وأبى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك غريبا أو مستغربا . إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالى الذين تسبوا بأسماء عربية قد ادعوا نسبا عربيا كما حدث من بعض الموالى وخاصة الفرس فى المشرق فى العصر العباسى الأول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب . مثل أبى مسلم الخراسانى الذى ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس (١٠) .

(٩) ابن حبان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

رابعاً : العنصر الإسباني

يذهب الكثيرون إلى أن الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصرى السلت (الكلت) ، والإيبيريين (١) . فقد توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر ق.م ، واطلقوا على الشاطئ الذى نزلوا عليه اسم Ischepan- im (إسبانيا) أو شاطئ الأرناب . وأسسوا عدة مستعمرات ومدن ، من أشهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليوم هناك كما غزاها اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، واطلقوا على سواحلها اسم إيبيريا .

ثم ما لبث أن أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها . كما خضعت هذه البلاد فى هذا القرن أيضاً للقرطاجنيين الذين أسسوا فيها مدينة (كرتا جونونا) أى قرطاجنة الجديدة التى اتخذوها عاصمة لهم . وهكذا شهدت هذه البلاد منذ سنة ٥٥٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق.م تأثيرين : أحدهما أوربى عن طريق العنصر السلتى واليونانى والآخر آسيوى إفريقى أو سامى عن طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عند مجئ الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين وأسسوا مدينة Italica (طالقنة) والتى تسمى بأطقة . وهو اسم مشتق

(١) يذكر د. العبادى : أن العناصر السلتية Celts جاءت من أوربا وأن العناصر الإيبيرية Iberos جاءت من المغرب .

(انظر مجلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العدد الثانى المجلد

العاشر سنة ١٩٧٩ م ، المختار من عالم الفكر ص ٩٣) .

من كلمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التي تدفقت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الآلان ، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبا ، فاستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية وأشتوريش ، ونزل الآلان في لشدانية (البرتغال حاليا) ، وأقام معظم الوندال في باطقة وجزء من شرق الأندلس . ثم جاء القوط الغربيون بزعامه أطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقرا لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (٧٠٠ م) الذي اغتصب رودريك (لذرئق) حاكم باطقة الملك منه ، مما أدى ببناؤه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جولييان (يليان) حاكم سبته وحثهم على فتح الأندلس (٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في ذلك ، بالإضافة إلى

-
- (٢) انظر بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة أمين تكلال القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥ وبعدها . د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : أسبانيا والأندلس ص ١٨ . د. إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجده هؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة فى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمان ، كما دخل بعضهم فيه لصالح شخصية . وقد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسألة أو الأسالة . أما الذين بقوا منهم على دينهم فقد عرفوا باسم العجم (٣) .

وقد اعتبروا أهل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم داخل دولة المسلمين بالاندلس فقد أمنهم موسى ابن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية (٤) وكان لهم رئيس يلقب بالقومس . وكان أول من تولى هذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجل يسمى أرطباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قماسة محليون ينتخبهم النصرى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصرى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد البر وكان يتبع القوانين القوطية فى الحكم بينهم (٥) .

وقد أطلق على النصرى الإسبان الذين عاشروا المسلمين ، واختلطوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسلام اسم (المستعربين) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتح

-
- وقد أنكر د. مؤنس إتصال أبناء غيطشة بالعرب وحثم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعد ذلك فى ص ٦٤ ورجح اتصالهم . (انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤) .
- (٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .
- (٤) الرسالة الشريفة ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٠ .
- (٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير أن أعدادهم أخذت في التناقص بدخول الكثيرين منهم في الإسلام حتى أصبحوا أقلية بالنسبة للمسلمة . وقد تمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين في حرية وأمان وسلام على أحياء خاصة (٦) .

والكتاب الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعد فتحها سنة ٩٤ هـ خير شاهد على ذلك ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح ، وأن له عهد الله ودمته وذمة نبيه ﷺ إلا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه ... الخ » (٧) .

وقد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضهم يزرعونها ويدفعون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليها ما عدا الكنائس التي قسموها بينهم وبين النصارى ليقبوا فيها مساجد جامعة . مثل مسجد رفيئة الذي أقيم في جزء من كنيسة سانتا رفيئة . وذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيها وذلك غير صحيح . والحقيقة أنه أقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه .

(٦) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس : ص ١٢٠ .

(٧) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٦٢ - ٦٣ ، بغية الملتبس

ص ٢٧٤ ، فجر الأندلس . ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ ، د. لطفي

عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٢٢ - ٢٣ . وهناك اختلاف

طفيف في بعض الفاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

ومثل جامع قرطبة الذي اقيم في شطرنج من كنيسة شنت بنجنت ، وكان للنصارى اديرتهم مثل دير ارملاط في الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خوان دي لابنيا الذي اقامه الراهبان فوتو وفيلكس في عهد عقبة بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية في العصر الاموي مركزا اسقفيا هاما . وكان اول من تولى رئاسة اسقفية إشبيلية المطران المند بن غيطشة (٨) ، وكانت اصوات اجراس الكنائس تقرر جنبا إلى جنب مع اصوات المؤذنين في المساجد . مما يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصارى يمارسون شعائرتهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر ابو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها ليلة مع بعض اصحابه فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشيت بسرور واستيناس وقر النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنانير ابدع توشيح . » (٩). كما نظم ابن حزم آياتا جاء فيها :

انبتى وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس (١٠)

وقد ظل النصارى الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قرع النواقيس ،

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وبعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ . فجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ١٣١ .

(٩) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طوق الحماة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة لتمييزوا عن المسلمين ، والا يركب أحد منهم فرسا ، والا يشتري مسلم منهم رداء إرتدوه . (١١)

ويبدو ان ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحى (الاسترداد او الاستعادة) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعاونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بعيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم .

ورغم ذلك فان أحوال أهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الأسبان المسيحيين بعد ان اخذت دولة الإسلام فى الأندلس فى الاضمحلال والسقوط وبكفى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك .

وبشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا أكثر تسامحا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شئء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعدوان » (١٢) . هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالأندلس ،

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ - ١١٣ .

المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ - ترجمة حمزة طاهر - ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت .

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف في المدونات الإسبانية باسم
(ريسموندو) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة
أصبغ بن عبد الله بن نبيل (١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا
بترجمة كثير من الكتب الفشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس.
بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين
الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضي جيزون قاضي النصارى-
بقرطبة في خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم في بعض الأحيان بدور
المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعمرون دورا ثقافيا فقد لعبوا دورا سياسيا هاما
بمحالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله . كما تجلّى في
ثورة عمر بن حفصون (١٥) .



(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٣٢
(١٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأديب الأندلسي ص ٣٠
(١٥) انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥

خامسا : عنصر المولدين

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذى ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربا أو بربر ، وامهات اعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك ، ونشأ على الإسلام . فقد أقبِل الفاتحون من العرب والبربر على بمصاهرة أهل البلاد ، ف تزوج الكثيرون منهم من الإِسبانيات ، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولفقه فى الأندلس ، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البلاد الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . (١)

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٨ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٤ .

اتصل بالعناصر العربية والبربرية فى الأندلس عنصران آخران هما بوهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج فى المجتمع الأندلسى المسلم اندماجا جعل بعضهم يبتدعون أنسابا عربية ومن هؤلاء أسرة بنى مغيث الرومى الأصل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقى بن مخد وابن حزم وابن سراج القرطبى . وكما كان للمولدين فضل فى خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضا واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر الذى ناظر صاعدا اللعوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعاملون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب فى ذكر منآخرهم وهو كتاب (الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة) .

ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتذليل فى دائرة الشعوبية وإن لم يكن فى صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بنى جنسه دون التهمج

على غيرهم . (نواذر المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١) .
أما الميل الحقيقي للشعبوية فقد أخذ طابعه الكامل في محيط المولدين .
ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإنسجام مع الإسلام ، على العكس
من شعبوية المشرق حيث نرى الشعبويين فيه من الملاحدة والزندقة في
أغلب الأمر .

ويعد محمد بن سليمان المعافري من أقطاب الشعبويين في الأندلس .
ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفاً
بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم
عند شعوبي المشرق تعنى الفرس في القرن الأول أما عند شعوبي
الأندلس فتعنى الإسبان والروم .

ويبدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبي للشعوبيين في الأندلس إلا بعد
زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها
المولدون والصقالبة أن يستأثروا بعدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع
صوت الشعبوية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبي عامر بن غرسية الذي عاش
في بلاط مجاهد الصقلي ملك دانية ، والف رسالة في تفضيل العجم
على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوي صاحب المخصص الذي
يقول عنه الذهبي « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » . . . وكان
متقطعا إلى الأمير مجاهد العامري .

(انظر الرسالة والرد عليها في نواذر المخطوطات القسم الثالث .

وقد كان هذا الجيل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلس وأهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدعى نسبا في المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه مثل ابن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس « أنه كان من غرائب انتمائه في فارس ، وإتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر » (٢) كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو أنجلين ، وبنو التبطرنة وبنو ردف ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى . (٣)

وفي كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين أبو بكر بن القوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) .

وقد كان جل أمراء الأندلس وخلفائها من أصل مولد تجرى في عروقهم دماء غير عربية وبخاصة الدم الإسباني من جهة الأمهات أو الجدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولد بربرية تسمى راج أو رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حلال أو حوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولد تسمى زخرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مونة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من أم ولد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون (٤) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٥٠ نشر أحمد فريد رفاعى .

(٣) انظر في ذلك ابن حيان : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ص ١٦ وبعدها نشر ملثور أنطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجبهة أنساب العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٠ ، المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١ - ٢٨ الضبى : بغية المتشمس ص ١٢ - ٢٣

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام ، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على الأندلس ، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم أو النصارى ضد العرب والبربر معا (٥) .

ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت في المدن الهامة مثل طليطلة التي كانت تضم أكبر طائفة منهم ، وكانت مركزاً من أهم مراكز عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك في الحركات الثورية المتعددة التي قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هاماً من معقلاتهم . حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء (٦) .

وقد انتهر هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية في عهد الأمير عبد الله فثاروا في عدة نواحي من الأندلس ضد السلطة المركزية وكان من أخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذي تغلب على ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذي عرف بابن الجليقي - نسبة إلى جليقية - « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » (٧) كما رثار يحيى بن بكر بن ردف في شنت مرية بأشكونية (٨) .

(٥) عنان : دولة الإسلام - العصر الأول القسم الثاني ص ٢٧ هامش ١

(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٥ - ١٦ .

(٨) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جمهرة انساب

العرب ص ٤١٥

وقد كان من شأن كثرة إنشاء هذا الجيل المولد إنتشار اللغة العجمية أو اللطينية — كما يسميها المؤرخون العرب — بين الاندلسيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانثية (الإسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية (٩) .

وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال (١٠) .



(٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥ ، د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٣١ - ٣٢ .

(١٠) عن الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة عدد ٢١ ، صويل ستيرن : الموشح الأندلسى ترجمة د. عبد الحميد شبيحة ، دار الآداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

سادسا : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان فى المجتمع الإيبانى قبل الفتح الإسلامى ، وقد عانوا كثيرا من اضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إيبانيا ، وخاصة بعد القرارات التى إتخذها المجلس الكنسى فى مدينة البيره سنة ٣٠٣ - ٣٠٤ م ، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسى الذى عقد فى طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك (ريكاردو) الذى كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس تتلخص فى : منع استخدام اليهود للمسيحيين فى أى عمل ، وعق أى عبد مسيحى مملوك ليهودى ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم فى الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم فى مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها ، ثم جاء الملك (سيسبت ت ٦٢١ م) فضيق الخناق عليهم أكثر وأكثر وخاصة فى إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية أو الرحيل عن إيبانيا ، فهاجر الكثير منهم وبقي البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية خروا على نفسه وأملاكه .

ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترون *Judaizantes* . ثم جاء عهد الملك (سيونتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه ، فانتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذى طلب من المجلس الكنسى تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٣٣ م جدد المجلس قراراته السابقة و اضاف إليها قرارات أخرى منها :

- ١ - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتمهيدهم وتربيتهم تربية مسيحية .
- ٢ - تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدا له .

وفى عهد الملك (كانتيلا) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك فلما مات واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمرا - عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة - بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك (إخيكا) صهر إرفيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذى قام به اليهود ومارسوه فى المجتمع الإسباني وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ١٣ - ١٧

ان يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الاندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين . ولا يستبعد أيضا ان يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم (٢) .

ولما استقر المسلمون في الاندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحظون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك أثره في هجرة الكثير من يهود أوروبا إلى الاندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن بالاندلس وعلى رأسها غرناطة التي كانت تزخر باكثر جالية يهودية ولذلك سميت (أغرناطة اليهود) ، ومنها مدينة اليسانة التي تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسي : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين يسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة (٤) ، ومنها أيضا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة . وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل . وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوروبا (٥) .

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٣٣ ،

د. لطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٣٣

(٣) السيد سالم : المرجع السابق ص ١٣٣ ، د. الطاهر مكي : دراسات اندلسية ص ٥٥

(٤) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٥ . ط. ليدن سنة ١٨٦٦ م .

(٥) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما في الاندلس في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شيفروط (شبروط) طبيب الخليفة الناصر الذى كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وقام بدور هام في السفارة التي أوفدها قسطنطين السابع إلى الاندلس سنة ١٠٣٨ هـ ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نازار .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في مملكة غرناطة حيث وصل واحد منهم وهو ابن النفريلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذى أصبح صاحب الشرطة في ألبنة ، كما وصل أبو الفضل بن حسداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة في مملكة سرقسطة (٦) .

وقد كان لليهود - مثل النصارى - نظام إدارى خاص بهم في الاندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود في الاندلس ص ٢٢ - ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكي : دراسات اندلسية ص ٥٤ وبعدها ، على محمد راضى : الاندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النفريلة : يدعى صهيول هاليفى ويسمى في المصادر الاندلسية إسماعيل أو أشموال وهو من أهل ماردة ، ولد في قرطبة ، وتلمذ في الدراسات اليهودية على يد أبى حنوك ابن موسى رئيس الطائفة اليهودية بالاندلس ، ودرس الفلسفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واستطاع

الأكبر . وكان من أشهرهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى
ابن شبروط (٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بالاندلس قبل الإسلام ،
ومن نبغ منهم فإنما كان ذلك في ظل الإسلام وتسامحه وتحت رايته .
بدليل أنهم في أسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلما كان في الاندلس
الإسلامية ، فتراثهم بالاندلس يعد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافة
العربية التي نهلوا منها ، ولذلك عندما أخذ حكم المسلمين في الزوال
من الاندلس نصبت العقليات اليهودية ، ولم يظهر لهم تراث مماثل
إلا خلال عصر النهضة في أوروبا (٨) .

لقد تمتع اليهود في هذا العصر الأموى بكثير من الوان التسامح
لم يظفروا به خلال حكم القوط ، ولا غيروا فقط غدوا عنصرا هاما
في الإدارة والتجارة والصيرفة كما استندت إلى الكثير منهم مناصب هامة
في الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم (٩) .

أن يسيطر هو وابنه يوسف من بعده في دولة بنى زيرى
في غرناطة فتولى بيت المال والوزارة ، كما تولى ابنه مرتبة
الوزارة أيضا ولابن النفريلة كتاب طعن فيه في الإسلام والقرآن
الكريم وقد رد عليه ابن حزم الاندلس في رسالة نشرها في
القاهرة د . احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان (رسالة في الرد
على ابن النفريلة اليهودى) .

(٧) اليهود في الاندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهود في الاندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإسلام في أسبانيا ص ٣٤ .

سابعاً : الصقالبة (١)

كان لفظ صقلبي يطلق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالأندلس على الرقيق المجلوب من أوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية في إسبانيا . فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

(١) يرجع الصقالبة في أصلهم إلى الجنس الآري : (أو الهندو أوروبي) . والمعروف أنهم نزحوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون في أوربا حتى القرن العاشر الميلادي حيث ظهرت قوتهم ، وظل مستواهم انحضاري ضعيفا بالنسبة للشعوب التي اصطدموا بها . وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلدانا مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :
١ - السلاف الجنوبيون : (اليوجسلاف) في الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين (سكان سلوفينيا) .

٢ - السلاف الغربيون : في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا .

٣ - السلاف الشرقيون : أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار في الوسط والشمال ، والروس الصغار في الجنوب ، والروس البيض في الغرب (انظر : محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا ج ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجليقية فى شمال إسبانيا (٢) .

وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإدرياتي غربا (٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقالية أجناس متعددة من الروم والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود (٤) .

ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبى الكثير من أفراد تلك الشعوب ، وبيعها إلى المسلمين فى الأندلس ، ولهذا سمو بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد ، ثم حور اللفظ فى العربية إلى

١٩٩١ م) ، د. أحمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥
مجلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م (.

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلاف
Slaves فعربها العرب إلى صقلبي التى ترادف عبيد Slave
وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى
أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم
Sklave بالإنجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavery بالالمانية

(جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ - ٣٤) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف

مقابلة وتوسع في استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض
المجلوب من أية أمة مسيحية (٥).
وكان أغلبهم يؤتى بهم إطبلا من جوف نهر الدانوب وبلاد
الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة في القصور ،
والانخراط في سلك الجندي ليكونوا جنودا في الحرس أو الجيش . وكان
المستخدمون منهم في القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم ،
وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخصاء
في أوربا - وخاصة في فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان
بمنطقة اللورين ، وكذلك في الأندلس - وخاصة في مدينة خلف بجانة
وهي شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها
من اليهود (٦) . وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التي يحرمها
الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم
من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة
الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ٦٣١ ، ليفي
بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة
الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم مزر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع :
الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . ومن المتعارف عليه أن الروم
البيزنطيين كانوا أول من قام بعملية الخساء . (الحيوان ج ١
ص ١٢٥) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجارب اليهود» (٧) .

وقد تميز الخصيان من الصقالبة بمعدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى أجود خدمة ، وأظن لأبواب العطاء والمنولة ، وهو بها أنفق ، ولها اليق ، ونجده أيضا أذكى عقلا عند المخاطبة . » والصقلبي سلس القياد لبراعته من ومورة العصبية « ويبدو أن الجاحظ قد حكم في ذلك على من شاهده في بغداد منهم حيث كانوا قلة غير متعصبة بخلافهم في الأندلس حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضد العرب وخاصة في الجزائر الشرقية التي استقل بها الأمويين . مجاهد العامري بعد سقوط الخلافة الأموية وكان معظم سكانها منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مع طول الركوب ، حتى فاتوا الترك في ذلك ، كما أنهم يجيدون الرمي بالنشاب إجابة تامة . »

كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنون من الصناعات إلا صغارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخذ به كتقاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم أيضا بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود (٨) .

وقد اشتهروا بحسن الخدمة كما يستدل على ذلك من قول الخوارزمي « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي » (٩) . كما اشتهروا بالشدة والمراس في الحروب يقول ابن عبدون :

(٧) صورة الأرض من ١٠٥ - ١٠٦ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ .

ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ ، المحاسن والمساوى ج ١ ص ٣٩٦ .

(٩) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٦ .

« ومن أراد السيف لحفظ النفوس والأموال بالهند والنوبة ، ومن أرادهم
للكنيسة والخدمة فالزنج والأرمن ، ومن أرادهم للحرب والشجاعة بالترك
والصقالبة » (١٠) .

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم
حرسا خاصا له فجلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم الخرس
لمعيتهم (١١) . ثم أخذت أعدادهم في الازدياد وخاصة في عهد الخليفة
عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في
عده نحو ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين (١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة
في الإدارة والجيش وخاصة في عهد الناصر مثل نجدة الصقلي قائد
الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وأفلح صاحب الخيل ، وخلف مدير
الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وعند حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ (١٣) .

(١٠) رسالة نافعة في شري الرقيق (نواذر المخطوطات (٤) ص ٣٥٢) .
(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . أطلقت عليهم عدة أسماء أخرى
مثل الأبناء ، والفتيان ، والطفاء ، والعلاج ، والمجائب ، والماليك
إلى جانب الخرس ، والصقالبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرقم
مختلف في تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر ألفا
أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن
ذلك يدل على ظهور عنصر جديد في المجتمع الأندلسي كان له
دور واثر مماثل أو مشابه للعنصر التركي في المشرق .

(١٣) د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم
الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب في إسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم ، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام .
وقد نبغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد .
وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقلابة) (١٤) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري ، وإضعاف سيطرتهم على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين .

ويبدو أن الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري فأرادوا الاعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سنداً لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركي بعد أن ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربي والفارسي .

إلا أن ذلك قد أدى إلى ازدياد المنافسة والعصبية بين عناصر المجتمع فبدلاً من أن يكون الصراع بين عنصرين انسانيين هما العرب والبربر أصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له أثره في المجتمع الأندلسي من نواحي شتى .

(١٤) د . لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٢٧ .

ومثال ذلك أنه عندما ولى الناصر ملوكه نجدة الصقلبي قيادة الجيش. المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثاني) سنة ١٢١٧ هـ فى موقعة الخندق عند مدينة سيمانقة هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد أن نجا بأعجوبة ، حيث قيل إن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا فى الجيش لتولى قيادته صقلبي ، وتقديسه الصقلابة عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب أخبار مجموعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه » (١٥) .

وقد لعب الصقلابة دورا هاما فى الحياة السياسية بالأندلس فى هذا العصر حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها . وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبي .

كما كان لهم دور أيضا فى الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فائق الصقلبي الذى برع فى الأدب وناظر صاعدا العالم اللغوى عند المنصور بن أبى عامر فأفحمه وأعجب به المنصور ، ويذكر أنه وجد فى تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط . كما ألف الأمير مجاهد الصقلبي صاحب دانية كتابا فى العربية يدل على قوته فيها (١٦) ويذكر ابن الأبار أن حبيبا الصقلبي ألف زمن هشام

(١٥) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٤٥ - ١٤٦ ، معالم تاريخ

المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب فى إسبانيا ص ٣٨٠ .

(١٦) الضبى : بغية المتمس ص ٤ .

المؤيد كتابه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقلابة) يتمصب فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على جملة من اخبارهم ونواديرهم واشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شىء منها فى كتابه الذخيرة حيث قال « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا » (١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقلابة اثر ايضا فى الحياة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ، وقد اشار اطرطوشى إلى اختصاصهم بأنواع من الالحن والرقصات الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبى والرقص الصقلبى الذى يذكرنا بشىء منه الرقص الإسبانى الحديث (الفلامنجو) (١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا : أن الصقلابة كانوا يمثلون العنصر الأوربى فى المجتمع الأندلسى ، وعن طريقهم انتقلت بعض الصور الشعرية التى شاعت فى الأندلس إلى البيئات الأوربية واثرت فيها (١٩) .

ويبدو أن الصقلابة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الأخرى ، وحاولوا المحافظة على كياناتهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا أساس الحركة الشعبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات الصقلبية فى عصر ملوك الطوائف ، حيث استطاع الصقلابة

(١٧) الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠ .

(١٨) الحوادث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبي تونس سنة ١٩٥٩ م .

(١٩) الإسلام فى إسبانيا ص ٣٨ .

أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك في شرق
الأندلس وخاصة في بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .
وكانت هذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصري .
وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزا لها عن الدولة العامرية التي
أسسها المنصور بن أبي عامر . لأن أصحابها كانوا من ممالك
العامريين (٢٠) .

ومما يدلنا على نزعة الصقلبية الشعبية ضد العرب كتاب
ابن حبيب السابق ذكره والذي اعتبره البعض البداية الأولى للشعبوية
في الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهي رسالة
أبي عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاعر أبي عبد الله الحداد أو أبي جعفر
الخرّاز والتي يفضل فيها العجم على العرب (٢٢) .
ويبدو أن السبب في هذه النزعة الشعبية بين الصقلبية
بخاصة أن معظم أهالي الإمارات الصقلبية التي انتشرت فيها هذه النزعة

(٢٠) المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه في الإسبانية
صاحب الحيلة أو الثعلب أو الماكر كما ورد في معجم المجمع العلمي
الإسباني ، وهو اسم شائع في أسبانيا تسمى به كثير من الملوك
والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين
ومنهم المستشرق الإسباني إميليو جارسيا جوميز (نواذر المخطوطات
ص ٢٣١) .

(٢٢) اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون
إلى أنه أبو جعفر بن الخراز ، وذكر البعض أنه أبو عبد الله
ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد .

كانوا من الموالي من الصقلية والإفرنجية والبشكنس الذين رغب بهم
الصقلية في ولاياتهم كما ذكر ابن حيان « بينما زهدوا في الامراء
من العرب وابنائهم ممن طرا عليهم فلم يواستوهم » (٢٣) .

* * *

والارجح انه (ابو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن سهل
الانصارى المعروف بابن الخراز) . كما نص على ذلك ابن سعيد
في ترجمته لابن غرسية (المغرب ج ٧ ص ٣٣٥ - ٣٣٦) ، لانه
ترجم لابن الحداد في موضع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ،
ويبدو أن الاختلاف جاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتي
الحداد والخراز من بعضهما (انظر نوار المخطوطات ص ٢٣٥ -
٢٣٦) . وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسالة في
نوادير المخطوطات (ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٥٤) والردود عليها
من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من اصل مسيحي بشكنسى أسلم واثقن العربية
وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش في مملكة دانية الصقلية
وخدم في بلاط مجاهد العامري الصقلبي وابنه على ولذلك تعصب
ضد الغرب فكتب رسالته هذه . (انظر : نوادر المخطوطات
ج ٣ ص ٢٣٢) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ نقل عن المختار من عالم
الفكر ص ١٢٩ .

١٧١ هـ ٣٢٣ قهـ

ثامنا : النورمان (الفايكنج)

يعد (راجا) مصيلا قلميلا رقلللا ريف رلسلا منسجم ٢١٠

من مصيلا رفسك عنصر آخر فرض نفسا على الاندلس منذ عهد عبد الرحمن
الاولى . ويسمى هذا العنصر فى المصادر العربية باسم (النورمانيين ،
والارمانيين ، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الانجليزية Norsemen
او الإسبانية Normandes وتطلق على اهل الشمال من الدول
الاسكندنافية او سكان اسكندناوه (١) .

ولا تزال توجد فى فرنسا حتى اليوم ولاية او مقاطعة تحتفظ
باسمهم وهى نورماندى او نورمانديا حيث استقروا بها فى اوائل القرن
العاشر الميلادى بموجب معاهدة بين ملكهم رواو وملك فرنسا شارل
الثالث الملقب بالابله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا
كما اقامت جماعة منهم فى جنوب إيطاليا ، واستخدمتهم الكنيسة فى
محاربة المسلمين فى الاندلس وصقلية ، فقد هاجموا الاندلس سنة ٥٦٤هـ
واستباحوا مدينة بربرشتر شمال شرق سرقسطة ، وهاجموا صقلية بعد ذلك

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم
بالمجوس لا تعنى أنهم من جنسهم الفارسى ، وإنما اعتقادا منهم بأنهم
كانوا يعبدون النار وهو اعتقاد خاطئ ، حيث كانوا إذا ما نزلوا
فى مكان خربوه ونهبوه واشعلوا النار فيه مثل القراصنة ، كما
كانوا يحرقون جثث موتاهم فظن هؤلاء المؤرخون أنهم يعبدون النار
مثل المجوس ، ولعلهم قصدوا من هذه التسمية أنهم وثنيون حيث
كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكر ا. أحمد أمين أنهم
سموا بذلك لأنهم كانوا مجوسا قبل أن ينتصروا (ظهر الإسلام
ج ٣ ص ١٠٨) . ولكن ليست هناك أدلة على ذلك .

سنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلي في المناطق المحيطة بالبحر البلقى (بحر البلطيق) ، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دنمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل الأندلس وسواحل المغرب أيضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس في سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) . وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة ، والأسهم النارية التي يطلقونها ، والأشعة السوداء التي تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا في أولى غاراتهم هذه التي استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام ، بعد أن هاجموا أشبونة (لشبونة بالبرتغال حاليا) ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

وأما تسميتهم بالفايكنج فاتها مشتقة من كلمة Vik النرويجية . وتعنى ساكن الخلجان .

ولهذا أطلق هذا الاسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد في المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعنى المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين (الأمويون . أمراء الأندلس ص ٣١٨) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، الدنى : المسلمون في صقلية وإيطاليا ص ٣٠ - ٣١ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٠٨ .

(٣) إين عذارى : البيان المغرب ص ١٣٠ ، د. عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الأسطول الأندلسى الناشئ الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم . وقد قتلوا بعد ذلك بعدة غارات على الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ هـ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠ هـ ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم أثناء الإنسحاب ، فوقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحي إشبيلية ، وأختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الأجبان — التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فيحدثنا المقبرى نقلا عن المؤرخ الحجارى — نسبة إلى وادى الحجارة — « أن مدينة شريس — وهى بنت إشبيلية وواديها — وابن واديها — اختصت بإحسان الصنعة فى المجينات وطيب جينها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس من دخل شريس ولم يأكل بها المجينات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحي السياسية والحربية ، فضلا عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية لأن أقام منهم بالأندلس .

فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى أهمية

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٢٠ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ والمجينات : نوع من القطائف المحشوة بالجبن تلى بالزيت . (د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٣٣ هامش ١) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فأرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) سنة ٢٣٠ هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل الأندلس ، وبناء أسطول قوى يستطيع حمايتها من المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة فى تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، وأقام نقاطا للحراسة على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين ، واهتم بإنشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد أن تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

(٦) تحدثت عن هذه السفارة بالتفصيل فى بحثى عن السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ — ٢٠

(٧) إبن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى إستخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ٥١٦ م ، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينكوس) وكان من أصل سورى ثم أقام فى القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى عن المدينة (راجع

في نهر الوادي الكبير استعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم في إشبيلية واستقروا قد ساهموا بخبراتهم في صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقد جاء في كتاب الجغرافية - المنسوب إلى أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر الزهري حوالى منتصف القرن السادس الهجري - « أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل الأندلس يسهونها القراقير وهي مراكب كبار بقلوع مربعة ، تجرى إلى أملمها وإلى خلفها ، وكان يخرج فيها أقوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر ، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركبا ، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسبونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت أثارا في النواحي الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين ، وظل صداها مسموعا في الأدب والتاريخ الأندلسي زمنا طويلا .

لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢١٤ . وكان هذا السلاح مكونا من مركب كيميائي من النفط والكبريت والقار تقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفئ بالماء بل يزداد اشتعالا . (د . إبراهيم المسدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٥٢) .

(٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٦ والقراقير جمع قرقرور وهو السفينة الطويلة العظيمة (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٧٣٦) .

(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د . الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٢٢٨ .

الفصل الثاني

العلاقات بين عناصر السكان



أولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس - كغيرها من البلدان الأجنبية - سببا مهما في حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان ، وغيرهم ، إختلاط في الأنساب والدماء ، واقتباس في النظم والعادات والتقاليد ، وامتزاج في العقيدة الدينية ، وامتزاج في اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان في الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير ممن لم يدخل في الإسلام لأنها لغة العلم والثقافة ، وسعى هؤلاء بالمستعربين .

Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هذه العملية من أهمها :
التعاليم السمحة والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام ، وادت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد في السكنى والجوار ، والتعامل فيما بينهم في كثير من نواحي الحياة . (١)

وقد أدت الفتوحات التي قام بها المسلمون في الأندلس إلى دخول الكثير من العبيد والإماء في ملكهم بعد أن أصبحوا أسرى لهم ، وبذلك أصبح لكل جندي منهم عددا من الرقيق يستخدمهم في قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن أمهات أولاد ، وتنتج عن ذلك جيل مولد له صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعد ذلك عملية اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلوا الأندلس لم

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية
سنة ١٩٧٨ م .

يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم (٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولذا فانهم اضطروا إلى الارتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو في بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التي كان لها أثرها الكبير في نواحي شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من (إخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتي تسميها المصادر العربية إليه وتكنيها بأم عاصم (٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمي الذي تزوج من إحدى أميرات إسبانيا (٤) ، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المنذر بن غيطشة في دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أرطباش ، ثم قدمت معه إلى الأندلس.

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذي ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها في الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذي اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (ح ١ ص ٨١) .

(٣) تذكر بعض المصادر أخرى أنها كانت إينة لذريق (انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥) .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ ، أخبار مجموعة ص ٢٠ .

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسي المشهور بابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ت ٣٦٧ هـ)
سوقد روى ذلك في كتابه (تاريخ إفتتاح الأندلس) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٢٨ هـ تزوجت سارة من عمير ابن سعيد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بني سعيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجرز وهم اشراف ولد عمير بإشبيلية (٦) .
كما تزوج القائد البربري (مونوسه) — الذي كان حاكما على شرطانية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربي عبد الرحمن الغافقي في الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكيثانيا وتدعى (لامبجييه أو مينين) (٧) .

كما تزوج الأمير الأموي عبد الله بن محمد وإلى قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (أنيجا) المعروفة باسم در — ابنة ملك نافار (فرتون ابن غرسيه) المعروف بالانقر — والذي وقع في أسر المسلمين ، وظل في قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وأنجب منها ابنه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣ هـ) — الذي تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومنس جنوب إسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأُم الوليد .

(٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن ابن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ - ٣٩٥ هـ (٨) .

ولذا كان الناصر - كأكثر بنى أمية من المولدين بالاندلس - يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر (٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى (أورورا) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى التى ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تغلب عليه المنصور بن أبى عامر ، واستطاع أن يصل من طريقها إلى السلطان والنفوذ (١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى عامر من ابنه ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم (عبده) ، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم (سانشويلو) أى سانشو الصغير تكريما لذكرى والدها (١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة

(٨) ابن حبان المقتبس ج ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنيثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٣٠٩ ، ترتيب المدارك ص ٢ - ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ٢٤ - ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨ ، أعمال الاعلام ج ٢ ص ٦٦ .

وما حولها) من الأميرة (فلشكيطه) بنت سانشو ملك نافار ، كما تزوج
أخوه موسى من أوربة بنت غرسية ابن وثقه ملك نافار أيضا (١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمراء والخلفاء
والقادة ، فلا شك أن الكثيرين من العامة والجند قد فعلوا ذلك ،
فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته ،
ما ذكره المراكشي حين قال : « وماذا المنصور بن أبي عامر الأندلس غنائم
وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفي أيامه تغالى الناس
بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص الثمن
بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا
ذلك لم يتزوج أحد . بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم
بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار
عامرية » (١٣) .

وفي هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : أنه عقب وفاة المنصور
خرج الناس صائحين « مات الجلاب ، مات الجلاب » (١٤) ، وهي كلمة
كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس « بائع الرقيق » ، واستعملت

(١٢) انظر عن نسب أسرة بنى قسى جمهرة انساب العرب ص ٥٠٢ .
تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم
الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا في غزواته .
وقد حبيب العرب والبربر في هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات
من جمال وبياض بشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهي صفات
أحبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم » (٩) .

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ
على الإسلام ، وتعلم العربية ، وأصبح يؤلف على عهد بني أمية
الكثرة الغالبة من السكان ، ومنه تكونت جهات الأندلسيين (١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجمال
والذكاء والشجاعة ، وكان له أثره الكبير في تاريخ الأندلس وحضارتها .

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .
(١٠) في بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ،
حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض
المسلمين ، مثل زواج وثقة بن وثقة ملك نافارا من أرملة موسى
ابن فرتون بن قسي أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج
أحمد حكام جليقية من جميلة أخت محمود بن عبد الجبار
المصمودي البربري الذي أعلن الثورة في ماردة سنة ٢١٣ هـ على
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء
إلى جليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار
أسقفا على مدينة سانت ياقب (سانت يعقوب) (أنظر : المختار
من عالم الفكر ص ٩٧) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لغير مسلم فلا بد
وإن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهم النصرانية بعد
زواجهن بالمسلمين ، أو أنهن أجبرن على التنصر ، أو تحولن
إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو أنجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين بإشبيلية في عهد الأمير عبد الله (١١) وبنو شبرقة ومنهم علي بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالي ٣٠٠ هـ) وكان من أهل بطليوس وبنى بها مسجدا على نفقته (١٢). وبنو يليان (جوليان) حاكم سبته أيام الفتح ، ومنهم أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن البلكايش ابن اليان القوطي (ت ٣٨٨ هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة (١٣) ، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو لنتق ، وبنو القبطرنة (كابتورنو) أي الرأس المستدير ، وبنو مردنيش (مارتنيز) ، وبنو غرسية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الثعوبى الأندلسي المشهور ، وبنو ردلف (رودلف) ، وبنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) في عهد بني أمية ، وكان جدهم فرتون قومس الثغر في عهد القوط (١٤).

وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى أسر شهيرة ذات

(١١) ابن حيان : المقتبس ص ٧٤ نشر ملثور انطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .

(١٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨ .

(١٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦ ، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) انظر ابن حيان : المقتبس ص ١٦ ، ٧٤ .

أصول إسبانية نذكر منهم : أبا الفتح نصر بن أبي الشمول (ت ٢٣٧ هـ)

الذي تنسب إليه مئنة نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة (١٥) .

وأبواب بن عبد ربه البرقسطي الأصل وكان من المسألة المولدين

تولى قضاء اشبيلية (١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومي وكان أحد

مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخل . والعلامة الحافظ بقي بن مخلد

(ت ٢٧٦ هـ) الذي يرجع إلى أصل إسباني كذلك (١٧) . والأشعثين

محمد بن عاصم (ت ٣٠٧ هـ) وهو أول من ألف في طبقات الكتاب

بالاندلس ، والفقيه أبو محمد الأصيلي (ت ٣٩٢ هـ) ، وكان جده

من مسألة أهل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، وأصله من

شذونة أو من الجزيرة الخضراء (١٨) . وكذلك أحمد بن عبد الله

القرطبي ، وهو ابن أخى قومس كاتب الأمير محمد وقومس هو

ابن أنتينان بن يلبانة النصرانية ، أسلم بعد سنة ٢٤٦ هـ

واشتهر بكرة العبادة حتى قلبي بالسجادة العبادة حماسة

المسجد (مسجد قرطبة الجامع) (١٩) . وكان له ابن يسمى عمر

ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨ هـ (٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت ٣٣٠ هـ) المعروف

بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الاعلام

(١٥) جبهة انساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكملة ج ١ ص ١٩٨ ترجمة ٥٢٣ .

(١٧) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، ج ٣ ص ١٦٨ ، بغية المتتمس

ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ترجمة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣ — ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ .

(١٩) أنظر : تاريخ علماء الاندلس ص ٩ ترجمة ١١١٣ ، الخشني :

قضاة قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هذا وأخيه أحمد وعمر (٢١) ، وأبو المطرف بن مورتشي (٣٨٦)
الذى تولى قضاء سرقيطة وكان منها ، وأبو وهب منتيل بن عفيف
(ت ٣١٧ هـ) ، وكان من أهل وثقة ، وأبو عمر بن قزلبان القرطبي
(٣٧٧ هـ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية .
وحسبنا أن نتصفح هذه الكتب لنجد العديد من أسماء الأمراء والقادة
والفقهاء والكتاب التى تدل على أصل إسباني .

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة
الرومانشية (اللاتينية الحديثة) بين الأندلسيين ويسمى المؤرخون
العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانشية
تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات (٢٢) .

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالاسلام ، ويتحدثون العربية ،
ويتخذون غالبا نمط الحياة التى يتخذها المسلمون الوافدون على
الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تماما باعتبارهم منحدرين من أصول
إسبانية فى الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير
منهم لأصلهم الأسباني رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى
ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير
عبد الله ، وثار بعضهم فى عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون
فى بيشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجطى فى ماردة
وبطليوس الذى « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

(٢١) أنظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٧ ، ج ٢ ص ٥١ ج ٢ ص ٣٥
ترجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجذوة المقابس ص ٩٨ ، ٤٧ .
(٢٢) ابن حزم : جبهة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفى عبد البديع :
(٢٢) ابن حزم : جبهة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام فى إسبانيا
ص ٢٥ ، د. أحمد هيكل : الأديب الأندلسى ص ١٥٠ .

ابن بكر بن ردف (رودلف) فى سنت مرية باشكونية (٢٣) .

وتند تالفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الاندلس الهامة مثل
طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم — لأنها كانت عاصمة إسبانيا
القديمة — إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من
الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الاموية فى قرطبة . ومن
اخطر هذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الريحى
سنة ١٨٩ هـ (٢٤) وكان يقولى امرها امراء مولدين مثل عمروس الوشتى
ولب بن طريشة . وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معقلهم ، وكان
المولدون فيها يعملون غالبا بالتجارة فجنوا ارباحا طائلة ، وكان كثير
منهم من الاثرياء الذين انفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب
لبنى جنسهم (٢٥) .



(٢٣) ابن حيان المقتبس ص ١٥ — ١٦ ، د. السيد سالم : تاريخ

المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .

(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد

زيتون : المسلمين فى المغرب والاندلس ج ١ ص ٢٩٢ وبمدها .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

ثانيا : الامتزاج بين الثقافات

انتشار اللغة العربية بين الاسبان :

وإذا كان هناك امتزاج جسمى عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك تلاقح بين اللغات والثقافات فى الأندلس وتأثير متبادل بينها ، واحتكاك ثقافى أدى إلى ظهور الحضارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا (بالمسالة) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإشبان الذين عاشوا بجوار المسلمين ، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية ، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين) ، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير ، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية . كما اتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس أدل على ذلك من تلك الصيحة التى أطلقها القسيس الفارو القرطبى سنة ٨٥٤/٢٤٠م حيث كتب رسالة سماها (الدليل المنير) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الإشبان فى الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخوانى فى المدن يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وقصصهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا .

وإن تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة

إن المهووبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ» (١) .

ويقول (دوزى) : هجر أهل إسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكك من ذلك (يقصد الفارو القرطبي) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى الفرنسيو السادس عليها سنة ١٠٦٥ م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى حماسة وشغف (٢) .

(١) انظر : د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، أندلسيات ج ٢ ص ٥٩ . د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ، بالفتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين أسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والتى سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار .

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمى كذلك .

وإذا كان للإسلام اثر كبير فى انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والاسبان دور فى ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم فى الحياة اليومية بعيدا عن العلم والأدب : فقد ذكر ابن بسام فى حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى (أواخر القرن الثالث) الذى يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العالى والعجى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » (٣) .

كما ذكر ابن سعيد المغربى (القرن السابع الهجرى) أن كلام أهل الأندلس الشائع فى النواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية . حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه « (٤) » .

وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلماء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى .

وكما كانت الفصحى الأندلسية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربى ، فكذا كانت العامة الأندلسية ذات سمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين (٥) .

-
- (٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
(٤) المقرئ : فصح الطريب ج ١ ص ١٠٣ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٦ .
(٥) من هذه السمات أنظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٣ - ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ - ٧١ .
(م ٦ - المجتمع الأندلسى)

انتشار الإسبانية بين مسلمى الأندلس :

وقد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانيات فى لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الإسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهى التى يسميها العلماء « الرومانشية (Romance) » وهى لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسمىها العرب الأعجمية أو اللطينية (٦) .

ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بنى بلجى بالأندلس . حيث قال وكأنه يتعجب « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم » (٧) . وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخشنى : أن أحد القضاة شكاه بعض العلماء إلى الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمى اللسان يسمى (ينير) مقدما مقبول الشهادة فسئل عن القاضى فقال بالأعجمية : ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (باللفظ العجمى) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضى عن القضاء (٨) .

(٦) د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ٣٩ - ٤٠ ، مجلة

المختار من عالم الفكر ص ١٠٠ .

(٧) جبهة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الإسبانية على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الآخر المكون من الواو والنون بالأسبانية On . للأسماء للدلالة على التثخين والتعظيم مثل حفص وحفصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر المقدسي : أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين
فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى أعجمية (٩) .
ويروى ابن هشام اللخمي : أنه نبت سن لأحد أبناء الأمير
عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا له طعاما يتناوله الأطفال عند ذلك فقال
لوزرائه : هذا الذي يسميه الناس بالأعجمية (الذنينية) هل روى
عن العرب فيها شيء ؟ (١٠) .

ويذكر ابن عذارى أن الوزير الشاعر أبا القاسم لب هجا الوزير
عبد الملك بن جهور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قال أمين الله في خلقه
لى لحية أزرى بها الطول
لولا حيائى من إمام الهدى
نخست بالخنس شوقول

وكان أبو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له
الناصر قول فأنتم على نحو ما أضمر وقال له : أنت هجوته يا مولاي
- كانه كان يقصد ذلك - فضحك الناصر وأمر له بصلة (١١) .

وهذا يدل على انتشار هذه اللغة العامية الإسبانية
(الرومانسية) بين الكثيرين سواء من علية القوم أو العامة .

وفي الشعر الأندلسي كثيرا ما نجد الفاظا إسبانية وما يقابلها

(٩) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٤٠ .
(١٠) د. الأهواني : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن
العامية مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .
(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٧ وكلمة شوقول هي ترجمة للكلمة
الإسبانية Su - Culo ومعناها الإلية أو أسفل الظهر .
(المختار من عالم الفكر ص ١٠١) .

بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على
تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلی
فی مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبی عامر حينما افتتح حصن
لونة فی شمال أسبانيا ومعناه البدر :

وانت الذى أورت لونة قاهرا

خيولا سماء الأرض فيها نحورها

ويا ليت قوطا حين شاد بناءه

رآه وقد خرت إليك جوانبه

ويا ليت إذ سماه بدرا معظما

رآه فى كف العجاج مغاربه

وحين يتحدث عن أحد قادة الأسبان واسمه لوبث (لوبيز)
ومعناه الذئب يقول :

كم من سمي له فيها وذى نسب

لم ينخر نابه عنه ولا ظفره (١٢)

وتعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللفتين العربية
والأسبانية بين الأندلسيين ، وهى ما يسمى بالشعر الشعبي . وقد
استخدمت فيه ألفاظ غامية عربية وأخرى رومانسية ، ويعتبر هذا الفن
من الشعر ثورة فى عالم الشعر العربى ، وحركة من حركات التجديد
فيه حررته من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية
الواحدة كالقصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متممودة
وليس وحدته البيت الشعرى ، وإنما المقطوعة الشعرية

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلی ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامى
بيروت ١٣٨٩ هـ .

التي تتكون من غصن وقفل . أى أن الموشحة عبارة عن أغصان
واقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة .
ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية
أى الإسبانية وأن تكون حارة محرقة ، حادة منفجة كما قال ابن سناء
الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة
تغزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التى نجد الرجل فيها هو
المحب وهو الذى يتغزل .
كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية
أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبنى عليها البقية . على
عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير
من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

انا قول قوقو

ليس بالله تذوقو

والخرجة هنا أسبانية (قوقو CuCo ومعناها الماكر)
فالشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : انا أقول أنت مكار ولن
تذوق طعم قبلى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته (١٣) .

(١٣) د. عبد العزيز الأهوانى : الأغنية الشعبية أصل التوشيح . مجلة
المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى
أرض الأندلس مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسي بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة في أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد في وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل في نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي هو العامل الأول والأكثر أهمية في ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التي قام عليه في الوقت نفسه .

ويتمثل هذا التنوع العرقي في وجود الجماعات العربية والبربرية التي تلتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التي كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة في أصولها وعناصرها .

وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها في الأندلس راجع :
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٤٥ وبعدها .
د. الأهواني : الزجل في الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
الفرق بين الموشحة والزجل : أن الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو عامي أو إسباني ، أما الزجل فبلغته عامية دارجة كلها تتخلها كلمات وعبارات أعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تام وامتزاج كامل بين العناصر التي وفدت إلى الأندلس . فالعصبية العربية التي كانت ظاهرة في المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعملت عملها في تفتيت وحدة العرب ، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب . ما بين مضرين ويمنيين يتنازعون على الملك والرئاسة ، وما بين بلديين وشاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها (١) .

وكذلك لم يكن البربر وحدة واحدة فيما بينهم ، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فكل منها طابع وأهداف واتجاهات .

ويمكن القول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة . بحيث يمكن القول : إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صاحبت تاريخ المسلمين في الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا في عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقتال من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حيناً فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حيناً فتعود الأندلس إلى وحدتها وقوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت في النهاية لتؤدي إلى غروب شمس الإسلام من الأندلس (٢) .

(١) أنظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس من ٢٤٢

وبعدها ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١ .

(٢) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٣٧ .

ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلي :

١ - عامل جغرافى : يتنزل فى بعيد الأندلس عن بلاد المسلمين فى المشرق مما جعلها تحمل وجدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقيا عند الاستنجاد بها فى مرحلة الخطر . ولذلك كان من رأى عمر بن عبد العزيز أن يعود المسلمون منها لانقطاعهم من وراء البحر عن اخوانهم (٣) . فالعامل الجغرافى كان بعيد الأثر فى غربه الإسلام بشبه الجزيرة الأندلسية .

٢ - عامل قومى : فالمسلمون فى الأندلس كانوا بإزاء أمة مقاتلة تعتبر من أكثر شعوب أوروبا تعصبا للمسيحية وهم الأسبان الذين سيطر عليها هدف واحد هو إخراج المسلمين من الأندلس بأى وسيلة والشار لهذه الغاية لهم (٤) .

٣ - عامل دينى : وهو خشية الأوربيين من الزحف الإسلامى حتى لا يسيطر على بقية أوروبا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قوة للدفاع عن المسيحية من ناحية وحراسة أوروبا من المسلمين الغزاة من ناحية أخرى ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك العثمانيين (٥) .

٤ - الخلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين فى الأندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ - كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتى اشاعت الفوضى فى البلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحدة هى أسرة فرتون بن موسى ثار منها ثمانية فى مدينة واحدة هى سرقسطة (٦) .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٦٠ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٣ .

(٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٣ .

(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٩ .

(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذي بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر في جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين المتحاربين في الأندلس بمقدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم ينفون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وقلة الإنصاف (٧) .

وكذلك الحجارى حين ذكر أن شارل مارتل لما شكك إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم في إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، وياخذوا في التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرئ على ذلك فيقول : فكان والله ذلك (٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية في الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكتل في مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربى الغالب على قرطبة ، والعنصر البربرى الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا اثره البالغ في الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٧ .

(٨) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، المجلد في تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبلاد (٩) .

ويرى د. حسين مؤنس : أن الأندلسيين كانت تموزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم فى شبه الجزيرة ، وأن هذا قد أدى إلى تمزق البلاد بسهولة (١٠) .

والحقيقة أن تفرق السكان لا دخل له بالوحدة السياسية لأنها تتوقف على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها وكل ما فى الأمر أن طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقاليم شبه منفصلة ، وساعد على الميل إلى النزعة الانفصالية فى كثير من الأقاليم التى كانت تسكنها عناصر غير عربية تغذيها عوامل قومية فى كثير من الأحيان .

وامام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكثرت العناصر العربية وافتت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب مع البربر من جهة ومع المولدين من جهة أخرى .



(٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٤ .

(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .

النزاع بين العرب وبعضهم

لم يمض وقت طويل على استقرار المسلمين في الأندلس بعد فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التي أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية .

وقد لعبت سياسة بعض الولاة في الأندلس دورا كبيرا في إذكاء نيران هذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه .

فكان إذا ما تولى شخص من القيسية قدم قومه وأثرهم على اليمنية مما يؤدي إلى إثارة النزاع والقتل والفتن وعلى سبيل المثال : فقد تعصب كل من عنبسة بن سحيم الكلبي ، وعذرة بن عبد الله الفهري ، ويحيى بن سلامة العاملي خلال مدة ولايتهم التي استمرت سبع سنوات (شوال ١٠٣ هـ - ربيع الأول ١١٠ هـ) لليمنية مما أوغر صدر القيسية (١) ، وامتألت نفوسهم الما واصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولما تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكناني ،

(١) كانت موقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيوش الأمويين بقيادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين القيسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين ألفا من قيس وقيائلها ، مما أوغر صدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصة لتسوية حسابهم القديم مع اليمنية .

(المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٠ هامش ٢ ، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة ص ٣٤٠ هامش ٢) .

ومحمد بن عبد الله الأشجعي لقي اليمينيون خلال عهودهم بلاء شديدا .
وقد اشتد الهيثم مع اليمينية شدة اثارتهم ودفعتهم إلى العصيان
علانية ، وبلغ من شدته أن أنكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك
— رغم أنه قيسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منذ عهد
الهيثم خصومة القيسية واليمينية صريحة ، وإن لم تظهر آثارها الخطرة
نظرا لانشغال المسلمين حينئذ بالفتوح فيما وراء جبال البيرنيه
(البرانس) .

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين في ولاية
عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينما عندما ينشغل المسلمون
في الفتح تلبية لداعى الجهاد فيتناس العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد
أحيانا أخرى عندما يبدأون في الاستقرار (٢) .

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى عدم استقرار الأوضاع بصفة
عامة ، ودليل ذلك أنه تولى الأندلس خلال ما يسمى بعصر الولاة
(٩٥ — ١٣٨ هـ) عشرون واليا في فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من
حكى نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن
متوسط حكم الوالى منهم كان نحو سنتين ، وهذا وحده يعطينا

(٢) أنظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارها ، د. محمد زيتون :
المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ١٩١ ويعندها . د. منى
حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٥ ويعندها .

(٣) اصطلاح معظم المؤرخين المحدثين على تحديد بداية هذا العصر
بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير في ذى القعدة سنة ٩٥ هـ .
بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدا بولاية طارق بن زياد منذ الفتح
(د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠) . غير
أننا نعتبر أن طارق وموسى هم فاتحو الأندلس وأن أول الولاة هو
عبد العزيز الذى أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل عودته
إلى المشرق .

عكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس في هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إرساء الأمن والاستقرار (٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا في مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وأن كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو صراعا على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار وال عمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو أنها وجهت ضد أعداء المسلمين ، وفي الفتح ونشر الإسلام لكان ذلك أجدى وأنفع ، ولكنها جذبت الكثيرين في تيارها مما كان لها آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في الأندلس . ولا نستغرق في تفاصيل هذا النزاع الذي حدث في عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه في خلال حكم بنى أمية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه في إعادة دولة آبائه وأجداده مرة أخرى في الأندلس بعد أن سقطت في المشرق (٣) فأخذ في مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن ،

(٤) انظر نصح الطيب ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٩ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥ .
(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر أن دولة بنى أمية لم تنقطع وأن دولتهم في المشرق اتصلت بدولتهم في المغرب حتى سنة

ولكنه أبدى ترددا فلما يثسوا من مناصرة ربيعة ومضر ، عملوا على جذب اليمينية لمناصرته .

وقد وجدها اليمينيون فرصة سانحة للأخذ بثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم في موقعة شقندة جنوبى قرطبة سنة ١٣٠ هـ (٦) . ولاسترداد مكانتهم التى فقدوها .

٤٥٤ هـ ويبنى رأيه على أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية من قبل بنى أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس الذى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فى عهده ، ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجيبة ، (البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩) ، وكان من الممكن أن يعتد بهذا الراى لو أن يوسف تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية قد انتهت بالشرق وأن عبد الرحمن هو الذى استطاع بجهوده إعادتها بعد ست سنوات من السقوط (١٣٢ — ١٣٨ هـ) . (المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٤٠) .

(٦) يروى المؤرخون فى سبب هذه المعركة أن رجلين اختصما عند أبى الخطار اليمنى والى الأندلس أحدهما يمنى والآخر مضرى ، فقضى أبو الخطار لليمنى ، فاعتبر المضرى أن ذلك الحكم غير عادل فثسكا إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم أبا الخطار فى شأن الرجل واشتد الجدل بينهما حتى اغلظ أبو الخطار للصميل فى القول وأمر جنده باخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقد مالت عمامته فلما سأل البعض : أبا حوشب ما بال عمامتك مائلة ؟ قال : إن كان لى قوم فيسقيمونها .

وكان ذلك سببا فى قيام المضرية بالثار لزعيمهم فى تلك المعركة التى كان من نتائجها عزل أبى الخطار وتولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مكانه . (الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٨١ ، المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢) .

يقول ابن عذارى (١) وكانوا قوما قد وغرت صدورهم يثمنون
شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثارهم (٧) .

فأبدوا استعدادهم لمناصرته بزعامة أبى الصباح اليعصبى شيخ
اليمنية فى غرب الأندلس وعلقة الجذامى ، وأبى علاقة الجذامى ،
وزياد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى
عبد الرحمن من المضرية سوى الحصين بن الدجن العقيلي لما كان بينه
وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد (٨) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة
اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة
المصاراة سنة ١٣٨ هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه
الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصاراة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان
بداية لمسيرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

=

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان
زعيم المضرية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم .
ويصف صاحب أخبار مجموعة هذه المعركة بأنها « أول حرب
كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس —
لم تكن حرب قبل هذه الوقعة وهى الفتنة العظمى التى بها
يخاف بوار بالأندلس إلا أن أن يحفظه الله » . (أخبار مجموعة
فى فتح الأندلس ص ٥٩) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد
حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » (البيان
المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

(٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون :
المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تموج بالفتن والعصبيات التي لم تكن قاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن التفتت حول زعاماتها ، وكانت لها مصالحها الخاصة ، وتمسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لاية سلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاميين (٩) . كما شملت البربر الذين حرصوا على الاحتفاظ بها حصلوا عليه خلال الفتن من أراض وضياح .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطرا وهو الممالك النصرانية في الشمال التي تخطت سريعا مرحلة الهزمية وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك مملكة الفرنجة التي تمكنت من انتزاع ما فتحه المسلمون خلف جبال البيرنيه (البرانس) (١٠) .

قامت دولة عبد الرحمن الداخل على عون كبير من العرب اليمنيين ، الذين تصوروا أن الكلمة أصبحت لهم (١١) — معتقدين أنهم

(٩) يقصد بالبلديين العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس مع الفتح أو في أثنائه وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفتح ، ولهم قصب السبق ولذلك ينبغي ألا ينازعهم أحد فيه .

ويقصد بالشاميين العرب الذين قدموا في طائفة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضوا الخروج من الأندلس لما راوه من خيراتها وثرواتها وتم توزيعهم على كور الأندلس المختلفة . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ٦١ — ٦٣ ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د. محمود مكي ، د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د. منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليحصبي زعيم اليمينية قال لثعلبة الجذامي وكان من وجوه جند فلسطين بعد موقعة المصارة « يا ثعلبة هل لك رأى في فتحين في فتح ؟ قال له وكيف ذلك ؟

لا يزالون في عصر المولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد في مواجهة الاخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأمس في الجزيرة الخضراء ، وفي إشبيلية وطليطلة وباجة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التي قامت في باجة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة أبي جعفر المنصور وخلق عبد الرحمن بن معاوية (١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات (١٣) .

وللأسف الشديد فتد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى (سرقطة وما حولها) مثل سليمان بن يقظان الكلبي (ابن الأعرابي) وإلى برسلونة والحسين بن يحيى الأنصاري وإلى سرقطة انتقاما من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تعريض الإسلام والعروبة في الأندلس للخطر في سبيل أهواء واحقاد ومطامع

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس قحطانية . ولكن ثعلبة أخبر عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما رأى اليمنية ذلك عدلوا عن خطتهم . وهذا يدل على تطلعهم للملك والسلطان (أخبار مجموعة ص ٣١) .

(١٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ ، أخبار مجموعة ص ١٠٢ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩٩ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

(م ٧ — المجتمع الأندلسي)

شخصية . لولا أن اخفت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن . وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التي دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم زعيم المضربة ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهري الذي أعلن الثورة في قسطنطونة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة في ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ (١٤) .

وفي عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري ومعه عدد كبير من اليمنيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهزمه موسى بن فراتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الأعرابي بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله (١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالريضي الذي تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التي قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانتقياد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبية والفوضى . وكان لقوة الحكم وشدته وشجاعته أثر كبير في القضاء على الكثير من الثورات التي قامت في عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذي كان على العكس

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتسون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ : د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أبيه لين الجانب هادئ الطباع فعادت العصبية العربية من جديد بين المضرية واليمنية في كسرة تدمير لسبب ثافته (١٦) أدى إلى قيام حرب بين الفريقين استمرت نحو سبع سنوات (٢٠٧ — ٢١٣ هـ) وقد اضطر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبد الله بن خلف فأوقع بهم في موقعة المصارة بلورقة وهزمهم وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفي سنة ٢٠٩ هـ أرسل قائده أمية بن معاوية بن هشام إلى تدمير فاشتيتك مع اليمنية بقيادة أبي الشماخ محمد بن إبراهيم الذي ظلم عدة سنوات يتحدى سلطان الإمارة ولم تهدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعودته للطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا في أمر عبد الرحمن بهدم حاضرة تدمير (مدينة آلة) سنة ٢١٠ هـ وبناء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ (١٧) .



(١٦) يذكر ابن عذران أن السبب كان قيام أحد المضريين بنزع ورقة دالية من جنان يمانى فقتله (البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤) ، بينما ذكر الحميري العكس وهو أن رجلا من اليمنية أخذ ورقة من كرم رجل مضري ليغطي بها قلة فأنكر ذلك المضري ، واعتقد أنه فعل ذلك استخفافا به (الروض المعطار ص ١٨١) . بينما يذكر د. حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير (مرسية بعد ذلك) كانوا من اليمنية ، ولكن المضرية كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قتلهم ، ومن هنا كانت الفتنة . وهذا ما نميل إليه لأنه السبب الأقوى من وجهة نظرنا . (أنظر معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٨٠) .

(١٧) عنان : دولة الإسلام في الاندلس ص ٢١٤ .

الفرار بين العرب والبربر

كثرت انتفاضات البربر وثوراتهم ضد العرب في بلاد المغرب ، وكان من أخطر هذه الثورات التي لها أثر في ثورات البربر بالاندلس ثورة ميسرة المدغرى (١) الذي اعتنق مذهب الخوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والتف حوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخوارج الأزارقة وأهل النهروان من أصحاب الله بن وهب الراسبي فحلّقوا رؤوسهم (٢) .

وقد انتهز ميسرة فرصة خروج حبيب بن أبى عبدة بجيش من العرب في حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحجاب وإلى إفريقية في طنجة وأقاليمها ، وتداعى البربر في المغرب بأسره وثاروا في المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ .

ووثب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادي وإلى طنجة فقتله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حديد ، وزحف إلى إسماعيل بن عبيد الله ابن الحجاب في منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وساء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائده حبيب يأمره بالعودة حتى يتمكن من مواجهة هذه الثورة الخطيرة ، والتقى الفريقان بالقرب من طنجة ، وتحقق النصر للعرب في البداية ، وتراجع ميسرة ، مما أدى إلى ثورة البربر عليه وقتله وتولية ابن حميد الزناتي مكانه السذي استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصار كبير في موقعة عرفت بغزوة

(١) يسمى أيضا المطغرى ويلقب بالحقير بائع الماء بسوق القيروان (ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤) .

(٢) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٢ .

الاشراف حيث قتل فيها « حماة العرب وقرساتها وكلماتها وأبطالها »
كما يقول ابن عذارى (٣) .

وكان لهذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم في نفوس العرب بالمغرب
فانتشر الذعر الشديد بينهم ، وانتقضت البلاد عليهم وعمت فيها
الفوضى ، وبلغ خبر هذه الثورة بلاد الأندلس فوثب أهلها على أميرهم
عقبة بن الحجاج السلولى ، ولوا عبد الملك بن قطن الفهرى . ولما بلغ
ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله
لاغضبني لهم غصبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره
عندي » (٤) .

وبعث بجيش تعداده سبعة وعشرون ألفا من أهل الشام
وانضم إليه ثلاثة آلاف من مصر وجعل على قيادته كلثوم بن عياض
القشيري الذي ولي المغرب بدلا من عبيد الله وجعل الأمر من بعده
لابن أخيه بلج بن بشر القشيري إن أصيب ومن بعده لثعلبة بن سلامة
العالمى وكان من غلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا
بعد الفتح إلى هذا الجيش فأصبح عدده نحو سبعين ألفا (٥) ،
ولكن هذا الجيش لقي هزيمة أخرى قاسية عند بلدة بقدورة على
وادي سبو سنة ١٢٤ هـ قتل فيها عدد كبير على رأسهم كلثوم وحبيب
ولم ينج منه إلا نحو عشرة آلاف على رأسهم بلج بن بشر لاذوا بمدينة
سبته وتحصنوا بها ، وحاصروهم البربر حصارا شديدا حتى أشرفوا
على الهلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبد الملك بن قطن الفهرى

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٣١ .

والى الأندلس (١٢١ — ١٢٥ هـ) وطلب منه السماح باللجوء إلى الأندلس . له ولن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك ثقات عن نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان فهيريا من عرب الحجاز الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام بالمدينة . ولما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم بقاربين من شعير وأدم ولكن لم يكن ذلك كافيا (٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر فى الأندلس بعد أن علموا بانتصار إخوانهم فى المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلواهم » وأخرجوا عرب أسترقة والمدنيين التى خلف الدروب « وكان البربر اكثرية بهذه المناطق .

وأحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتقدمون نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذى يقال له (ابن زقطرتق) (٧) .

(٦) أخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢ .

(٧) أخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصادر شيئا واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس — رغم أنهم قد اشتركوا سويا فى الفتح — وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادا طبيعيا وصدى لثورتهم فى إفريقية التى كانت بسبب استبداد بعض الولاة وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود الأراضى والمناطق الخصبة تاركين للبربر المناطق الجبلية القاحلة . وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت فى مناطق خصبة من الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك أماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

فخشي على مصيره ومصير بني جنسه خاصة بعد هزيمة جيوشه التي أخرجها لقتال البربر مما جعله مضطرا إلى مد يد العون لبليج وجنده المحاصرين في سبته للتعاون في القضاء على هذا الخطر الداهم . فأرسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم العودة إلى سبته مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض الرهائن تنفيذا لذلك وأنزلهم بالجزيرة الخضراء (٨) .

والتي تقرب القريتين العرب البلديون وجند الشام من ناحية والبربر من ناحية أخرى على وادي سليط في حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة تكسراء .

الاماكن الخصبة التي نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة محصن البلوط شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق في الأندلس ونزلها بنو رزين من البرانس فنسبت إليهم واستقروا بها في عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث ينفردون بكل المناطق الخصبة في بلد واسع كالأندلس . وكان البربر يتفوقون عليهم في العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو أن سكنى الكثير من البربر في المناطق الجبلية كان بناء على رغبتهم بحسب ما اعتادوا عليه في بلادهم ، وكان العرب والبربر بعد الفتح ينزلون في المناطق المناسبة لهم وبحسب اختيارهم دون ضغط أو اكراه أو تحديد لاماكن معينة ينزل بها هؤلاء أو هؤلاء فسكنوا سوايا في مناطق ومنفردين في أخرى . انظر : د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ١٣٧ — ١٣٨) .

(٨) يذكر البعض أنه اشترط عليهم أن يعودوا بعد سنة واحدة (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس .
فسألوه أن يهيئ لهم السفن التى تقلهم إلى تونس من ساحل البيرة
وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لنقلهم
إلى سبتة ، فقالوا له : أتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما رأوا
ما يراد بهم وثبوا عليه وأخرجوه من قصره وبايعوا بلجا مكانه .
فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ (٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء فى الأندلس والإقامة
فيها بعد ما حدث لهم فى إفريقية خاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها
ومحاسنها ، ولم يجدوا وهم فى موقفهم الحرج أثناء حصارهم فى سبتة
إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن ذريعة
تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك فى اتهامه بقتل رجل غسانى
من أشرافهم كان ضمن الرهائن فى الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك
إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع
خشية من تفرق كلمتهم وانفصاضهم من حوله (١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين .
والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمينية . حيث أثار موجة من الغضب
واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدى عبد الملك قطن وأميمة — مع
البربر الذين كانوا يتلهفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى
هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج فى موضع يقال له (أقووة
برطورة) وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمينية
وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملى ، ولما علم الخليفة .

(٩) أخبار مجهوعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٠) أخبار مجهوعة ص ٤٢ .

هشام بن عبد الملك بذلك نصحه الغباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية
أحمد اليميني على الأندلس فولى أبا الخطار بن ضرار الكلبي بعد
أن كتب إليه بآيات يقول فيها :

أفاتم بنى مروان قيسا نمانا

وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل

كانكم لم تشهدوا مرج راهط

ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر الوغى بصدورنا

وليس لك خيل تعد ولا رجل

فلما رايتم واقد الحرب قد خبا

وطاب لكم منها المشارب والأكل

تغافلتم عنا كان لم يكن لنا

بلاء وانتم ما قد علمنا لها فعل

فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة

وزلت عن المرقاة بالقدم النعل

تصرم جبل الوصل وانقطع الهوى

الا ربما يالوى فينقطع الجبل (١١)

وفد أبو الخطار إلى الأندلس في رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل
الولاية من وإلى إفريقية (حنظلة بن صفوان) وبرفته ثلاثون رجلا هم
الطائفة الثانية من العرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشبة
بين الشاميين والبلديين ، فبعد مقتل بلج تولى ثعلبة العاملى وقام
بمحرابة العرب البلديين والبربر في ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم (نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .
ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦٤ مع بعض الاختلاف في
الأساطير .

عشرة آلاف ٤٠٠ ، وأخذ في بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من أيمانهم حتى قيل إنه ياع أحد رجال عرب المدينة بكتب (١٢) وإن كنا نشك في ذلك لما فيه من مبالغة شديدة . فلما أقبل أبو الخطار أمر بإطلاق سراح الأسرى والسبى فتمنى عسكره لذلك عسكر العافية (١٣) . ونظر في توزيع جند الشام على كور الأندلس بدلا من تجمعهم في قرطبة حتى يتضى على عوامل الاضطراب فأنزل جند دمشق بالبيرة وبسماها دمشق ، وأنزل جند الأردن بكورة ربة ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنشرين بجيان وجند مصر ببانجة وتدمير (مرسية) ، وكان أنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص (١٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر في شمال شرق الأندلس سنة ٢٥٠ هـ وكان زعيمها فقيها بربريا يعلم المصيان ويدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن علي ، وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمي تسمى بعبد الله ابن حمد ، وذاعت دعوته بين البربر في هذه الناحية نظرا لكونهم أكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بربره جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ماردة وقورية ومدين ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين أرسلهم إليه حاكم

(١٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) أخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦١ — ٦٣ . نسج الطبيب ج ١

ص ٢٢١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ — ١٦٢ (

د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

طليلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢هـ فالتجأ الناصر بن معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاة بدرًا لمقاتلته سنة ١٥٤هـ فامتنع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموي ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥هـ بجيش جعل عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس — بعد أن استماله وأقره على ما فى يده وعهد إليه بولاية الأندلس التى تغلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره فى بث الخلاف فى صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التى واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الناصر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر أثر فى هذا الاستمرار .

وذلك لم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة هلال المديونى حيث قتلاه وحملوا رأسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبث ثورته بعد أن ظلت نحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت المؤامرة فى لحظات ما لم تحققه الحملات والجيوش المتعاقبة فى سنوات (١٥) .

وفى عهد هشام بن عبد الرحمن قامت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ فى تآكرونا من إقليم رندة ، وكانوا كثرة فى هذا الإقليم ، فخرجوا على

(١٥) انظر أخبار مجهزة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن خلدون : السير ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعة ، وقتلوا كثيرا من السكان العرب فأرسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وفروا من تاكلنا التي ظلت خالية طوال سبع سنوات إلى طلبيرة وترجيلة (١٦) .

كما قامت ثورة أخرى للبربر في ماردة سنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وائسوس بسبب وقعة قام بها بعض خصومه فخشى أصبغ من الحكم وشدته فدخل ماردة وثار بها والتف حوله البربر ، فخرج إليه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى قرطبة بسبب غنة قامت فيها ، ثم تابع حملاته بعد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطيع القضاء على هذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جماعة من أهل ماردة من ثقاته أصبغ ففارقوه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقام بقرطبة (١٧) .

وفي سنة ٢١١ هـ ثار طويريل البربري بتاكلنا في عهد عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) فأرسل إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاتقه (١٨) .

وفي سنة ٢١٣ هـ قامت ثورة للبربر في ماردة أيضا وتزعّمها رجل بربري يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين ويدعى

(١٦) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٠ ، عفان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٣٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب (بقعناب) ، وشقنا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي ، فأرسل فرقة حاصرت المدينة سنة ٢١٤ هـ . إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمن في السنة التالية وحاصرها حصارا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها إلا في سنة ٢١٩ هـ . بعد أن فر منها الثائران حيث قتل سليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهذه الثورة ببناء قصبته التي تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدبر وبها نقش عربي محفوظ إلى اليوم بمتحف القصبية في ماردة يحمل تاريخ ٢٢٠ هـ (١٩٠) .

وفي سنة ٢٣٦ هـ ثار أحد البربر ويدعى حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء والتف حوله جبهة من المفسدين فأخرج له الأمير عبد الرحمن الأجناد ففرقوا جموعه وقتلوا عددا كبيرا من رجاله (٢٠) .

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغة من العرب والبربر والمولدين . ومن أشهر الثوار البربر في هذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذى النون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا في ثغنت بربه واتخذاهما حاضرة لهما ، وأقاما فيها الكثير من المنازل والقرى والمعاقل والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقد استقل مطرف

-
- (١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١٠ ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
- (٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولبة وكان أكبر الحصون ، وبنى الفتح حصن إتلش ومصره وعمره . وقد قتل الفتح سنة ٣٠٣ هـ ، ودخل أخوه يحيى فى خدمة الخليفة الناصر وتوفى أثناء غزوة سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ ، أما مطرف فقد خدم الناصر أيضا واشترك معه فى بعض غزواته فولاه مدينة الفرج من الثغر الأوسط (٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر قرية الملاحه من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه وقتله واستطاع الاستيلاء على قصبتها ، واستنفل امره واخذ يعيث مسادا فيما جاورها من بلدان ، فأرسل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليه والقيد به إلى قرطبة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرائك النفزاوى وكان من بربر نفزة وخرج على الأمير عبد الله ، فى حصن أم جعفر فى ماردة واستطاع أن يستقل بهذا الحصن استقلالاً جزئياً حيث ظل متمسكا بطاعة الأمير ولو اسمياً ولما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى حتى استنزل من الحصن أيام عبد الرحمن بن محمد (٢٢) .

كما ثار خليل وسعيد ابنا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستيلاء على حصن قرذيرة واشبرغرة ورغم ثورتها إلا أنها كانا يدينان بالطاعة للأخير عبد الله فولاهما على ما فى أيديهما حتى كانت أيام الأمير عبد الرحمن ابن محمد فاستنزل سعيد — بعد موت أخيه — ضمن من استنزل من الثوار من حصونهم (٢٣) .

(٢١) ابن حبان : المقتبس ص ١٩ تحقيق ملشور انطونية .

(٢٢) د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .

(٢٣) ابن حبان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاجب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وأنصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الأماويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الأماوى هشام المؤيد ودليل ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢ هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة » (٢٤) .

وقد أدى ذلك إلى مزيد من التنافس بين العنصرين . حيث قدم المنصور البربر وآخر العرب وأسقطهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما أدى لاعتماده على البربر (٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى أدى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من أسباب انهيار دولة بنى أمية بالأندلس .

وقام صراع عنيف بين العنصرين تجلّى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠ هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما أدى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة والعمران فى الأندلس وخاصة فى قرطبة ومدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والانحلال فى المجتمع مما كان له أثره فى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ (٢٦) .

(٢٤) ابن بسام الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢٦) عن هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس ج ١ ص ١٠ ،

ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٢٥ ، ابن حبان : المقتبس ص ١١٥ وبعدها ، البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٩ وبعدها .

الفتن بين العرب والمولدين فى الأندلس

كثرت الفتن والثورات فى كل ناحية من نواحى الأندلس فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنما شملت الكثير من العناصر ، فشارك فيها المولدون والعرب والبربر ونشبت معارك عنيفة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضلا عن المعارك التى دارت بين العرب أنفسهم ، واستطاع الكثير من هؤلاء أن يستقلوا بأماكن كثيرة ، حتى لم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى العاصمة وأحوازها فقط (١) .

ويلخص لنا ابن الأثير الأوضاع فى عهد الأمير عبد الله فيقول « وفى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (٢) .

والحقيقة أن هذا الأمير لم يقعد عن مواجهة هذه الثورات ، وإنما بذل قصارى جهده للقضاء عليها ، وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لانقاذ دولة آبائه وأجداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منه الكثير من موارد الدولة ، حتى ذكر ابن خلدون : أن خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيش ومائة ألف للنفقة فى النوائب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة ألف ذخيرة ووفر

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣١ ، د. محمد زيتون : المسلمون

فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ٤٣٥ ، المعبر ج ٤ ص ١٣٣ .

فاتفق الوفر في تلك السنين وقتل الخراج (٣) .

ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب اسباب انتشار الثورات والفتن في هذا العهد فيقول : « والسبب في كثرة الشوار بالاندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الأول : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقارنتهم بحدو الدين فلم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثاني : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطامة ، إذ كان من يحصل بالاندلس من العرب والبرابرة اشراف يأنف بعضهم من الازعان لبعض .

والثالث : الاستناد عند الضيقة أو الاضطراب إلى الجبل الأشم والمعتل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » .

وقد كانت السياسة التي جرى عليها بنو أمية في الاندلس منذ بداية أمرهم في اصطفاء الموالي قد أخذت تحدث أثرها في نفوس القبائل العربية التي أصبحت ترى في هذه السياسة نوعا من المهانة لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى والمناطق الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها (٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الأموية من ضروب

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢١ .
(٤) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، القسم الثاني ص ٣٥ .

الرعاية والتسامح يضر أكثرهم لها الخصومة والكيد ، ولا يدينون
بالولاء لها على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلقون
العون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهدين (٥) .

ولذلك انضموا إلى ثورة ابن حفصون الذى كان مولدا ويرجع
إلى أصل اسباني مسيحي وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعد
أن أسلم وسبقه أبوه قبل ذلك بعدة أعوام (٦) .



(٥) عثمان : المراجع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفسه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٣ وبعدها
تاريخ المستعمرين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الثورات التي قامت في الأندلس ثورة ابن حفصون المولدي (١) الذي كان يمثل في ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بها ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وأنه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو في ذلك لا يبغى سوى تقوية نفوذه وتوطيد سلطانه الذي بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادي شنيل (٢) .

(١) عن هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان ابن فرغلوش بن أذفونش القس ، ثار بالأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ في جبل بربشتر (ببشتر) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والمفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا في ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبنائه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر .

(انظر : العبر ج ٤ ص ١٣٤٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ عنان : دولة الإسلام ص ٢٠) .

(٢) عنان : دولة الإسلام في الأندلس (عصر الفتنة الكبرى) ص ٣١٤٢٧ .

ويبدو أنه كان يطمح في الاستيلاء على مقاليد الأمور في الأندلس. بدليل أنه أظهر الميل للدولة العباسية وقد قاوم هذه الثورة الأمير محمد وابنه المنذر كما قاومهما الأمير عبد الله بمقاومة شديدة. وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفيه فعاد إلى النصرانية وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين عنه بينما فرح العجم بذلك ، واشتد السخط عليه في أنحاء الأندلس وجد المسلمون في قتاله حيث رأوا أن حربه من الجهاد (٣) .

وحاول ابن حفصون أن يعوض ما فقدته من أنصار ويقوى مركزه فخطب الفونسو الثالث ملك ليون وعقد معه محالفة كما تودد لبنى قسى في الثغر الأعلى ، وخطب ابن الأغلب صاحب إفريقية وهاداه ، وكذلك الفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس ، وأظهر الدعوة العباسية بالأندلس ، كما أظهر الدعوة لعبيد الله المهدي (٤) .

وقد كان للحملات التي أرسلها الأمير عبد الله أثرها في استنزاف قوة ابن حفصون بحيث لم يعد يشن حربا هجومية كما كان يفعل سابقا في عهد الأميرين محمد والمنذر وفي السنوات الأولى من حكم عبد الله ، وكان لهذا كله أثره في إضعاف ثورته التي استمرت ما يقرب من النصف قرن حتى قضى عليها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ (٥) .

-
- (٣) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ٣٢٥ ،
عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٤٣ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .
د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .
(٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٦٥ .

١ - الفتنة بين العرب والمولدين فى البيرة

ولم يكد يمضى عام واحد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران
فتنة شديدة بين العرب والمولدين فى كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطله
حاضرة هذه الكورة (التى عرفت باسم غرناطة فيما بعد) تذخر
بعدد هائل من اهل الذمة من نصارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة
حتى أنها سميت (بإغرناطة اليهود) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضم
الكثير من المولدين ، وكان النصارى والمولدون - برغم إسلامهم -
يؤلفون فى عهد الأمير عبد الله رابطة قوية متآلفة متحدة المصالح
والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكراهية ضد السكان العرب ،
وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المغتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد
اضطر العرب إلى تأليف جبهة قوية لمناهضة جبهة المولدين والمعاهدين
وعرفت هذه الجبهة (بالعصية) (٦) .

وكان أول من تزعم هذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة فى كورة
البيرة يدعى (يحيى بن صقالة القيسى) وكان شديد التعصب للعرب
ضد المولدين والعجم ، ففدوا يترصدون له حتى أتى إلى حاضرتهم
قسطله فقتلوه بالرغم من عقده معهم أمنا مؤكدا واستولوا على حصن
منت شاعر (منت شقند) بالقرب من البيرة .

فخلفه على رئاسة عصية العرب سوار بن حمدون القيسى .
« وكان فارسا شجاعا محاربا أكثر أتباعه واشتدت شوكته واعتزت
العرب به » (٧) .

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإسلام
فى الأندلس القسم الثانى ص ٣٥ .
(٧) ابن حيان : المتنبس ص ٥٥ .

وقام سوار فى بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة فى ناحية البراجلة
موانضمت إليه بيوتات العرب من كورة البيرة وجيان وريه وغيرها ، للأخذ
بثار يحنى واسترداد حصن منت شاعر الذى استولى عليه المولدون والعجم
وكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين
منهم ، ثم أخذ فى فتح حصون المسألة والنصارى واحدا بعد
الآخر ، وقتل الكثير منهم حتى ضجوا منه واستغاثوا بجمد بن
عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على البيرة ودعوه إلى قتاله ، وبينوا
له أنهم على طاعتهم للسلطان ، فخرج وخرجوا معه فى جيش كثيف
لمقاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، وأهل فى المولدين السيف
حتى ذكر أنه قتل منهم سبعة آلاف وأسر جمدا وأساء معاملته
ثم أطلق سراحه لكونه عربى ، وقد عرفت هذه الواقعة (بوقعة
جمد (٨) .

وقد أدى هذا الانتصار إلى قوة نفوذ سوار واشتداد بأسه
فكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح ، وصاروا
يذا على المولدين والنصارى . وخاطب المولدون الأمير حتى يكف بأس
سوار عنهم ، ورأسله الأمير فأظهر الامثال لطاعته وعقد مع أهل
قسطلة الصلح ، ويظهر أنه طلب من الأمير عزل جمد فعزله وولى مكانه
مهر بن عبد الله بن خالد وكان شريكا لسوار ، وخرج سوار للاسهم
فى مقاتلة ابن حفصون وأغار على حصونه فى سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب
أهل قسطلة لذلك وجمعوا جموعهم لقتاله فيها يزيد على عشرين ألفا ،
واستطاع سوار هزيمتهم وقتل منهم نحو أحد عشر ألفا وسميت هذه

(٨) ابن حبان : المنتقى ص ٥٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢
ص ٢٠٢ .

الموقعة (بوقعة المدينة) حيث دار القتال فى سهل وادى شنيل بالقرب من غرناطة (٩) .

وامام ذلك لاذ المولدون بابن حفصون وخلصوا طاعة الامير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار فى معركة هزم فيها واصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه فى بيشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة سوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال فى فجر قليل سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب له عدة كمان خرجت عليه وتمكنت من قتله وجيء بجثته إلى قسطله فظهر المولدون والنصارى فيها الشهامة والفرحة حتى ذكر « أن الثكالى من نسائهم قطعن لحمه مزقاً ، واكله كثير منهن حنقا عليه لما قد نالهن من الثكل فى بعولتهن وأهليهن واليتم فى ابنائهم » (١٠) .

وقد أدى ذلك إلى تصدع جبهة العرب ، فاختاروا بعده سعيد ابن سليمان بن جودى الذى حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمكن من سد الفراغ الذى تركه سوار ، فلم يكن مثله فى القوة والشجاعة والسياسة ، وظل رئيسا للعرب فى البيرة نحو سبع سنوات حتى تسكن أعداؤه من قتله غيلة فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ (١١) .

(٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن جموعهم كانت ٢٣ ألف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عذارى أنه قتل فى دار عشيقته له يهودية . (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤) .

ويقال إنه قتل بتبشير الأمير عبد الله بسبب أبيات قالها فى ذم بنى

وقام برئاسة العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد الطيط الهذلي صاحب حصن الحامة (الحمة) فسار على سياسة شلفه ، ولكنه هزم في إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وأقتاده أصحابه بهمال جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة الماثلة لسوار في القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، وثبتت العصبية فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم (١٢) .

٢ - الفتنة بين العرب والمولدين في لبلة

ومثلما حدث في البصرة حدث في لبلة حيث ألف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسألة ، وتزعم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرو .

وقد ثار على واليها عمرو بن سعيد القرشي واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالي من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فأغار بهم على قرى إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح في ذلك ، وعاد ابن عمرو إلى إظهار ولائه للأمير وفرق اتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

أمية جاء فيها :

يا بني مروان جدوا في الهرب
نجم الأثائر بن وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا
إمّا الملك لأبناء العرب

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عفان : دولة الإسلام

في الأندلس (عصر الفتنة) ص ٣٦ .

أن اشتعلت من جديد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرو إلى حصن .
قرطبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان ورجاله وخرج
العرب بقيادة عثمان للاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ،
وامتدت نيران هذه الفتنة إلى منت ميسور التي ثار فيها رجل من المولدين
يدعى ابن خصيب ، كما ثار مؤلف آخر يدعى ابن عفير في جبل العيون .
وهو من حصون لبلة وأخذت نيران هذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى
وصلت إلى إشبيلية (١٣) .

٣ - الفتنة بين العرب والمولدين في شيبيلية

كانت إشبيلية تعد العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة ، وكان
العدد الأكبر من سكانها من النصارى المولدين ، بالإضافة إلى
مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجند ، وبنى الحجاج
وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف
فيما بينها العصبية العربية في إشبيلية ، وقد قامت بعد الفتح
مصاهرات بين العرب والإسبان في إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر
زواج العرب بالإسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل أغلبية
السكان بمضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة مثل بنى أنجلين
وبنى شبرقة وغيرهم .

غير أنه بمضى الزمن أخذت العصبية تلعب دورها فأصبحنا نرى
في إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الغافر
وبنو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنو خلدون بزعامة كريب
وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشهور ابن خلدون ، وعصبية من .

المولدين يمثلها بنو أنجلين وبنو شبرقة ، كما وجد فريق محايد من العرب والبربر والموالى لم يتعصبوا لفريق وظفرا على ولائهم للإمارة الأموية (١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكان المولدون فى إشبيلية كما وصفهم ابن حيان « أغلظ أهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانباً ، وأحضرهم عدة ، يعتدون فى اثنى عشر رئيساً ، لكل رئيس منهم عقدة يعتقدونها وعدة يعتد بها » (١٥) .

وكان السبب فى اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خلدون بأتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الناصر بشذونة ، وعثمان بن عمرو الناصر بلبلة وكانا من اليمانية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرمونى من البربر البرانس ضد المولدين والموالى بإشبيلية وعقدئذ كون هؤلاء حلفاء مع المضربين ، والبربر البتر من أهل كورة مورور المجاورة وتلاحظ هناك تداخل العصبية فاليمانية والبربر البرانس فى جهة ، والمضربة والبربر البتر فى ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح فى التفتن والصراعات التى قامت بين عناصر السكان فى الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق أهدافه فى السيطرة والنفوذ على إشبيلية أمام تكتل المولدين والموالى فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى (البلاط) ، ومن هناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فأغاروا على قرية

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق المحايد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالى الأمويين وبعض البربر .
(١٥) المتنبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلها واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذرائعهم ، فخرج موسى بن أبى العاص والى إشبيلية لصددهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فأتى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتولىه حسين بن محمد المورى مكانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلية قاطع طريق بربرى الأصل يدعى (الطماشكة) فقام أهل استجة من المولدين وعلى رأسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش - بموافقة الأمير - وقام ببعض أتباعه من البربر البتر والموالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية من العرب فهاجموا ليلا للقضاء عليه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل أحدهم فشكلوا إلى والى إشبيلية فطالب بثأر المقتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فالتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعزل الوالى حسين ابن محمد المورى وولى مكانه محمد بن خالد الخالدى المعروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن عزله أيضا وولى مكانه ابن عمه أمية بن عبد الغافر الخالدى فاستقر مع محمد ابن الأمير عبد الله فى قصر إشبيلية ، ووكّل الأمير إلى ابنه البت فى القضية ، فجمع الفريقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فريق لرائيه ، فاضطر إلى إرجاء النظر فى القضية أيضا وسمح لابن غالب بالعودة لحصنه ، فأتى ذلك إلى غضب العرب وازدادت قلوبهم كراهية وتعصبا ضد المولدين ، وخرجوا من إشبيلية وأرسلوا إلى محالفيهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة ترمونة ، وحصن قورية وجزيرة

الاسيلة ، ولما وصلت هذه الاخبار إلى الأمير أشار عليه وزراؤه
بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب حتى يدخلوا في طاعته مرة
أخرى ، فأخذ الأمير بذلك .

وقد أثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين والموالي ، فوثبوا
على عامل إشبيلية أمية بن عبد الغافر بعد أن أرسلوا إلى حلفائهم
من المضريين والبتري في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وشر أمية للاحتباء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فأرسل إلى
محمد بن خطاب بن أنجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتفاهم معه
في إطفاء ثيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع أصحابه
من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند أذان الظهر إذا لم يخرج هو
ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا
خيله ومراكبه ، وكان أمية ورفاقه قد قبضوا على ابن خطاب ومن معه
وأمر غلمانه بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين
للقصر حتى اليوم التالي واستنجد الأمويون بالجعد بن عبد الغافر فاقبل
بعسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل
منهم عددا كبيرا .

وأمر محمد بضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه ومصادرة أموالهم
ونهب دورهم وكتب إلى أبيه بذلك فأمره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم
أمية وإلى إشبيلية سادات العرب وقربهم فأقاموا فيها بعض الوقت ، ثم
مالبثوا أن عادوا للثورة مرة أخرى . وكان لمقتل الجعد في كمين
للطاشكة هو وأخويه أثره في حزن أمية عليهم ، وفي عودة العصبية
بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

المولدين والاعاجم في إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها
الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله
القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة أخرى إلى أن تمكن
إبراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦ هـ بعد أن كانت مقسمة
بينه وبين حليفه كريب بن خلدون (١٦) .

واستمر إبراهيم في حكم إشبيلية وقرمونة حتى توفي سنة ٢٩٨ هـ
مخلفه ولداه عبد الرحمن في حكم إشبيلية ، ومحمد في حكم قرمونة حتى
انتهت دولتهم في بداية عهد الخليفة الناصر (١٧) .



(١٦) انظر الرواية كاملة في المقتبس ص ٦٧ - ٨٥ .

(١٧) راجع تفاصيل ثورة بنى الحجاج في البيان المغرب ج ٢

ص ١٢٨ - ١٣٥ ، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٢٥ ، ج ٧

ص ٢٨٠ - ٣٨١ . عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٣٨ -

٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

رابعاً : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) فاتحة عصر جديد ، وبداية تطور هام بالنسبة لها ، فقد كانت تعاني قبل الفتح الإسلامي لها من كثير من مظاهر الجور والفساد والاستبداد تحت حكم القوط ، حيث كانت أقلية من الحكام والأمراء والنبلاء تمتنع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلماء جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع مبادئ العدالة والمساواة والحرية . وأقبل عليه الكثير من أهل هذه البلاد ، لما لمسوه فيه من قيم ومبادئ نبيلة خلصتهم مما كانوا فيه .

أما من بقى على دينه منهم : فقد ترك لهم المسلمون الفاتحون الحرية الكاملة في ممارسة شعائر عقائدهم الدينية ، وضربوا بذلك مثلاً أعلى في التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التي كانت تتراوح قسوة أو كثرة على حسب مقدرة الشخص المالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوي على من يحوز الأرض سواء كان مسلماً أو ذمياً . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتملكوا الأراضي وأصبح لهم حق التصرف فيها . ولم يكن لهم هذا قبل الفتح (١) .

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب في أسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠ .

وقد عومل أهل الذمة فى الأندلس بمقتضى معاهدات تنظم ذلك ،
ويعتبر العهد الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حاكم
شرق الأندلس خير مثال لذلك . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى
لتدمير بن غندر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ، وما
بعث به أنبياءه ورسله ، وأن له ذمة الله عز وجل ، وذمة محمد
ﷺ ، ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون
ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ،
ولا يكرهون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، وأنه لا يدع
حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه
أمره ، ولا يكتننا خبرا علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية
من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداد من قمح ، وأربعة أمداد
من شعير ، وأربعة أقساط خل وقسطا غسل وقسط زيت ، وعلى كل
عبد نصف هذا — شهد على ذلك عثمان بن عبد الله القرشى ،
وسليمان بن قيسر التجيبى ، ويحيى بن يعمر السهمى ، وبشير بن قيس
الخشى ، ويعيش بن عبد الله الأزدى ، وأبو الأصم الهذلى ، وكتب
فى رجب سنة أربع وتسعين » (٢) .

ولقد استطاع المسلمون الناجون أن يقضوا فى أعوام قليلة على
الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظموا إدارة البلاد ، فقد

(٢) ابن الدلائى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ص ٥ ، تحقيق
د. الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
الحميرى : الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ مطبعة لجنة التأليف
القاهرة سنة ١٩٣٧ م . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ —
١١٥ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

ابقوا لاهل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من انفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم ، ويفصلون بينهم فى الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكفاء منهم فى مناصب هامة فى الدولة مثل أرتاباس الذى عينه عبد الرحمن الداخل أول قومس للنصارى بالأندلس (٣) ، وجيزون قاضى النصارى بقرطبة الذى عينه الحكم المستنصر واتخذته إلى جانب ذلك مترجما له (٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودى الذى اتخذته الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصا له وغدا من أصحاب النفوذ والثراء فى عهد المستنصر (٥) .

وهكذا تمتع اهل الذمة بالكثير من الحقوق فى ظل الحكم الإسلامى ، وكان لهذا التسامح أثره فى رضائهم بالنظام الجديد ، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقوط كما يقول لين بول (٦) .

ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتدلين فيقول دوزى مثلا : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدا فى شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل جهدوا لفتحهم تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج . ويقول معترفا بأثار الفتح الإسلامى الإيجابية « كان الفتح العربى .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٨ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٤ - ٦٥ .

نعمية لاسبانيا ، فقد أحدث ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على الكثير من الادواء التى كانت تعانىها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب الا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا فى البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين » .

ويقول أيضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الدينى سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى » (٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكى سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية ، والأخبار يزاولون لشؤونهم فى سلام . أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهى محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافقه فى أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التى سياتى ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكى الدكتور (لى) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والفرقة بينها .

(٧) انظر : العرب فى اسبانيا ص ٣٨ وبمعددها ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ .

(م ٩ - المجتمع الأندلسى)

ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسباني بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائها وأساقفتها ، وكنائسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل ، وقنع الخوالة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسباني سيمونت الذي يقول « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة » (٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقتهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين — وسموا بالمسالمة — أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقلون شيئا فشيئا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم — برغم بقائهم على دينهم — فأخذوا يقلدوهم في كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموهم بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضا

(٨) انظر : عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ص ٦٠ - ٦٥ .

د . محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ١٨٧ - ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت في فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذي كانت ترزح تحته أثناء حكم القسوط (٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعايته ، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يفضون المسلمين ، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا (١٠) .

وكان تغفل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد أحدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن في الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين

(٩) انظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٩ — ٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .
(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفة من الخرافات والاباطيل التى يروجها رجال الكنيسة .
ولم تكن العوامل الدينية هى وحدها مبعث ذلك التعصب ، بل
كان للعوامل الاجتماعية أيضا دور فى ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير
قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامى فى الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ،
وما يظهر به الحكام المسلمون من مظاهر الفخامة والعظمة ، وما ينعم
به المجتمع الأندلسى من حياة رغدة آمنة مستقرة (١١) .

وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم ما يتعرضون له — نتيجة
لتعصبهم — من معاملة خشنه وخاصة من العامة . وبلغ هذا التعصب
مداه فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى بدأت حضارة الأندلس
فى عهده فى التآلق ، وأصبحت الأندلس فى عداد الدول العظمى
فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء (١٢) .

وكان فى وسع هؤلاء المتعصبين فى طليطلة وغيرها من المدن
البعيدة عن العاصمة « قرطبة » أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا
إلى الثورات التى تقوم ضد الأمويين ، ولكنهم فى قرطبة قاموا بحركة
دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بوسيلة
بسيطة وخطيرة فى نفس الوقت وهى المجاهرة بسبب الإسلام ونبيه
فى الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا على
ذلك ، وأن تلك جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة القتل ، غير
أنهم انزلقوا فى هذا المنحدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين
فيؤدى ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة (١٣) .

(١١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٩ .

(١٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس
ص ٢٢٩ — ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هذه الفتنة التى سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار
دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين
حول فضائل محمد وعيسى ، وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال

وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخويس أو (ايلاج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويجب لاتباعه الاستشهاد فى سبيل نصره المسيحية ضد الإسلام ، وكان يساعده فى ذلك شاب مسيحى من أغنياء قرطبة يدعى (الفارو) أخذ ينتقد الأسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها . وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برمكتوس) ، وفتاة أسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت . وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا ، فاستدعى مجلسا من الأساقفة عقد فى قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فى هذا المجلس كاتبه النصرانى جوميز ابن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الأندلس (١٤) وتم فى هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الفلاة من عواقب خطيرة ، وأصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين ، ويحذر باقى النصارى من الانضمام إليهم ، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك .

غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد تبادى هؤلاء فى غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم فى السجون ، وقد بدأ للمحاكمة فأخذوا يطلقون السنتهم بالسب والقذف فى الإسلام ونبيه ،

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استفلال ذلك وعلى رأسهم يولوخويس للقيام بدعائياتهم ضد الإسلام (د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٥) .

(١٤) يسميه ابن القوطية قومس بن انتثيان بن يوانه وقد اعتنق الإسلام فيها بعد وسمى بحمامة المسجد (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣) .

وحاول القضاء إقتاعهم بخطئهم ومدى خطورته. ولكن ذلك لم يجسد
نفعاً ، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون ،
وكان الأجبار يكرمون رفات هؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء.
مما زاد هذه الحركة ضراباً ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فأرأوا
عدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالاً فأخذوا فى مراجعة هؤلاء
المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتل ولكنهم كانوا يطالبون
بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء ، حتى أن القاضى الذى حاكم
فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام
وتبادلت فى السب والتذف أمامه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه
الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصبا فى شهرين (١٥) .
واعتقل يولوخيوس وغيره من زعماء الحركة ، ورغم ذلك
استمرت الفتنة ، ولما توفى الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين
استقفاً لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة فهدأت
قليلاً ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض
عليه وأعدم فى مارس سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م بأمر من الأمير محمد
الأول بن عبد الرحمن ، وبقتله أخذت الفتنة تضعف شيئاً فشيئاً حتى
زالت ، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التى استمرت ما يقرب
من ثمانى سنوات ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م — ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ولم تحقق شيئاً
من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين
من المتعصبين ، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى
المعتدلين الذين كانوا يقدرون تسامح المسلمين (١٦) .

(١٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٨ — ٢٦١ .
(١٦) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ،
د. أحمد شلبى : المرجع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم :
تاريخ المسلمين ص ٢٤٢ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس
ص ٢٦١ .

الفصل الثالث

الحالة الدينية

من الطبيعي أن يكون التدين ، والعناية بشعائر الدين أمرا واضحا ،
وسمة مميزة في بلد شغل بالحروب طويلا ، واتقدت فيه روح الجهاد
والمرابطة كالاندلس . وقد كان لجاورة المسلمين للنصارى في إسبانيا
وأوروبا اثر بالغ في ازدياد هذا الشعور (١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الأندلس عامة بالتدين والمحافظة على شعائر
الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلون رجال الدين ويقدرونهم وخاصة الفقهاء
ومن هنا كان لثب فقيه عندهم من أرفع الألقاب ، وكانوا إذا ما أرادوا
تكريم عالم أو أمير عظيم أطلقوا عليه هذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحدود الشرعية ، وينكرون التهاون في تعطيلها
إذا راوا في ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربي (٢) .
وعندما دخل المسلمون الأندلس اظهروا حماسة بالغة في نصرة
الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معارك شتى ، وحروبا تكاد تكون
متصلة ضد الأعداء بحيث يمكن القول : إن حياة المسلمين في الأندلس
كانت في مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم
من ناحية بفعل العصبية والتنافس على الملك والرئاسة ، وبينهم وبين
النصارى من ناحية أخرى . ويلخص بعض المؤرخين الإسبان

(١) يقول القزويني : « ومن عجائب الدنيا المملكة الإسلامية
بالأندلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات
ص ٣٨٨ .

وهي أعجوبة حقا بذل المسلمون في سبيل تكوينها الكثير ،
ومكثوا في صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة ثمانية قرون ،
واستطاعوا في خلال فترات الهدوء والاستقرار القليلة إقامة
تلك الحضارة الباذخة .

(٢) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

تاريخ المسلمين في الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصاري بأنها
(معركة القرون الثمانية Labatalle de Ocho) . ولذلك فإن الحروب
المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث
في نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون
فيها بعض الطامعين في الملك والرئاسة - وخاصة في عصر ملوك
الطوائف - مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وأنهم أدركوا أن بقاءهم
وبقاء دولتهم في الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بصرته ،
فيذكر المقرئ عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل
الأندلس أصحاب جهاد متصل » (٢) .

أولا - المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا في المشرق نشأة الفرق والأحزاب
السياسية والدينية التي أدت إلى مزيد من الصراع والتشتت والانقسام
الفكري والديني والسياسي ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع في
الأندلس ، حيث كانت مذاهب أهل السنة هي المعمول بها في الأندلس .

فقد كان مذهب الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام (١٥٧ هـ /
٧٤٤ م) هو المذهب المعمول به في بداية الأمر ، ثم بدأ مذهب الإمام مالك
في دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن المنقب
بالرضا (١٧٢ هـ - ٧٨٨ م - ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) (٣) .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٧١ .

(٣) يذهب ليفي بروفنسال إلى أن مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية
حكم الأمير هشام الأول أو في السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم
(الحضارة العربية ص ١٥٨) . وقد ذهب د. حسن إبراهيم حسن
وكذلك د. حسن علي حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

يقول ابن الفرضى فى ترجمة زهير بن مالك البلوى : « كان فقيها على مذهب الاوزاعى على ما كان عليه اهل الاندلس قبل دخول بنى امية » (٤) .

وكان تلميذ الإمام الاوزاعى فى الاندلس ، والذي يرجع إليه الفضل فى نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ) (٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى الاندلس فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأن أول من أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشيطون (ت ١٩٣ هـ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتلميذ على يد الإمام مالك الذى كان معاصرا لهشام وكان يثنى عليه وعلى حسن سيرته ، ثم أصبح المذهب العام والسائد والرسمى منذ عهد الحكم ابن هشام وذلك يذكر ابن سعيد « أنه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به » (٦) .

إلا فى عهد الحكم بن هشام (انظر الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) . والحقيقة أن معظم المصادر تتفق على أن هذا المذهب قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام ، وأصبح المذهب الرسمى فى عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الاندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) فتح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩ هـ) هو أول من أدخل الموطأ إلى الاندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤدبا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبى نعيم القارىء ، وأخذ عن الاوزاعى ، ويقال إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفتوى

وتختلف الروايات في سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعي إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قابلوا الإمام مالك في المدينة فأعجبوا بشخصه وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذي يميل إلى الناحية العمالية - فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه - وقد أخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الرأي إلا في حالات الضرورة القصوى (٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن أميرهم هشام فاثبتوا عليه خيرا - وكان تقيا ورعا مجاهدا - فقال مالك - وكان في نفسه من بنى العباس شيئا - : لست الله أن يزين موسما بمثله ، أو ليت الله أن يزين حرما بملككم » .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من أمثال الفازي بن قيس ، وزيد ابن عبد الرحمن (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثي ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، وقرعوس بن العباس بتدريس مذهبهم ونشره ، وأمر القضاء بالعمل به . ومن هنا أخذ مذهب مالك في الانتشار حتى غدا المذهب الرسمي في الأندلس (٨) .

(أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ج ٢ ص ١٧٧) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٧٤ .

(٨) أنظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ - ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى

ويذكر المقرئ سبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول :
« ذهب الجمهور إلى أن السبب في ذلك هو رحلة علماء الأندلس إلى
المدينة ، وعند رجوعهم أفاضوا في الحديث عن فضل مالك ، وسعة
علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا أقبلوا على مذهبه ، على أن هناك
رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسره
ما سمع من حسن سيرته وعدله في حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك
بنى العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالملثويين في ثورة
النفوس الزكية ، ومن هنا تنبأ أن يهب الله المشرق خيفة عادلا ، وبلغت
أمنيته الحكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبه وترك مذهب
الأوزاعي (٩) .

كما نقل المقرئ عن ابن حزم رأيه في ذلك حيث يقول (ابن حزم) :
« مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة
في المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكيئا
عند السلطان مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاضى في أقطار الأندلس
إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس

=

أن الحكم بن هشام هو الذي نشر مذهب مالك بن جهمرة الناس ،
وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « تسمع الحكم ثناء مالك
عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذي
أثنى عليه الإمام مالك (انظر الأدب الأندلسي ص ٧٤) .

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين في رأي واحد فنقول : إن مالكا سأل
بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتلمذوا على يديه وأسوا
جلال قدره وسعة علمه عن أميرهم فأنشأوا عليه خيرا
مما جعله يثنى عليه فتمنى ما تمنى مما كان سببا في إقبال الناس
في الأندلس على علمه ومذهبه وقام هؤلاء التلاميذ بدور
أساسي في ذلك .

سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به أغراضهم (١٠). ولكننا لا نوافق ابن حزم على أن السبب في إقبال الناس في الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم في الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واقعي أو عملي يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين وفي صالح جمهورهم يعمد من الإسلام ما لم يتناقض مع مبادئه وأحكامه أو أوامره ونواهيه ، هذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتي عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سببا آخر على طريقته في فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هي الغالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم تكن لهم حضارة أهل العراق ، فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة (١١) . ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا مما يناسب البداوة . ويعد أكثر ملائمة لعقلية الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبادي انتشار مذهب مالك بعوامل سياسية فيذكر أن النفور كان شديدا ، والخصومة مستحكمة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسيون على المذهب الحنفي لأن مالك لم يكن يستريح لسياسة العباسيين (١٢) .

وبالإضافة إلى هذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنأى عن التيارات المذهبية في المغرب الذي لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المالكي قد انتشر في بلاد المغرب على يد سحنون وأسد بن الفرات اللذين

(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .

(١١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ .

(١٢) المجمل في تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

أدخله إليها وعملا على نشره مع طائفة من الفقهاء (١٣) .
ومن هنا امتد هذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر
الذين شاركوا في فتحها على المذهب المالكي الذي غدا بمثابة الهوية
والقومية بالنسبة للسكان في المغرب والأندلس (١٤) .

وقد كان شبيبون أول من أدخل الموطأ كاملا إلى الأندلس
على رأي الكثيرين وأخذ عنه يحيى بن يحيى الليثي المصودي ، الذي
أشار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للتتلمذ على يد الإمام مالك فلازمه
مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ،
كما سمع بمصر عن فقيهيها الليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم
العتقي ، ولما عاد إلى الأندلس عمل هو الآخر على نشر مذهب مالك ،
وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء وأصبح إمام عصره ، وغدا له
منزلة سامية ومكانة عظيمة في عهد هشام الذي قرب الفقهاء حتى
سمى عصره بعصر نفوذ الفقهاء (١٥) .

وكذلك غدا له منزلة كبيرة في عهد حفيده عبد الرحمن الأوسط
وبلغ من نفوذ يحيى أنه كان لا يولى أحدا في القضاء إلا بمشورته .

-
- (١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسخنون هو
عبد السلام بن سعيد ، وكان من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب ،
وعليه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكورة
إلبيرة سبعة سمعوا كلهم منه في زمن واحد وأصبحوا يدورون
حول كتابه المدونة الذي جمعه من آراء عبد الرحمن بن القاسم
العتقي تلميذ مالك وفقهه المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
(انظر : الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١ ، ابن حبان
المقتبس ص ٣٠٣ تحقيق د. محمود بكى) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة
ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الدينية في المغرب ص ١٠٣ .
(١٤) د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١٠٧-١٠٨ .
(١٥) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٤٤ .

وقد أصبح المذهب المالكي في الواقع هو المذهب الوحيد
المعترف به رسميا في الأندلس وأقام الغالبية العظمى من فقهاء أنفسهم
حراسا له وتحمسوا له تحمسا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة
التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجهود .

وقد وصل التعصب ببعض لدرجة أنه إذا تناظر فقيهان
في قضية أو مسألة وقال أحدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا :
وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى
إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل التحمس لدرجة أن بعضهم ألف كتباً في مناصرة هذا
المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادي الذي ألف كتاباً
في مائة جزء كما يذكر المقرئ عن (الوادي آشي) سماه (النصرة لمذهب
إمام الهجرة) ويذكر أن الكتاب وقع في يد أحد قضاة الشافعية بمصر
فالتقى به في النيل لما فيه من عصبية شديدة (١٦) .

ظل الأندلسيون في الأعم الأغلب على هذا المذهب وتحمسوا له
وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تعد الأندلس تسمع غير
صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذي مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك
أناس اعتنقوا مذاهب أخرى غير أن صوتهما كان خافتا ، وكان هناك أمراء
عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الربضي ،
ويسمحون بل ويشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت
لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول
(٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ولكن الفكر المناصر
للمذهب المالكي حاول التقليل - إن أم يكن انقضاء - على هذه التيارات

(١٦) انظر المقرئ ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الادب الأندلسي
ص ٧٤ ، ليفي بروغنسفال : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشاط الدينى فى مجالات الفقه والتشريع على هذا المذهب وحده (١٧) .

وقد كانت سيادة مذهب مالك مما قلل من المذاهب الأخرى الخالفة لأهل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عامة وعلماء يصدرن فى الغالب عن رأى واحد وعاطفة واحدة (١٨) .

غير أن سيادة هذا المذهب لم تلغ وجود مذاهب أخرى سواء أكانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمذهب الظاهرى ، أو مذاهب دينية كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

موقف فقهاء المذهب المالكى من المذاهب الأخرى :

تعصب فقهاء المالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحمسوا له تحمسا بالغا ، ولذلك وقفوا ضد انتشار المذاهب الأخرى سواء أكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقد كان الإمام مالك عندهم هو صاحب الكلمة العليا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

ودليل ذلك موقفهم من بقرى بن مخلد الذى أدخل مصنف ابن أبى شيبة كاملا ، كما أدخل كتاب الفقه الكبير للشافعى ، كما أدخل أيضا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ ليس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهباً معيناً وإنما يصدر فتاواه تبعاً لاجتهاده الشخصى معتمداً على القرآن

(١٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الأحمر : نثر فرائد الجمان ص ٤٥ تحقيق د. رضوان الداية

دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(م ١٠ - المجتمع الأندلسى)

والسنة (١٩). وهو شيء لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .
ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه
لمسند ابن أبي شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين
مهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم
ابن مرتيل (٢٠) ، وأصبح بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون
فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند
ابن أبي شيبة » (٢١) ، ومحمد بن حارث (٢٢) . وقد أخذ هؤلاء الثلاثة
وغيرهم من المالكية فى إثارة العامة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى
بإباحة دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمير محمد ما يحدث
فاستدعاه وجميع الفقهاء وعقدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة فطلب
منه مسند ابن أبي شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب
لا تستغنى عنه خزائنا فأنظر فى نسخة لنا ، وقال لبقى فى صراحة :
أنشر عهك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له (٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية
من المذاهب الفقهية ، فما بالناس بموقفهم من المذاهب الدينية والكلامية
مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد
ويدلنا على ذلك قول المقدسى (وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ
مالك فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى
أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه) (٢٤) .

-
- (١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
(٢٠) أنظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
(٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
(٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
(٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
(٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكتفى أيضا لفهم ما صنع المالكية بالتعليم في الأندلس حيث قصروه في الغالب على دراسة المذهب المالكي وعادوا ما سواه ولكن كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم ولكن على استحياء أو في خفاء غالبا . ومن ثم فقد فشلت هذه المذاهب في أن تجد لها أتباعا كثيرين مثل المذهب المالكي (٢٥) .

ومع مجيء المنصور بن أبي عامر اشتدت قبضة الفقهاء المالكية حيث كان في حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فقربهم إليه وأمر بحرق كتب الفلسفة ، وأطلق لهم العنان في محاسبة الكثيرين على عقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة (٢٦) ، ولذلك أخذت حرية العلماء تقيد في إلقاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سياسة حيث يقال إنه كان محبا للفلسفة في قرارة نفسه (٢٧) .

كما واجه ابن حزم الظاهري نفس الموقف فأحرقت كتبه في ميادين إشبيلية (٢٨) .

وفي بعض الأحيان كانت تخف حدة المواجهة للمخالفين في المذهب نظرا للحاجة إلى توحيد الصف ضد العدو المسيحي المترص بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربما كان لهذا الاعتبار أثره في عدم انتشار المذاهب المخالفة للمذهب المالكي في الأندلس كثيرا .

(٢٥) ريبيرا ، التربية الإسلامية في الأندلس ص ٢٥ - ٢٦ ترجمة

د. الطاهر مكي . دار المعارف سنة ١٩٨١ .

(٢٦) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .

(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، ريبيرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ - ٢٧

(٢٨) انظر : الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ط ٢ مكتبة وهبة

سنة ١٩٧٧ م .

المذهب الشافعى

بالرغم من سيادة المذهب المالكى بالاندلس إلا أن المذهب الشافعى وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) الذى كان أول أمير أموى يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه وليس له من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورغبته فى الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الربضى ذلك من قبل ، وأيضا توسيع آفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له (١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبى أول دعاة المذهب الشافعى فى العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تفقه فى المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الإجماع والقياس ، وأخذ يدرس هذا المذهب فى قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذى منحه الحماية فى مواجهة دعاة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل فى هذا المنصب حتى توفى سنة ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م .

(١) لىفى بروفيتسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٤ .

(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضى : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعى . يذكر أن أباه أوصاه بالأخذ برأى الشافعى ، ولم يكن مثله فى حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة (ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل البرجل) وذكر أنه توفى سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨ هـ (تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ .

وقد تأكد هذا التشجيع من الأمير محمد عندما شمل برعايته فقيها آخر هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد القرطبي صاحب التفسير الذى أشاد به ابن حزم وقال عنه :

« الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيه ، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره » (٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد إلى نتائج هامة فى سبيل نشر هذا المذهب (٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام فى مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المالكية والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنه وعن ابن أبى شيبة ، كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبا معينا ، وإنما كان يصدر فيها يعرض له من قضايا بحسب ما يترأى له من اجتهاد معتمدا على الكتاب والسنة ، وأخذ يدرس الحديث فى قرطبة ويقرأ مسند ابن أبى شيبة ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محمد ابن وضاح (٥) ، وقد صنف فى الحديث كتابا رتب على أسماء الصحابة روى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى وعلى أبواب الفقه المختلفة فهو مصنف ومسند قال عنه ابن حزم « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

(٣) انظر ترجمته فى البغية ص ٢٤٥ وبعدها (٥٨٤) ، الجذوة ص ١٧٧ وبعدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩١ وبعدها (٢٨٣) .

(٤) بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضاح بن إزيق مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من الرواه الكثيرين طوف بالشرق فى طلب العلم ، وسمع من كثيرين منهم سحنون بن سعيد التنوخى بإفريقية وحيى بن يحيى الليثى بالأندلس ، وأخذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنه كثيرون ونشر عنها كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦ هـ (بغية المآتم ص ١٣٣ - ١٣٤ ترجمة رقم ٢٩١) .

«وضبطه وإتقانه وإحتفاله فيه بالحديث وجودة شيوخه» (٦) .

وقد ملا الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليه فقهاء المالكية لأن مسند ابن أبي شيبة الذي كان يقرأه لم يكن يعرض وجهة نظر أهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم أيضا مما جعلهم يثيرون عليه العسامة ويغرون به الأمير محمد ، وينكرون عليه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشام ابن عبد العزيز في هذا الأمر ويدعوه إلى أن يضع له حدا ، فأحضره وخصومه من المالكية أمام الأمير الذي تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه فانظر في نسخه لنا » ثم قال « لبقى أنشر علمك واروا ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

فأخذ في نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالأندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضاح « فصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه » كما يقول ابن القرضى .

وكان مما انفرد به بقى أنه أدخل مصنف أبى بكر بن أبى شيبة كاملا ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتاب الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى . وقد اعتبره بعض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخر مستقلا عن أى مذهب فقهى (٧) .

وقد عرفت الأندلس بعد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيها وخاصة فى عهد الحكم الثانى (المستنصر)

(٦) بغية المتتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية المتتمس ص ٢٤٦ .

بعد أن كانوا في عهد أبيه الناصر قد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان في عهد الأمير محمد ، بينما عاد صوت المالكية قويا ، واشتدت قبضتهم على مقاليد الحياة الدينية والثقافية من جديد في حماية المنصور بن أبي عامر (٨) .

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر أحد الدعاة النشطين للمذهب الشافعي فيقول عنه الحميدى « كان فقيها شافعيا شاعرا اخباريا متنسكا » (٩) . وقد اتهم بالاشتراك في مؤامرة ضد والده فكان مصيره القتل سنة ٣٣٨هـ / ٩٥٠م .

وكان من أتباع المذهب الشافعي أيضا أبو الجعد أسلم ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبي الذي تتلمذ على يد بقى بن مخلد ، ورحل للمشرق سنة ٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعي ومنهم محمد ابن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد ولى قضاء الجماعة مرتين في عهد الناصر ، وبالرغم من أنه كان يميل للمذهب الشافعي إلا أنه كان يقضى طبقا للمذهب المالكي لأنه المذهب الرسمي للدولة ، وقد توفى سنة ٣١٩هـ (١٠) .

ومنهم أحمد بن بشر بن محمد بن اسماعيل التجيبي المعروف بابن الأغبش وكان من أهل قرطبة سمع من ابن وضاح والخشني وغيرهما ، وكان متقدما في معرفة لسان العرب والبصر بلفاتها منفردا في ذلك ، وكان مشاورا في الأحكام ، ويذهب في فتياه إلى مذهب الشافعي ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٣٢٧هـ (١١) .

(٨) بروفسال : الحضارة العربية ص ١٦٦ .

(٩) جذوة المتبسر ص ٢٦٢ ترجمة (٥٥٥) .

(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جذوة المتبسر، ص ٣٢٢ ، الخشني :

قضاة قرطبة ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

(١١) ابن الفرضي ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من أهل قرطبة . كان حافظاً للفقهاء ، عالماً بالاختلاف ، بصيراً بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعى ، وله سماع من شيوخ وقته صحب عبيدا الشافعى وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار فى جملة المقابليين للمستنصر ، وكان ينسب أيضاً إلى مذهب الاعتزال (١٢) .

وخلال السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الأموية وجد المذهب الشافعى بعض أنصار له فى قرطبة من أبرزهم ابن حزم الذى درس المذهب المالكى ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهرى ، وأصبح أكبر داعية بالاندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد (١٣) .



(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .

(١٣) د. محمود حمادة : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ٥٨ .

المذهب الحنفى

الواقع أن هذا المذهب لم يجد له أتباعا فى الأندلس فى عصر بنى أمية إلا أفرادا قلائل . وقد أبدى المقدسى دهشته من ذلك حين ذكر : إنهم فى الأندلس يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين أن ثمة أتباعا كثيرين لمذهب أبى حنيفة فى المغرب .

وكان الرد عليه أن هذا من فعل الأمير ، ثم يروى قصة ينسبها إلى هذا الأمير الذى لم يذكر اسمه — ولعله هشام بن عبد الرحمن — فيقول : إن الأحناف والمالكية تناظرا بين يديه ذات يوم فقال : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكفينا . وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان (١) .

ولكن يبدو فى هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسى أنه سمعها من عدة مشايخ فى الأندلس وهى من نوع الحكايات التى تجرى على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموى يجهل موطن أبى حنيفة ومالك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب فى ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك أهل المدينة الذى أثنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هذا بالإضافة إلى أن مذهب أبى حنيفة مذهب يعتمد على العقل والمنطق أكثر من مذهب مالك الذى

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، ليفى برونفسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٦٣ — ١٦٤ .

يعتمد أكثر على النصوص ، مما جعل الأندلسيين — وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك في بلادهم قبل ذهابهم إلى الأندلس — يقبلون عليه أكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب أهل المدينة مثوى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن أشهر أتباع المذهب الحنفي في الأندلس الذين عثرنا عليهم في كتب التراجم الأعشى القرطبي الذي كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق (٢) .

ويظهر ذلك من خلال رأيه في شرب النبيذ فقد ذهب مذهب أبى حنيفة في هذه المسألة (٣) حيث قال : بقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . وأما ما اتخذ من غير العنب من الأثربة كالتمر والشعير فيسمى نبيذا وهو حلال إذا لم يسكر أما إذا أسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرما . ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمرة بعينها والسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا (٤) .

-
- (٢) وهو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافري المعروف بالأعشى القرطبي ، رحل من الأندلس إلى مكة سنة ١٧٩هـ ، وسمع من سفيان بن عيينة وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب أهل العراق توفى سنة ٢٢١هـ (نفح الطيب ج ١ ص ٣٥١) .
- (٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٢٧٧ وبعدها ، الأجوبة الخفيفة في مذهب الإمام أبى حنيفة ص ٧٩ — ٨٠ .
- (٤) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤١٢ ، د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٢٠٣ . يروي الجهشيلاوي : أن شريكا القاضي تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدي العباسي يوما بحديث في تحليل النبيذ فقال معاوية القاضي وكان حاضرا :

ويتجلى ذلك من قصته (الأعشى القرطبي) مع القاضى محمد بن زياد الذى قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعشى إلى حارسه وأخبره بأن القاضى قد أمر بإطلاق سراح الرجل فاطلق سراحه ولم يكن القاضى قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعشى القضاء فرفض واشتهر بمزاحه وأنه صاحب حكايات ونوادر (٥) .

ومن الذين ذهبوا مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطى ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والنظر ولا يرى التقليد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتلمذ عليه إلا ابنه (٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا فى الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المقدسى : « أما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهورا على حنفى أو شافعى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه » (٧) .

=

ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالما إن جهل جاهل . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل الورع فقد عدوا كل مسكر خمرًا وحرّموا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . (انظر الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٢٠٢) .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .

(٦) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

المذهب الظاهري

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن علي بن خلف
الاصبهاني البغدادي (٢٠٠ - ٢٧٠ هـ) . وكان على المذهب الشافعي
اولا ، ثم خرج عنه وظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول
الخطيب البغدادي : « أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس
فى الأحكام (١) » .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسى والإسراف فيه ،
ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص فى جعل مدارك
الشرع كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلى والعلة
النصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع
مجالها (٢) . وجعل المصادر الشرعية هى النصوص فقط وإبطال
القياس . وعدم الأخذ به . ويذكر أن داود لما سئل عن ذلك وقد أخذ
الشافعى به قال : أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الاستحسان فوجدتها
تبطل القياس (٣) .

وقد دخل المذهب الظاهري إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد
ابن قاسم بن هلال القرطبي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ تقريبا وذلك فى عهد
الأمير محمد الاول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١١٣ ، د. محمود
حماية : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان :
الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يبد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وأدخلها إلى الأندلس
وغلب عليه هذا المذهب (٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا للفقهاء
الظاهرى بعد عودتهم ومن أشهرهم بقرى بن مخلد وأبو عبد الله محمد
ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يجهروا بظاهريةهم وعلى رأسهم القاضى
الشهير منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا
المذهب ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالاته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا
جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس » (٥) .
ولذلك فإنه يعتبر المثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه
ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك
التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن
نشأته وهو محص البلوط بالقرب من قرطبة ، ولى قضاء الأندلس
فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد
المستنصر حتى توفى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته للقضاء ست عشرة
سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرئ — وكان
خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بسفارة قنسطنطين بعد أن أرتج
على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على
الانتصار له ، ومن مصنفاته (الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب
الله) والإبانة عن حقائق أصول الديانة . (انظر نفع الطيب ج ١
ص ٣٣٣ ، بغية المتبصص ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٣٤٨ — ٣٤٩)

ابن خلف العباسي ويحتج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحرفا إلى مذهب
أهل الكلام لهجا بالاحتجاج (٦) .

وكذلك أبو الخير مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذي
تتلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبى « فقيه عالم
زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم ،
وكان أحد شيوخه » (٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالاندلس ، فقد ناضل من
أجل إحيائه ونثره بعد أن كان قد خبا في المشرق ، ولولاه لاندثرت
فروعه فضلا عن أصوله وبقي أشتاتا متفرقات في بطون الكتب هنا
وهناك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حزم إلى هذا
المذهب واعتناقه له ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - ضيق صدر ابن حزم بكثرة الآراء والاختلافات في المسألة
الأحادية مما جعله يرد المصادر الأخرى غير النصوص والإجماع ،
ويرفضها ويؤلف الرسائل في إبطالها . مثل كتابه (إبطال القياس
والاستحسان) ، وكتابه (المحلى) الذي بين فيه ضعف هذه المصادر
وتهافتها .

٢ - الخصومة والتنازع والفرقة بين أتباع المذاهب المختلفة نتيجة
للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحمل على التقليد ويرى أن الاختلاف
بين المذاهب ليس رحمة كما يقال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتي

(٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة (١٤٥٤) .

(٧) بغية الملتبس ص ٤٦٧ ، جذوة المقتبس ص ٣٥٠ .

بخير أبدا ، ووجد في منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .

٣ - الفساد الخلقي والنفاق الاجتماعي الذي جعل طائفة من العلماء والفقهاء في عصره يقتربون إلى الحكام بلوى عنق النصوص مستخدمين في ذلك القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها . فأنكر هذه الوصولية والأدوات التي استخدمها هؤلاء في سبيل الوصول إليها .

٤ - اقتناعه ببطلان التقليد ، وأن اتباع مذهب معين بدعة لأن « سيرة الصحابة والتابعين وطريقتهم هي الاجتهاد ، وطلب سنن النبي ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه » (٨) .

٥ - سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب السنن والآثار والفقهاء وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيه صفات الاجتهاد . ويطمح إلى أن يكون صاحب مذهب يقول عنه الذهبي « كان رجلا من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة » (٩) .

ويقول عنه الكوثري « وحيث كانت نشأته في بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون متبوعا لا تابعا » (١٠) .

ولا غرو فقد بلغت تصانيفه في علوم ثلثي نحو أربعمائة مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء لم يجتمع لأحد قبله إلا لابن جرير الطبري الذي ذكر أنه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا (١١) .

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان أجاب فيهما عن سؤالين ص ٩٢ .

(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .

(١٠) مقدمة كتاب النبذ في أصول الفقه الظاهري ص ٥ ، تحقيق الكوثري مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٩٤٠م .

(١١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب

ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشي : المعجب ص ٣٠ - ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهري على أصليين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثاني : إبطال القول بالقياس والاستحسان . والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهري وإمامه في عصره ، وكتبه تعتبر المرجع اليقنى للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلى » (١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه في أصول الفقه المسمى (الإحكام في أصول الأحكام) الذى سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وأنهم لا يعتمدون فى استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا اخذ على إطلاقه إلا إذا قيده نص آخر . بيد أن اعتناء الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا فى بعض المتناقضات ومثال ذلك : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذى مسه يد مستيقظ لم يغسل يده ، نراهم يجيزون للجنب قراءة القرآن والجلوس فى المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التى جعلت البعض يحمل عليهم بشدة (١٣) .

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام أحمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك للقياس إلا فى أضيق الحدود ، ويأخذ بالمسأثور ، ويثقف عند النصوص .

(١٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٤ .

وقد أخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهري الجديد الذي يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرى للنصوص فنراه يقول : « ولذا وجب علينا اتباع النص لأنه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله » (١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هناك نص آخر محيل لهذه الدلالة ، أو إجماع متيقن أو ضرورة حس فحينئذ يعمل بالتأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية (١٥) .

وكنتيجة حتمية للمتمسك بالنصوص يرفض ابن حزم القياس والتقليد والراى والاستحسان لأن هذه في نظره هي التي فتحت باب الخلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « فجميع أهل القياس مختلفون في قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على أن كل قياس ليس صحيحا ، ولا كل راى حقا » (١٦) .

ولم يقتصر ابن حزم في منهجه الظاهري على ميدان الفقه وأصول الفقه فقط وإنما حاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهذا المنهج في هذا المجال من الابتكارات التي انفرد بها (١٧) . وقد أصبح ابن حزم صاحب مذهب نسب إليه شمل كثيرا من الاتباع الذين سموا بالحزمية ، وهو في كتابه المحلى يدعه إلى مذهبه

(١٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٦ ، ج ٣ ص ٣ .

(١٥) صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .

(١٦) المحلى ج ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

(١٧) ديلاس أوليفرى : الفكر العربى ومكانته ص ٢٤٠ ، د . طه الحاجرى :

صور اندلسية ص ٨٢٩ .

هذا دعوة صريحة ، نراها واضحة في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب (١٨) .

ومن أشهر أتباعه : ابن عبد البر القرطبي ، والحميدى صاحب جذوة المقتبس ، كما أخذ بلون منه محيي الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى أخذ بمنهج الظاهرية فى العبادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لدولته (١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبولا لدى الكثير من الأندلسيين فى انصر الأموى حيث كانوا على المذهب المالكى الذى كان بمثابة دين لهم ، وجزءا لا يتجزأ من شخصيتهم .

وقد ثارت بينه وبين الفقهاء — وخاصة المالكية — مساجلات عديدة ومناظرات عنيفة ولذلك فقد عاش شطرا كبيرا من حياته فى عنق وأذى ومضايقات دفاعا عن آرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد الباجى الفقيه الأشعرى المعروف .

يقول المقرئ « إنه لما قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب (يقصد المذهب المالكى) ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، وبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك فدخل إليه وناظره ، وشهر باطله ، وله معه مجالس كثيرة » (٢٠) .

(١٨) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .

(١٩) الشيخ أبو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٣ .

(٢٠) نفح الطيب ج ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. نريد رفاعى ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٩ وبعدها .

وكان من أشهر الذين تصدوا للرد على آرائه ونقدوه نقدا لازما بعد وفاته (٤٥٦ هـ) القاضى المالكى أبو بكر بن العربى فى كتاب سماه (الدواهى والنواهى) يصف فيه الظاهرية بأنهم : « أمة سخيصة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على رضى الله عنه يوم صنفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان أول بدعة لقيت فى رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيصة كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالمذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع النكل ، واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة بإسح ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنقيرا للقلوب منهم ... الخ » (٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد عن وطنه واحرقت كتبه علنا فى إشبيلية فى عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحننا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جنود البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٤١ هـ وتقلبت فى الأمور » (٢٢) .

ويقول الذهبى « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

(٢١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٩ .

(٢٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .

في ائمة الاجتهاد ، باقبح عبارة وافظ محاورة وامنع رد « (٢٣) .

لقد كان ابن حزم ضيق الصدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسان
ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - مرض الكبد والطحال الذي أصيب به في صباه وهو يشير إلى
ذلك فيقول : « لقد أصابني علة شديدة ولدت وفي ريو في الطحال
شديد ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر أمرا
جاشت نفسي فيه ، إذا انكرت تبدل خلقي ، واشتد عجبى من مفارقتي
لطبعي ووضح عندي أن الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده » .
وهذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ - ما عاناه من جهود الأندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم
له ، ورفضهم لأي مذهب آخر سواه ، مما الجأه إلى هذا الأسلوب
العنيف لنشر مذهبه خاصة وأنه لقي صدا وهجوما عنيفا فبادله بمثله .

٣ - الظروف السياسية المتقلبة التي عاش في ظلها ، واكتوى
بنارها هو وأسرته مما أدى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول
« أنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ،
والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير
الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الأيام » (٢٤) .

ويشير ابن حزم في قصيدة له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت

أقوالهم وأقاويل العدى محن

(٢٣) سعيد الأفغانى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصنه البعض بقوله

« كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقتين » . (الأخلاق

والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥) .

(٢٤) طوق الحمامة ص ١٥٤ .

فقلت هل عيبهم لى غير انى لا
اقول بالراى إذ فى رايهم فتن
واننى مولع بالنص لست إلى
سواه انحو ولا فى نصره اهن
لا انثنى انحو آراء يقال بها
فى الدين بل حسبى القرآن والسنة
ويقول فى قصيدة أخرى بعد أن احرقتوا كتبه ساخرًا :
وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل وينفن فى قبرى
دعونى من إحراق كاغد وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى
والأ فعودوا فى المكاتب بدأة
فكم دون ما تبغون لله من بستر(٢٥)

واخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى — الذى
كان قريبا من عصره — عنه « وهو أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم
ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب
مالك ، واستبداده بعلم الظاهر . ولم يشتهر به أحد قبله ممن علمنا ،
وقد كثر اهل مذهبه وأتباعه عندنا اليوم بالأندلس » (٢٦) .

(٢٥) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .

(٢٦) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٤٦ وبعدها .

ثانياً - المذاهب الدينية (الكلامية)

مذهب الشيعة

كان الفاطميون بعد تأسيس دولتهم في المغرب يهدفون إلى نشر مذهبهم الشيعي في الأندلس ، وإلى غزو هذه البلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولذهبهم ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين :

قسم شرقي تابع للخلافة العباسية ، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية . ولهذا أخذ الفاطميون في إرسال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على أحوالها مثل أبو اليسر الرضا ، وابن هارون البغدادي ، وابن حوقل النصيبى .

وقد لعب هؤلاء العيون « الجواسيس » دوراً مهماً في الدعاية للفاطميين والمذهب الشيعي بالأندلس ، بالإضافة إلى جمعهم للمعلومات عن أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الأمويين .

وقد دخل هؤلاء متسترين إما بغرض العلم كابن هارون البغدادي أو بغرض الرحلة والتجارة كابن حوقل النصيبى ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين (١) .

يقول ابن الفريسي عن ابن هارون « أدخل بعض كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعد ما تردد في الأندلس أعواها وأخبرني سليمان .

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن أيوب أن أبا جعفر البغدادي - وهذه كنيته - إنما دخل الأندلس
«متجسسا» (٢) .

وقد قدم ابن حوقل تقريرا مفصلا للفاطيين عن الأندلس يغري
بالزحف عليها جاء فيه أنها بلاد غنية طيبة الهواء ، كثيرة الماء ، وأن
حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقاومة .

ومما قاله في تقريره « ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها
على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص
عقولهم ، وبعدمهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة » (٣) .

وقد بدأ الفاطميون لذلك يرسلون دعواتهم متخفين إلى الأندلس ،
ونجحوا في اجتذاب بعض أنصار لهم فيها مثل ابن أبي المنصور الذي رحل
إلى المغرب وتولى القضاء للخليفة المنصور الفاطمي ، وابن هاني،
الأندلسي الشاعر المشهور الذي التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله (٤) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة « ٢٠١ » .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ، د. أحمد شلبي ، موسوعة
التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٦٠ ، د. مصطفى الشهابي : الجغرافيون
العرب ص ٥٥ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي ، أصله من بني المهلب الأزدية
بأفريقية ، انتقل أبوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمد الذي
برع في الشعر واشتهر . يذكر أنه قصد جعفر بن علي الأندلسي ملك
الزاب من المغرب الأوسط فوجد بابا عامرا بالشعراء ، فتزيا بزي
بربري وكتب على كتف شاة بيتين من الشعر هما :

الليل ليل والنهار نهار

والبغل بغل والحصار حصار

والديك ديك والنجاجة زوجته

وكلاهما طير له منقار

وادخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فأبلغه بذلك فأمر بدخوله
فأنشده قصيدة مدح رائعة منها :

كأن لواء الشمس غرة جعفر

رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلع عليه وظل عنده
حتى كتب له المعز الفاطمي ليتوجه إليه ، فاتصل به في المغرب ،
ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانيء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه
قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ. وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبارا وأسف لوفاته
أسفا شديدا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء
المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة في مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا
متحمسا ، وبلغ من حمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

لي صارم وهو شيعي كماله

يكاد يسبق كراتي إلى البطل

إذا المعز معز الدين سلطه

لم يرتقب بالنايا مدة الاجل

وقد بالغ ابن هانيء في وصف المعز حتى جعله في مرتبة الانبياء
بل نسب إليه بعض صفات الألوهية والقدرة على الإتيان
بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

ما شئت لا ما شئت الاقدار

فاحكم فانت الواحد القهار

ويذكر المستشرق ليفي بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بدأت في الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم في المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التي كون الأمويون لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة في الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلّة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافي ، وبعدها النسبي عن العاصمة الأندلسية (قرطبة) .

وقد أشار ابن حزم في القرن الخامس الهجري إلى وجود نواة

=

وكانها أنت النبي محمد

وكانها أنصارك الانتصار

انظر : ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ترجمة (٤٠٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ، ديوان ابن هانيء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طمعا ذهب المعز وعطايه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والمثول التي آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلي الذي يعتبر في نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن مثوله وهو العقل الكلي متصل بالله . ولذلك فإنها في نظرهم لا تعد كفرا (انظر : د. محمد كامل حسن : نظرية المثل والمثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربي) .

للشيعة بين سكان إقليم المرية ، وبلنقيك ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار (٥) .

وقد استطاع القاسم بن حمود — الذى ينتمى إلى الادارة العلوية — أن يعتلى عرش الخلافة الاموية مرتين فى الاندلس ٤٠٨ هـ ، ٤١٣ هـ لعدة شهور قبل سقوطها ، وجاهر بأرائه الشيعية ، وقدم نفسه كممثل لها ، وهى بلا شك نفس آراء الادارة الذين حاصر الأمويون نشاطهم المعادى لهم فى شمال المغرب (٧) .

ويذكر المراكشى والضبي : أن القاسم كان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا (٨) . وعلى أى الأحوال فإنه يعد من الشيعة بالاندلس سواء جاهرا أو لم يجاهر ، كما كان من الشعراء المتشيعين بالاندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى تشتم من كتاباته وأشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى أمية وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : أسرة يتصل نسبها بأدارة شمال إفريقية ، وكانت تقيم فى سبتة ، ثم دخلت قرطبة ، وقبضت على زمام الأمور ، وأخذت تعبت بالخلفاء الأمويين فمرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمر شيء ، ومرة يتولى أفراد منها الحكم ويدعون أنهم خلفاء . ولم يستطيع بنو حمود أو الأمويين الذين وضعوهم على عرش الخلافة أن يحافظوا على وحدة الاندلس فسقطت الخلافة سنة ٤٢٢ هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ٣٣ ، بغية المتتمس فى تاريخ رجال اهل الاندلس ص ٢٨ .

«واتصل ببني جهور بعد انهيار الخلافة الاموية ، واختص ببني حمود العلويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع» (٩) .

ومن ذكرتهم المصادر الاندلسية على انهم من المتشيعين الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، وكان من وادى الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من اصحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرئ « إماما في الحديث ، حافظا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالاندلس قبله ابصر بالحديث منه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشيء كان يظهر منه في حق معاوية » وقد توفي بقرطبة سنة ٣٠٥هـ (١٠) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الامويين السنة بالاندلس فقد أخذ الامويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر في مجابهة الفاطميين بعدة وسائل واساليب منها :

١ — التلقب باللقاب الخلافة حيث تلقب الناصر باللقاب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولته في الداخل والخارج ، وإظهار انه لا يقل عن الخليفة العباسي أو الفاطمي . وأن دولته لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تنافسهما .

٢ — بث بذور الفتن والخلافات والفتائل بين القبائل البربرية في بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هذه القبائل . وودد الخارجين على الفاطميين بما يحتاجونه .

٣ — الحرص على تقوية الأسطول الاندلسي لمنافسة أسطول

(٩) ابن حيان : المقتبس في اخبار بلد الاندلس ص ٣٤٥ — ٣٤٦ تحقيق د. محمود مكي .

(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٦ .

الفاطمين في البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبتة وهما معبري الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها في المذهب مثل دولة بنى رستم الخارجية في تاهرت (١١) .

٥ — عقد المعاهدات مع أعداء الفاطمين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس (هوجو دي بروفانس) الذي كان يحقن على الفاطمين لمهاجمتهم ميناء جنوه وتدميره ، وإمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدي الفاطمين ، والاختشيديين في مصر لمجابهة محاولات الفاطمين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعي فكريا في الداخل والخارج ، وحظر التأليف في مسائل الفكر الشيعي والمعتزلي . حتى استقر في أذهان الأندلسيين أن تناول هذه المسائل يعتبر خروجاً عن الدين الإسلامي القويم الذي يمثل المذهب المالكي . ولذلك ذكر المقدسي عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك » (١٢) .

٧ — تأليف الكتب في الرد على هذا المذهب الذي كان يخشى من تسريه إلى الأندلس ، ومن تعدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتمزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضيئة في توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكي دينيا .

كما نرى الناصر يرسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر في

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ،

د. محمود مكي : التشيع في الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروفانس : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

عهد الإخشيديين لجابهة مذهب الشيعة فى الخارج . مثل محمد بن القاسم
ابن شعبان المعروف بابن القرطى (١٣) .

٨ — استقبال العلماء والادباء المناوئين للفاطميين والفارين منهم مثل
الخشنى صاحب كتاب (قضاة قرطبة) . الذى فر من بطشهم ، واتصل
بالحكم وحبب إليه العلم وغرس فيه هواية جمع الكتب . ومثل حكم بن محمد
ابن هشام القيروانى المقرئ الذى فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر
وأجرى عليه العطاء حتى توفى سنة ٣٧٠هـ (١٤) .

وقد أثرت هذه السياسة التى اتبعها الناصر تجاه الفاطميين
فأدت إلى فشلهم فى النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما اهتم الخليفة الحكم المستنصر بمحاربة الفاطميين ومذهبهم
الشيعى مثل أبيه وسار على سياسته تجاههم قبل رحيلهم إلى مصر .
وبالغ فى ذلك حيث رأى فى محاربتهم نوعا من الجهاد ضد خصوم
سياسيين ودينيين فى آن واحد . وكان حماسه للفتنة السنى على مذهب
مالك مما جعله ينظر إليهم على أنهم زنادقة تجب محاربتهم خشية انتقال
مذهبهم إلى الأندلس (١٥) .

هذا فضلا عن أنه — مثل بقية بنى أمية — كانوا ينظرون إليهم
على أنهم مدعين للنسب الفاطمى ، ودليل ذلك تلك الرسائل المتبادلة
بينه وبين العزيز بالله الفاطمى فقد ذكر ابن خلكان : أن العزيز كتب إلى
الحكم رسالة يسبه فيها ويهجوّه فرد عليه الحكم قائلا « أما بعد

(١٣) د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر
أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية بمصر ، فأخرج
الإخشيد مثلها لشيوخ الشافعية . انظر : خوليان ربرا : التريسة
الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٤) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث الإسلامية
عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبنك » (١٦) .
كما ذكر العيني : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاه فيه وذكر
أنه دعى في نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية (١٧) .

ويبدو أنه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن
الأندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة —
مثل المأمون العباسي — فانتسعت حركة التأليف والترجمة في عهد
لتنشيل ألوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعي حيث لم يعد هناك
ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعي
الديني ، والتعصب الشديد للمذهب المالكي ما يضمن عدم تحولهم عنه
أو انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف في
أخبار الفاطميين وأنسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام
الرواني المعروف بالشبانسي أو ابن الشبانسية (ت . ٢٩٠ هـ) كتابا في
نسب العاويين سماه (التاج السنّي في نسب آل علي) ويحتوي على
أخبار الشيعة في المغرب والأندلس (١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعي في
الأندلس ، كما فعلوا في المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج
محدودة وغير ذات أثر كبير تمثلت في تلك الأقليات الشيعية التي عاشت
في بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر اخلافة الأموية كما
أشار إلى ذلك ابن حزم في القول الذي ذكرناه آنفا .

(١٦) عقد الجمان ج ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٣٠ .
(١٧) د . محمد زغروت : مجلة البحوث الإسلامية ص ٣٥٢ .

(١٨) التشيع في الأندلس : ج ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الإسلامية
في مدريد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيرة : ج ١ ص ٤٠ هامش
٣ ، د . محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث
الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

مذهب المعتزلة

وجدد دعاة المعتزلة كثيرهم من دعاة المذاهب الأخرى - كالشيعة والخوارج - متنفسا لهم في بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وأفكارهم في أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثاني الهجري حيث أرسل واصل بن عطاء الذي ينسب إليه تأسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره في كثير من الاقطار كما يتضح من شعر صفوان الأنصاري أحد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

له خلف شعب الصين في كل ثفرة

إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفال عزيزهم

تهكم جبار ولا كيد مكر (١)

وكان من هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب عبد الله بن الحارث (٢) ويبدو أن نشاطه قد لقي رواجاً في أوساط البربر حيث تشير بعض المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر لمذهب الاعتزال (٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجد مقاومة شديدة من الأمويون في الأندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتائج محدودة ، فإن مذهب المعتزلة

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٩٢ .

(٣) انظر : د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب في القرن

الثالث الهجري ص ١٤١ .

قد وجد مجالا اوسع وعددا اكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما اورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعل السبب المهم فى ذلك يعود إلى أن الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعى على أنه مذهب يريد به أصحابه أن يصلوا إلى أهداف سياسية ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبغون من ورائه إقامة دولة مثل الشيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه أيضا ولكن لم تكن مقاومتهم له مثل مقاومتهم للمذهب الشيعى وبخاصة أولئك الأمراء والخلفاء الذين اهتموا بالعلم والثقافة ، وحاولوا مقاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المالكية على مقاليد الحياة الفكرية والدينية فى الأندلس .

وما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكى قد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينية (الكلامية) نظرة تشدد واضطهاد . كما يستدل على ذلك من قول المقدسى السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهوروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه » (٤) . وقد واجه فقهاء المالكية هذا المذهب باستنكار شديد ، والذي كان يكتشف أمره وأنه يدعو لهذا المذهب كان يتم إبعاده من أولى الأمر بواسطة تأثيرهم وتدخلهم كما حدث عندما وصل إلى قرطبة أبو الطيب ابن أبى بردة سنة ٣٦١هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر فأحسن استقباله على أنه من كبار الشافعية ، ولما اكتشف أنه من المعتزلة أبعده على الفور سنة ٣٧٣هـ (٥) .

(٤) إحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(٥) ليفى : روفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقد وجد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ، ويبدو أن سبب ذلك هو أن المعتزلة التزموا العمل سرا أكثر من الشيعة ، واستطاع بعضهم أن يثبت آراءهم خفية دون أن يلحظهم أحد ، أو يثيروا غضب المتشددين من فقهاء المالكية الحريصين على الاتجاه السني المحافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حزم « من أن وادي بنى توبة كان كله معتزليا » (٦) .

ومن الصعب تحديد الوقت الذي بدأت فيه آراء المعتزلة تتسلل تدريجيا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسي ثقافة — نظرا لطبيعة هذا المذهب الذي يعتمد على العقل كثيرا — وإن كنا نعتقد أن ذلك لم يحدث قبل حكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) الذي سمح للكثير من الآراء والأفكار بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من كتب المعتزلة إلى الأندلس وتلقفها الكثير من المثقفين وخاصة القضاة (٧) .

ومن الأوائل القائلين بهذا المذهب في الأندلس : أحمد بن موسى ابن حدير الذي كان يقول : إن الله عاقل وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس . كما كان منذر بن سعيد الجاوي يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه الحكم فقد كان رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم كما يقول ابن حزم (٨) ، ومنهم أيضا عبد الأعلى بن وهب القرطبي ت ٢٦٢ هـ (٩)

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة

١٥٤ ، و ترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

(م ١٢ - المجتمع الأندلسي)

وكان من الفقهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح (١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبي الذى اشتهر باسم خليل الغفلة (١١) وكان معاصرا لبقى بن مخلد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين وأخذ يتحدث بعد عودته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان فى أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور فى أفعاله (١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بأرائه دون تستر ، وكان فى أول أمره صديقا لمحمد بن وضاح فلما تبين له أمره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخلد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول فى الصراط ؟ قال : الطريق (يريد الإسلام) فمن استقام عليه نجا ؟ قال فما تقول فى القرآن ؟ فجلجج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول فى القدر ؟ قال : أقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالتك لأشرت بسفك دمك ، قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت (١٣) .

ويظهر أنه لم يتعرض لأذى فى حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لأرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل (الفقهية) (١٤) .

-
- (١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .
(١١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ ج ١ ص ١٣٩ وبعدها .
(١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .
(١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه ابو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه (ت ٣١٥ هـ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفننا فى الآداب ورواية الاخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعقيد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس وأصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيها الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة أخذ ذلك عن أستاذه خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو أن مذهب الاعتزال قد أخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المثقفين والعمامة أيضا حيث يصف ابن حزم مسكان وادى بنى توبة بأنهم من المعتزلة (١٦) كما ذكر أيضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه (١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصمت مذهب المعتزلة الكلامي البحت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن (ولد سنة ٢٦٩ هـ وتوفى سنة ٣١٩ هـ) (١٨) .

(١٥) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٨٨ ترجمة (١٥٨٠) .

(١٦) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .

(١٧) انظر أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٩ .

(١٨) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيع الجبلى القرطبى ، كان أبوه مولى لرجل من البربر من أهل فاس ، وقيل لبني هاشم ، وقيل لبني أمية ، رحل الأب إلى المشرق وسمع بالبصرة عن كثيرين . والمعروف أنها كانت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان متهما بالقول بالقدر وكان يكتنم ذلك ولا يظهره ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا فاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

وقد تتلمذ على يد أبيه الذى اعتنق المذهب ، كما تتلمذ على يد محمد بن وضاح الخشنى وخرج إلى المشرق فى أواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة (١٩٠) . ودخل القيروان ولبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس استاذة أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظل بالمدينة مدة يتتبع آثاره فدل على دار زوجه مارية القبطية وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها سقينة ، فصلى بها ، وحددا مساحتها ، ولما عاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة (٢٠٠) .

وقد صحبه فى هذه الرحلة اثنان من معتقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعرف بابن المرىنى وكان من أهل طليطلة ، وأيوب بن فتح ، واثنان آخران هما أحمد بن غانم ، ومحمد ابن وهب المعروف بابن الصيقل (٢١١) .

ونزل بمكة وتوفى بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليه ، ولكن يبدو أنه اتهم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سببا لخروجه (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة رقم (١٢٠٤) . حدد د. إحسان عباس مولده بأنه سنة ٢٩٩هـ (تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٥٢) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له (تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤) . كما حدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخر عهد الأمير عبد الله وربما كان هذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١هـ (د. محمود حمادة ابن حزم ومنهجه ص ٣٨) .

(٢٠) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلاة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفرضي : أن ابن مسرة اشتغل في الشرق بملاقاة أهل
الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأظهر النفسك
والبورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا في موقفهم
منه إلى فريقين : فريق رآه إماما في العلم والزهدي ، وفريق آخر طعن
عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتقد والابتداع والخروج عن المعلوم
المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم (٢٢) .

ويبدو من الأخبار القليلة التي وردت عنه في كتب التراجم والتاريخ
أن مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا
ولا باطنيا خالصا (٢٣) .

فأما مبادئ الاعتزال التي كان يقول بها فهي القول بالاستطاعة ،
وانفاذ الوعيد والتأويل في كثير من القرآن (٢٤) . يقول ابن حزم « إن
ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله
وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وأن الله تعالى علمين أحدهما : أحده
جملة وهو علم الكتاب أو علم الغيب ، والثاني : علم الجزئيات وهو علم
الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله
تعالى (عالم الغيب والشهادة) (٢٥) .

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنه كان معتزليا كاذبا ، وأسر مذهبه
مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا
فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس وأظهر التقيّة وأخذ يبتث تعاليمه
(ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠) .

(٢٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د. إحسان
عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧ هـ .

وقد ذكر ابن الفرضى : انه كان يحرف التأويل فى كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى المصرى ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأنه كان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعانى وأنه وفد عليه جماعة من أهل المشرق منهم ابن زياد الأعرابى وابن سالم التسترى (٢٦) .

وأما المبادئ الباطنية فى مذهبه فإنه بناها على آراء نسبت لابنيزوقليس الفيلسوف اليونانى الذى يعد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليه كرامات كالصوفية ، والحقيقة أنها بعض آراء فيلون الاسكندرى وأفلوطين .

ومن هذه الآراء المنسوبة إليه الجمع بين معانى صفات الله ، وأنها كلها تؤدى إلى شىء واحد ، وأنه إذا وصف بالعلم والجود والقدرة الخ فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذى لا يتكرر بوجه . وتزعم الفرقة الباطنية ان له رموزا قلما يوقف عليها (٢٧) .

وقد يستنتج مما جاء فى كتب ابن مسرة أن النبوة من الممكن اكتسابها وأنه قد يصل إليها من بلغ الغاية فى الصلاح وطهارة النفس وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه (٢٨) .

وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عند أفلوطين

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .

(٢٧) القفطى : أخبار الحكماء ج ١ ص ١٣ .

أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠ ، د . إحسان عباس :

تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢٨) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

وهي القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسباني بالنثيا : أن ابن مسرة قد دافع عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية (٢٩) .

ويذكر ليفي بروغنسال : أنه أراد بناء منهج فلسفي يقوم على مبدأ وحدة الوجود ، وأن أصالة فلسفة ابن مسرة تكمن في الاستفادة من هذه الفكرة ، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته عن كوثية العالم ، وعقيدته في الإرادة الحرة ، والعلم الإلهي السابق وعدم تطهير الروح إلا بعد عودتها للعالم الروحاني (٣٠) .

ويرى جولد زيهر : أنه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحديثة التي كانت منتشرة بالشرق في ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر (٣١) . وقد انتهى المستشرق الإسباني آسين بلاسيوس إلى نتائج تختلف بعض الشيء عن نتائج ليفي بروغنسال وجولد زيهر فهو يرى وجوب الفصل عند دراسة أفكار ابن مسرة بين المنهج اللاهوتي والمنهج الفلسفي . وحاول أن يتبين خصائص كل منهما معتمدا على آراء اثنين من الأندلسيين وهما ابن حزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشاركة وهما الشهرزوري والشهرستاني (٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

(٣٠) الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر مكي .

(٣١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٣٢) الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم فى عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايات ذا قدرة ساحرة مؤثرة فى النفوس ، والف بعض الكتب فى مذهبه ومنها كتاب الحروف وكتاب التبصرة ، ويذكر ابن الأبار : أنه لم يكن يخرج كتابا إلا بعد أن يتعقبه حولا كاملا (٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة فى الأندلس ورأى ابن حزم عددا منها (٣٤) .

وقد أثارت آراء ابن مسرة خصومات جدلية فى الأندلس والمشرق ، وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشاركة فمن تصدى للرد عليه من المشاركة أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي ، وأحمد بن محمد بن سالم التستري .

ومن تصدى للرد عليه من الأندلسيين ابن أبيض الذى ألف كتابا كبيرا فى ذلك أكثر فيه من الحديث والشواهد (٣٥) ، وكذلك الزبيدى العالم اللغوى المشهور الذى ألف كتابا فى الرد عليه أيضا (٣٦) ، والقاضى ابن زرب (محمد بن يبقى) الذى كان يعارض آراء ابن مسرة معارضة شديدة وألف كتابا أخذ عنه عدة مرات بقرطبة (٣٧) . وقد منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واسعة ومعه الزبيدى لمحاصرة

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع أحد على كتبه حتى المقربين إليه من تلاميذه ويقال : إنه لما ألف كتاب التبصرة احتال صاحبه يحيى بن عبد الملك الذى كان يسكن معه فى خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة لنفسه ثم أراها له فلما تصفحها قال : لا نفعك الله به ولم يخرج هذا الكتاب بعد ذلك لأحد (التكملة ص ٢٨٥) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن بشكرال : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فأمر باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من افكارهم علنا ، وأحرق كتبهم التى نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحقتهم بعض الشئ نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن ما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذى تولى حجابته المنصور بن أبى عامر حتى عادت ملاحقتهم من جديد — حيث كان المنصور شديدا على المشتغلين بالفلسفة — وتم تعيين ابن زرب تاضيا للجماعة ، فاهتم بالكشف عنهم وتتبعهم واستتابتهم فتاب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجده من كتبهم وكان ذلك فى حدود سنة ٣٧٠ هـ (٣٨) .

وفى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى القاضى المشهور فى عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصليب حيث اتهم بأنه معتزلى وأنه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبتونه فى قرطبة ، وساعدهم فى ذلك نظام الخلوة التى أقامها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة فى جبل قرطبة . وتكوين مقر آخر لاتباع المذهب فى مدينة بجاية (٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتعلموا على يديه ومنهم طريف الروطى ، وأضحى بن سعيد وكانا من

(٣٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حمادة : ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق ص ٥٨ .

(٣٩) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ — ١٨٢ .

أهل الزهد والخير وقد ألف بعضهم كتابا فى أخبار ابن مسرة وأصحابه
نقل عنه ابن الأبار فى التكملة (٤٠) .

ومن أشهر أتباع ابن مسرة وتلاميذه أيضا : إلياس بن يوسف
الطليطلى ت ٣٢١ هـ ، وأخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخليـل
ابن عبد الملك (ت ٣٢٣ هـ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان
يجاهر بالقول بالاستطاعة والقدر والتأويلات التى تفسر لنا شيئا من
تأويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أى الإسلام ، والميزان
هو عدل الله (٤١) .

وأيوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣ هـ وكان قديـم
الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له (٤٢) ، ومحمد بن مفرج المعافرى
(ت ٣٧١ هـ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدعو
إليه (٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ،
واحمد بن وليد (ت ٣٧٦ هـ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم
القاضى محمد بن بيقى (٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة
(ت ٣٧٦ هـ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولما توفى صل عليه القاضى
محمد بن بيقى ودفن بمقبرة قريش ويظهر أنه استتابه (٤٥) .
وأيان بن عثمان (ت ٣٧٧ هـ) من أهل شذونة وكان نحويا لغويا ،

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .

(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .

(٤٢) ابن الأبار : التكملة ص ١٩٩ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ ترجمة رقم (١٣٣١) .

(٤٤) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٥٣ ترجمة (١٨١) .

(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ ترجمة

(٤٣٩) .

لطيف النظر . جيد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا في دقيق العلوم ،
حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة (٤٦) .

وعبد العزيز بن حكم الأموي (ت ٣٧٨ هـ) وكان ماثلا إلى الكلام
والنظر وقد غُض منه انتحاله لمذهب ابن مسرة كما يقول
ابن الفرضي (٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبي المعروف بابن الإمام
(ت ٣٨٠ هـ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر ،
وكان مولعا بالتشريق في صلاته (٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي القرطبي (ت ٣٨٢ هـ)
وأصله من جيان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تاب
عنه (٤٩) .

وآخر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرعيني
وهو متأخر عن الجيل الثاني من أتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقيه
وقال عنه « وكان من المجتهدين في العبادة المنقطعين في الزهد » (٥٠) .
وقد أحدث في المذهب أقوالا نفرت سائر من بقى من أتباعه منه وكفروه
لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبدا وإنما تبعث
الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويصير إما إلى
الجنة وإما إلى النار ، وأنها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .
وقوله : إن العالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى الله .

-
- (٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة (٨٣٦) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٣ ترجمة (١٣٦١) .
(٤٩) المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦ ترجمة (١٣٦٦) .
(٥٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

وينزعه عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم وينسب قوله هذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال في كتبه .
ولكن ابن حزم يذاع عن ابن مسرة في ذلك قائلا : « ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول » ويذكر أنه عرض هذه الأقوال على ابن إسماعيل فأنكرها ، ولما برىء منه أتباع ابن مسرة بقيت ابنة له تتبعه وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة (٥١) .

ويذكر ابن حزم أيضا أنه رأى من أصحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون .
ويبدو أن إسماعيل قد حاول تكوين مذهب جديد يكون إماما له ونادى بمبادئ جديدة وأنه أتبعه أناس على هذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيها وهي أنه كان عند فرقته إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذي يجلب للمسلم من كل ذلك قوته كيئما أخذه هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا ، وأخبرنا عنه بعض من عرف بالطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصح أنه كان يقول بنكاح المتعة » (٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التي بذلت في سبيل القضاء على هذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقاء لتأخذ في الانتشار بعد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجري لتحدد بدقة ووضوح ملامح الحياة الصوفية الجماعية في الأندلس وتطورها (٥٣) .

-
- (٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الادب الأندلسي ص ٥٨ .
(٥٢) انظر الفصل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحسان عباس : تاريخ الادب الأندلسي ص ٥٨ .
(٥٣) برونفسال : الحضارة العربية ص ١٨٢ .

مذهب الخوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قد لقي معارضة شديدة في الأندلس ، فإن مذهب الخوارج بلا شك قد لقي معارضة ومقاومة أشد .
ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفرية (١) .

(١) الإباضية : تسمية أطلقت عليهم من قبل خصومهم وهي نسبة إلى عبد الله بن إباض الذي اشتهر بالدفاع عن المذهب . ومؤسسه الحقيقي هو الإمام جابر بن زيد أستاذ عبد الله ، وقد استخدم أسلوب التقية الدنيئة في البصرة ، وعرف بأنه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . (الحياة الدينية في المغرب في القرن الثالث الهجري ص ١٩٧) وهم لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التي حكمت على مرتكبي الكبائر بالشرك وأحلت دماءهم وأموالهم . وقد بين الشهرستاني وغيره من كتاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفتنا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكرار عند الحرب حلال وما سواه حرام ، وحرام قتلهم ، وسبيهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخالفتهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى ، وأجازوا شهادة مخالفتهم على أوليائهم وقالوا في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون » (الملل والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧١) .

وفي هذه الآراء نلمس مدى المسألة والاعتدال الذي اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التي كفرت المسلمين واستباححت دماءهم وأموالهم وأعراضهم (انظر د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٠١) .

قد وجد له مجالا وصدى فى بلاد المغرب ، ووجد أتباعه فيها مجالا خصبا لبث افكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضة الخلافة ، وأقبل عليه الكثير من البربر لأنه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطبيعتهم بما فيه من بساطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحية اخرى .

الصفريّة : أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل سموا بذلك نظرا لاصفرار وجوههم نتيجة لكثرة العبادة . ومبادئهم فى الجملة كمبادئ الأزارقة فى أن مرتكبي الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل مخالفينهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالة عبد الله بن وهب الناسبى وحرقوق بن زهير السعدى وأتباعهما من المحكمة الأولى ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى وعمران بن حطان السدوسى بعده (الفرق بين الفرق ص ٧٠ - ٧١ ط ٢ بيروت سنة ١٩٧٩م) .

وقد أشار الشهرستانى إلى الخلاف بين الصفريّة من ناحية والأزارقة والنجدات والإباضية من جهة أخرى فقال « إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد . ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار ، وقالوا التقية جائزة فى القول دون العمل . وأما قضية الإيمان والشرك والبراءة عند الصفريّة فيلخصها قول نسب نزياد « نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعننا خرجنا من الإيمان عند الله . والشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود مريضة » (الملل والنحل ص ٢٥٠ - ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م) .

ويشير ابن خلدون إلى شيء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدأبوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفيرية ... الخ » (٢) .

وقد ساهمت الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب في تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبائل التي انضمت للمذاهب الخارجية يجد أنها شملت البتر والبرانس أصل البربر . فقد اعتنقت زناتة المذهب الإباضي ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفع أحد ولاتها إلى القول « بأن هذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زناتة » (٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التي تعد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضي ، وقبيلة لماية التي اعتنقت المذهب الإباضي أيضا . وقبيلة هواره التي تنتمي للبرانس التي اعتنق أغلبها المذهب الإباضي (٤) .

والى جانب المذهب الإباضي التي انتشر في مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقد وجد المذهب الصفري الذي انتشر أيضا واعتنقه العديد من البربر وخاصة قبائل مكناسة ومطفرة وبرغواطة وكانت أول ثورة خارجية تندلع على أرض المغرب سنة ١٢٢ هـ بقيادة ميسرة الدغرى (المطفري) ويعرف بالحقير بائع الماء بسوق القيروان (٥) .

وقد استطاع ميسرة أن يقود جموع أتباعه من الخوارج الصفيرية وغيرهم ليقضى على ولاة طنجة وإقليم السوس واتبعه هؤلاء ويأيعوه بالخلافة وخاطبوه بأمر المؤمنين وغشت دعوته في سائر القبائل بافريقية (٦) . ويذكر أن أتباعه كانوا

(٢) العبر ج ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٣) الحياة الدينية في المغرب ص ١٥٤ - ١٢٥ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٥٨٦ .

(٥) الكامل ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ ، العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٤ .

(٦) عن هذه الثورة انظر السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ - ١٥٥ .

يطلقون رؤوسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من اتباع

عبد الله بن وهب الراسبي (٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجي بشقيه الإباضي والصفري أن يحقق

نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداها دولة صفرية في سجلماسة

في المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى إباضية في المغرب الأوسط وهي

الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ (٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش

طارق الذي دخل الأندلس وهي مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة وكلها

متفرعة من زناتة (٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطغرة كانت تعتنق المذهب

الصفري ومنها ميسرة المدغري الذي قام بأول ثورة خارجية في المغرب

وامتد صداها إلى الأندلس .

ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتقد

المذاهب الخارجية وأن كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل

على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم

ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرتق سنة ١٢٥هـ التي حلق فيها البربر

رؤوسهم اقتداء بميسرة « ولكي لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يمتثلطوا »

وقد ذكر ابن حزم : أن النكارية كانوا هم الغالبين على خوارج

الأندلس (١٠) .

ويذكر دوزي : أن رجوع ثورة البربر بقيادة ميسرة في إفريقية كان

شديدا في إسبانيا حيث رحب بربرها بمبعوثي الخوارج الوافدين من

إفريقية لدعوتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة

سياسية دينية كفتنة الإفريقية (١١) .

(٧) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٥٤ .

(٨) الحياة الدينية في المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .

(٩) القيروان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .

(١١) تاريخ مسلمي إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن

حبشي دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ م .

التصوف

هناك ناحية جديرة بالبحث فى الحالة الدينية وهى ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف فى المشرق فى القرن الثانى ، كذلك نشأ فى الأندلس فى نفس القرن بعد الفتح غير أن التصوف فى المشرق كان مزيجا من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجا من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الجديدة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجاور هذه البلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربري ، وقد اشتهر هذا العنصر من قديم بأن أهله أصحاب خيال واعتقاد بالمغيبات وسرعة تصديق أصحاب الدعاوى الغيبة ولا ننسى ما لقيه العرب عند فتحهم للمغرب من شدة مقاومة هذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى (الكاهنة) حيث التفت حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن فى كثير من بلاد المغرب لازال للبربر شهرة قوية فى فتح الكتاب ، وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهى أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حركة التصوف (١) .

وأول من عرف تصوفه فى الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦ هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليلا وغير مرغوب فيه فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين فى خلوة بجبل قرطبة وتعبد فيه ويبت هذا المذهب لاتباعه . وساعدته عزلته على سعة الخيال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهرا أنه يريد الحج

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى وأخذ في نشر مذهبه فازداد أتباعه ، ويبدو أنه اتخذ التقية وسيلة لإخفاء حقيقة مذهبه الذي يجمع بين الاعتزال والتصوف (٢) .

ويبدو أن تطور مذهب الاعتزال وانتشاره في الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف (٣) .

وهنا يصح لنا أن نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعي ومزاجه وتعاليم النصارى الإسبان والفلاسفة اليونان هي التي أنتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسي مستقلا عن التصوف في المشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالإجابة خصوصا وقد كان في الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من أن يكون التصوف الأندلسي قد أخذ من هذا وذاك . وعلى أية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا في الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمي الذي أخذ عنه محيي الدين ابن عربي وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتباً ، وعاصره صوفي آخر يدعى أبو عبد الله القرشي الهاشمي الذي نسبت إليه أقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل في الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفي ببيت المقدس سنة ٥٥٩هـ وكان الناس يتبركون بضريحه هناك (٤) .

ويرى أسبن بلاسيوس أن حياة الزهد كانت هي الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة في عصر الخلافة لن يريدون الفرار من سيادة رجال

(٢) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٧٠ .

الدين المالكية في الأندلس ، وأن يثثوا تعاليمهم في دائرة ضيقة من
الأتباع والمؤمنين دون أن يتعرضوا لخطر جسيم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بوعدهم أن يكتسبوا مكانة عند السلطان
والنخوة والعمامة ، واستعانوا بالتفسيرات الرمزية للتوفيق بين النصوص
وبين الأفكار الباطنية المشرقية (٥) .

وكان هؤلاء يشكون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا
الحياة في المدن ، واعتكفوا في الجبال والغابات ، واجتهدوا في
العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والمذات ، وآثروا الفقر
على الغنى وكانوا يقطعون الليل في تلاوة القرآن ، والنهار في الصيام
ولا يكون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ،
ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم في
العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يربطون في الثغور لمحاربة
النصارى طلباً للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنسك
والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة
العمامة في مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلته بالأوساط
العلمية والدينية . وتميزوا بملابسهم القريية الخشنة ، وحياتهم القاسية ،
وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون في
الحملات الحربية الموجهة ضد النصارى .

وقد قدم لنا الضبي في كتابه بغية المتيسر نموذجاً حياً لواحد
من هؤلاء الزهاد ويدعى محمد بن طاهر القيسي فيقول عنه « ورع فاضل
من أهل بيت جلاله وصلاح برع بخصاله المحمودة فكان في نفسه فقيهاً
عالماً زاهداً خيراً ناسكاً مثيلاً في طلب العلم ، ورحل في القاموس إلى

(٥) إبنى برزوغنبال : الحضارة القريية ص ١٧٥ .

قرطبة فروى الحديث بها وتفقه بأهل الشورى المفتين وناظرهم
وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين
فسكن الحرمين ثمانيّة أعوام يتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى
بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء
العلماء والفقهاء ، وصحب الأخيار والنسك وتآلفهم واقتدى بهم ولبس
الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا فأصبح
عالما عاملا منقطع القرين ، قد جريت منه دعوات مجابة ، وحفظت
له كرامات ظاهرة ، يطول القول في تعدادها حياها عنه رواة
صدق .

ثم قدم تدمير سنة ست أو سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية
قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها في القرية المنسوبة إلى بني طاهر ،
وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفاء (٦) أوى إليه وكانت
له هناك جنيّة يعمرها بيده ويقتات بما يزرعه فيها من البقل
والثمر . وكان لا يدع في خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبي عامر وقواده
وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلمرية من قواعد ملكة جليقية المسيحية
ثم ترك قريته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا بأس وشجاعة وثقافة تحدث بها أهل الثغر في حكايات
عجيبة وظل مرابطا بطليبة حتى استشهد سنة ٣٧٩هـ (٧) .

وثبة نموذج آخر وهو عثمان بن محامس ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م قال عنه
الضبي « زاهد عالم مشهور بالعزوف عن الدنيا من أهل استجة

(٦) ورد في نفح الطيب بحطب السدر ، وفي هامشه بحطب الشعراء
« والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها
أهداب تحرص عليها الأبل أشد الحرص (بغية الملتبس ص ٨٤
هامش ٢) .

(٧) الضبي : بغية الملتبس ترجمة رقم (١٥٤) . (ص ٨٢ - ٨٤) .

كتب على باب داره (يا عظمى لا تطمع) « (٨) » .
ويقول عنه ابن الفرضى « كان حافظا للتفسير ، عالما بأخبار
الدهور ، وله فى ذلك كتاب يعقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى رحمه الله
سنة ست وخمسين وثلاثمائة » (٩) .

وبخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء
النسك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا فى القرون التالية وبخاصة فى
شرق الأندلس ومملكة غرناطة ومن هؤلاء إبراهيم بن علي الديلمى
الخراسانى ، وأحمد بن محمد بن صالح الأنطاكى (١٠) .

ونجد فى هذه الفترة زهد واضحة عند بعض الشعراء
مثل ابن أبى زمن والغزالى وابن عبد ربه وأبى بكر الزبيدى وغيرهم (١١)
ونحس فيها بأفكار شاعر الزهد أبى العتاهية ونظرتة إلى الحياة والموت .
ومن الغريب أن نحيكم بأن هؤلاء الشعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه
الموضوعات من أبى العتاهية أو اقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها
أصولها الاجتماعية ولا تجمى كلها اقتباسا ، فموضوع الحياة والموت مشترك
بين الناس جميعا ، ولكن أثر أبى العتاهية فى تقوية هذه النزعة الزاهدة
فى الشعر الأندلسى لا يمكن إنكاره فعندما تنظر إلى الزبيدى فى قوله :

تفكر فى المات فعن قريب ينادى بالرحيل إلى الحساب
وقدم ما ترجى النفع منه لواء الخلد واعمل بالكتاب
ولا تغتر بالدنيا فمعا قريب سوف تؤذن بالخراب

(٨) الضبى : بغية الملتبس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .
(٩) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٢٠٥ ترجمة ٩٠١ .
(١٠) انظر ترجمتهما فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤
ص ٦٢ - ٦٣ .

(١١) راجع عن اشعار الزهد عند الغزالى وكذلك ابن عبد ربه ظهر الإسلام
ج ٣ ص ١٠٩ - ١٢٣ .

فإننا نجد قد اتفق في الشكل والموضوع بل والقافية مع قول
أبي العتاهية :

لحوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبي زئنين :

أيها المرء إن جنياك بحر طامح موجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها عيّن وهو أخذ الكفاف والقوت منها (١٢)

والى قول أبي العتاهية :

كل أهل الدنيا تعوم على الغفلة
منها في غمر بحر عميق
يتبارون في السباح فهم ما
بين ناج منهم وبين غريق

فإننا نجد الموضوع واحدا بينها وإن اختلفت الصورة فالصورة
عند أبي العتاهية غير تلك التي يرسمها ابن زئنين وهي أقرب إلى أن تكون
أندلسية أصيلة من تلك الصورة التي رسمها لنا الزبيدي في أبيات
السابقة (١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد في الأندلس قد ولد في
أحضان ثورة الربض التي قامت ضد الحكم بن هشام ، حيث كان
الفقهاء والأتقياء ينظمون أشعار الزهد ، ويتغنون به ليلا ، ويعرضون
فيها بالحكم ، ثم أخذ هذا النوع يقوى ردا على الحياة اللاهية ،
وانقيادا لدواعي التقى أيام الشيخوخة ، كما نرى في زهديات الغزال
ومحسسات ابن عبد ربه — وهي قصائد نظمها بعد أن تقدمت به السن

(١٢) الثعالبي : نتيحة الدهرج ١ ص ٤١٠ .

(١٣) إحسان عباس : الأدب الأندلسي ص ٩٤ — ٩٥ .

لينقضى بها تصائد اللهو التى قالها أيام شبابه (١٤) ووجد من الانقياء من تخصص فى هذا النوع من الشعر مثل ابن أبى زمنين صاحب ديوان (النصائح) ، وقاسم بن نصير الذى ألف كتابا فى شعر الفقهاء تكلمة لهذا الاتجاه الذى كان قد انتهجه فى شعره (١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الرضى لأن الزهد ليس من الأمور التى تحدث فجأة فى المجتمع ، فأى مجتمع من المجتمعات يجتمع فيه الجانبان جانب الترف واللهو وجانب الزهد والتصوف ، وقد يتغلب أى منهما على الآخر فى بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود أحدهما إلى جانب الآخر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع من المجتمعات ودرجة تدينه .

ودليل ذلك أننا نجد فى كتب التراجم الأندلسية أسماء لزهاد وجدوا حتى منذ بداية دخول المسلمين إلى الأندلس وقال البعض منهم أشعارا فى الزهد والحكمة (١٦) .

وقد كان تيار الزهد فى الأندلس ثم التصوف بعد ذلك رد فعل شديد لتيار الإسراف فى الترف واللهو الذى جذب الكثيرين فكان من الطبيعى أن يعطو صوت هذا التيار الذى يهون من شأن الدنيا ويبصر بحقيقتها ويدعو إلى الآخرة فى مقابل صوت الفريق الذى ينادى باللذة والمتعة .

ويبدو أن عدد الزهاد فى الأندلس كان من الكثرة بـمكان حتى إن

(١٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٧٣ - ٧٤ .
(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، بغية المنبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى ، جنوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس للحبيدى ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٥٧ وبمعددها .

ابن بشكوال - حسب ما ذكر ابن الأبار - صنف كتابا بعنوان (زهاد
الاندلس وأئمتها) ولكنه لم يصل إلينا (١٧) .

وإذا كان الأدب هو ظل الحياة في المجتمع وهو المرآة التي تنعكس
عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نتبين بوضوح
جانب الزهد في المجتمع الأندلسي .

ومن هنا فإن أشعار الزهد هيبة تكاد تكون أضعاف مثيلاتها في
المشرق ولا غرابة في ذلك حيث كان المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب
التهوؤ ومن هنا كان رد الفعل قويا ، وإذا كان الخليفة الناصر مثلا محبا
للشعر والبهاء ، فمما في مظاهر الجاهلية والترف محبا لاقتناء
الجواري والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف
الحياة ومعتبرا مستفكرا لإسراف أبيه في الترف (١٨) .

فيقول عنه الخميدى والضبيبي (١) وكان فقيها شافعيًا شاعرا إخباريا
متنسكا (١٩) .

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .
(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ دار العلم للملايين
بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه
في الإقبال على الدنيا دفع به إلى التآمر عليه للتخلص منه ولكن
مؤامراته باءت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد
الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه
الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث سؤل له بعض خاصته ومنهم
الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن العطار وياسر الفتى وغيرهم قتل
أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخيه فاشتبك أمر هذه المؤامرة وقتل
عبد البر .
٢٧ . عهد المؤمنين شارك معه في ذي الحجة ٣٢٨ هـ (انظر : ابن الأبار :
الحلة المبراء ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، تحقيق د. حسين مؤنس
ط ٢ سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد ديب : تاريخ العرب
في إسبانيا ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٤ م) .
(١٩) جذوة القتبس ص ٢٦٢ - ترجمة (٥٥٥) ، بقية الملتبس
ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

الفصل الرابع

الفصل الرابع
مظاهر الحياة الاجتماعية

1944

1945

العمارة

أولا - العمارة الدينية

المساجد

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية للبلاد الأجنبية خارج شبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية (أمصار) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصنع البلاد المفتوحة بالصيغة العربية الإسلامية من ناحية أخرى .

وقد كانت المساجد هي الأساس الذي اعتمد عليه الفاتحون المسلمون في صلب المدن المفتوحة بالصيغة الإسلامية ، حيث يصبح المسجد الجامع بهرور الزمن هو مركز المدينة وقلبها النابض . فهذه تتفرع الأزقة والطرق المؤدية إلى أبوابها ، وحول ساحته أو قريبا منه تقام الأسواق والفنادق والقياسر والحمامات وغيرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومكان عقد الحلقات العلمية ، والفصل في الخصومات وغير ذلك ، فضلا عن كونه مكان إقامة شعائر الإسلام . فليس غريبا أن يسيطر المسجد في المدن الإسلامية في تلك العصور على مناحى الحياة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام أساس الحركة العمرانية في المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسبان في كنائسهم في قرطبة وغيرها حيث أقاموا في جزء من كنيسة (شنت بنجنت) الكبرى بقرطبة مسجدا بسيطا متواضع البناء ، وقام حنث الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحبلى التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخر للأسبان يقيمون فيه شعائرهم .

فيذكر المقرئ نقلا عن الرازي : (أنه لما افتتح المسلمون الأندلس ،
امتثلوا ما فعله أبو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر
من مشاطرة الروم بالشام ، فنكسبتهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذ
صلحا ، فشاطر المسلمون فى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكانوا
يسمونها (شنت بنجنت) (سانت فيسنت Sant Vencent) - وكانت
فى الأصل معبدا رومانيا - وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا ،
وبقى الشطر الثانى بيد النصارى الخ « (١) .
كما أقام المسلمون جامعا بالجزيرة الخضراء على انقاض كنيسة
قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جامعا فى طرطلة .
وإذا تحدثنا عن المساجد التى بناها الأمويون فى الأندلس فإننا
نستجد الكثير (٢) ونوف نقصر على ذكر أشهرها سبدا .

١ - مسجد قرطبة : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثلة
العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط . قال عنه
الحميري : إنه الجامع المشهور أمرة ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع
الديعة ، كبر الشاحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية .
ثم إن الخلفاء الروائيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتمها إثر
تتميم حتى بلغ القاية فى الإتقان . فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن
تتبعه .

(١) : نسخ الطيب : ج ١ ص ٢٥٦ ط الأزهرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢
ص ٢٢٩ . وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم
والجامع المبارك والجامع المكرم .

(٢) : يذكر أن عدد المساجد فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا
ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة ووصلت فى عهد المنصور
ابن أبى عامر إلى ١٦٠٠ مسجد فى رواية ، ٣٨٣٧ فى رواية
أخرى . (انظر : الحميري : الأروض المعطار ص ١٥٧ ،
الحميري : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ ، ويذكر ابن غالب
نقلا عن ابن حيان أن مساجد قرطبة بلغت عند انتهاء اكتمالها
١٨٣٦ مسجد ، (انظر فرحة النفس ص ٢٧) .

حسنة الوصف ، فليس في مساجد المسلمين مثله تنبيها وطولا
ومرضا « (٣) .

ولذا أصبح يضرب به المثل في العظمة والفخامة والامتداد والوخرفة .
وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفا ضافيا كالمقري وابن بشكوال وابن
الخطيب وابن عذارى وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة وفي
ذلك يقول القاضي أبو محمد بن عطية :

باربع فاقبت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها (٤)

وقد بدأ ببناء هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر
قريش) ، وذلك بعد أن ضيق المسجد القديم — الذي كان جزءا من
الكنيسة — بالمصلين بعد تكاثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس
وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانونه من زحام
ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم
أن يقوم في اعتدال وبخاصة في المؤخرة حيث كان مستوى الأرض
يرتفع كلما اتجهنا شمالا لأن أرضية الجزء القبلي من المسجد كانت
منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالي من
الكنيسة فقد كان طبيعيا أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية
وليس القبليّة حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف
مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على
حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقي من الكنيسة للمسجد ، وإعادة
بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليناسب مع عظمة وفخامة
الدولة الجديدة .

(٣) الروض المعطار في خبر الأمطار ص ١٥٣ .

(٤) المقري : فتح الطيب ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد ساوم نصارى قرطبة فى بيع نصيبهم ، وأوسع لهم ،
مرفضوا فى البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم
ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع فى هدم الكنيسة والمسجد القديم
وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد فى سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، وتم
بناؤه واكتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . ويذكر أنه أنفق
على بنائه ثمانين ألف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة ألف (٥)
وفى ذلك يقول الشاعر نحيدة بن محمد البلوى مادحا له :

وانفق فى ذات الإله ووجهه

ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها فى مسجد أسسه التقى

ومنهجه دين النبى محمد

ترى المذهب النارى فوق سهوكة

يلوح كبرق العارص المتوقد(٦)

وكان المسجد الجديد الذى بناه الداخل على قسمين : قسم
مستوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو الصحن ، وكان بيت
الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة
على اثنى عشر عقد (قوس) فى كل بلاطة ، وتقوم هذه العقود على
عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخربة (٧) .
وكان الصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

(٥) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ ، نفع الطيب : ج ٢
ص ٢٦٢ .

(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٤
والبلاط أو البلاطة : المساحة الواقعة ما بين أربعة أعمدة .

صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد -
وكان على مذهب الإمام الأوزاعي - أن يغرس في صحنه الأشجار ،
واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك في بقية مساجد
الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقي من مذهب الأوزاعي في الأندلس بعد
انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل في هذا .

وتوفي الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣ هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم
يكن له مئذنة أو سقائف لصلاة النساء . فجاء ابنه هشام من بعده فأقام
لله مئذنة من خمس فيء (أربونة) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الإذان
نحو عشرين مترا ، كما أقام في نهايته مما يلي الجوف (الصحن) سقائف
للنساء ، كما أمر ببناء مiazza في شرقه (٨) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زيدت بلاطات
المسجد من تسع إلى أحد عشر بلاطا ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨ هـ
٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين في سقيفتين ، ووصلها
بالسقائف التي كانت معدة لصلاة النساء . وبنى في مؤخرة الصحن
سقيفة أخرى ، كما زاد في سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م في بيت الصلاة فأتسع
المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعا
وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواربها ثمانين إسارية (٩) . ونقل

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذاري : البيان
المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ .

لم يقدر لهذه المئذنة أن تعيش طويلا حيث تصدعت في آخر
عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن
الناصر وأقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن أحد المهندسين الأثريين
الأسبان من الاهتمام إلى أساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار
(انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٨٧) .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح في بيت الصلاة بابين في جانبي المسجد الشرقي والغربي ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح له أربعة أبواب اثنان في الجهة الشرقية ، وآخران في الجهة الغربية .

وتوفي عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، فجاء ابنه محمد فأمر في سنة ٢٤١هـ (٨٥٥م) « بإتقان طرز الجامع وتتميق نقوشه » ، ثم أمر سنة ٢٥٠هـ بصنع مقصورة خشبية حول المحراب لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقال في ذلك موسى ابن سعيد :

لعمري لقد أبدى الإمام التواضعا

فأصبح للدنيا وللدين جامعا

بنى مسجدا لم يبن في الأرض مثله

وصلى به شكرا لذى العرش راکما

فطوبى لمن كان الأمير محمدا

له إذ دعا فيه إلى الله شافعا (١٠)

وفي عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم في صحن المسجد بيت المال على غرار بيوت المال في جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأموي بدمشق ، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف (١١) .

وفي عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ ساباطا (طريقا مغطى) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، وفتح إلى المتصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بني أمية ، وتابعه في ذلك من جاء بعده (١٢) .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٨٩ ، فنون شاك : الفن العربي في أسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هُتِيت المذنة القديمة التي
 أنشأها هشام بن عبد أن تصدعت ، وأقيم مكانها مذنة جديدة سنة ٣٤٤هـ
 (٩٥٠ م) كانت تسمى على اسمائهم مبانى قرطبة ، ويراهم القسامون
 من قبل كانها المنار على مياه البئر الهداية بالسوق . وهم يفاؤها في
 ثلاث عشرة شهرا بالحجارة المصقولة ، ويصل إلى سطحها من ينطبع المنبرين
 بعضها بعد أن كانت مبنية هتيا ذات مطلع ولحين لم يكن مطلع
 مائة وسميع درجات ، ولا يلقى الراتون فيها إلا بأعلاها ، وبلغ ارتفاعها
 ثمانين ذراعا حتى مكان المؤذن أي ضعيف ارتفاع المذنة الأولى ، ومن
 مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعا ، ونصيب بأعلاها سفود بارز
 ركبت فيه ثلاث مناجات من الذهب والفضة (١٣) وبني إلى جانب هذه
 المنارة حجرة للمؤذنين (١٤)

كما قام الناصر بتزيين واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحراء بعد
 تصدعها ، وأصلح الباب المواجه للقصر في الجانب الغربي وكان يعرف
 بباب الوزراء (باب سان إسبتيان) وأقام على الصحن ظنة لوقاية الناس
 من حر الشمس تستند على كوابيل علي نمط تلك التي تقوم عليها واجهة
 بيت الصلاة .

وقد سجل أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل في البلاط
 الأوسط ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن
 أمير المؤمنين الناصر لدين الله - أطال الله بقاءه - ببنيان هذا الوجه ،
 وإحكام إيقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن
 أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الاجر ،

(١٣) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٥ ، ابن عذاري : البيان
 المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .
 (م ١٤ - المجتمع الأندلسي)

وجزيل الذخر مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعمون الله في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب بيانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . « (١٥) .

وقد أنفق الناصر في بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به في المسجد سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم القاسية كما ذكر ابن عذارى (١٦).

أما أعظم زيادة في مسجد قرطبة فقد تمت في عهد الخليفة الحكيم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يشبع لجموعهم الفقيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي بذلك ، فطبعت الأحجار من جبال قرطبة ، وأشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها وأحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوباً على اتقى عشر عقداً ، واستمر البناء فيها أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون ديناراً (١٧) .

ويصف ابن سعيد هذه الزيادة بقوله « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حد يقصر الوصف عنه » (١٨) .

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٤ هـ أتم بناء قبة المحراب وأحاطها بقبتين جانبيتين وقبة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجاه قبة المحراب ، وهناك نقش يدور بعقد المحراب ومنه « أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر

(١٥) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ . انظر د. السيد سالم : تاريخ

ص ٣٩١ ، المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(١٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٩ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤ .

(١٨) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تميم ، وأحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب « (١٩) » .

كما شرع في تزيين المسجد بالفسيساء الذي كان ملك الروم قد بعث إليه به مع صانع يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصنائع المسلمين حتى حذقوا ذلك وتفوقوا في الصنعة . ويوجد في أعلى عقد الحراب نقش بالخط الكوفي جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بعمل هذه الفسيساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلاثمائة » (٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب الحراب سنة ٣٥٥هـ ، ونصب في قبلة الزيادة التي زادها مقصورة من الخشب منقوشة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولها خمسة وسبعون ذراعا ، وعرضها اثنان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية أذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش (٢١) .

كما أمر بصنع منبر جديد « ليس على معبور الأرض أثقن منه ، ولا مثله في حسن صنعته وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاتلى » .

(١٩) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٩٣ .

(٢١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ويذكر ابن غالب الأندلسي : أن باب هذه المقصورة كان من الذهب المضروب ، وأن عضادته كانتا من الأبنوس ، بينما كان طوله وأوصاله من الفضة (انظر نفس أندلسي جديد من فرحة الأنفس مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطفي عبد البديع) .

ويذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صناع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجاته تسع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون ألف حشوة سميت بمسامير من الذهب والفضة ورصعت بهما ، وكان هذا المنبر يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة في غرفة خلف الحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في المغرب (٢٢) .

وفي سنة ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضاة القديمة التي كانت تقع بفناء المسجد ويحيط لها الماء من بئر الساقية ، والتي أنشأها هشام ، وبني بدلا منها أربع ميضات في الجانبين الشرقي والغربي للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء جعل في جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس والأوساخ وكانت تصب في أحواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقايات من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع في الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية. لوغني ذلك يقول الشاعر محمد ابن شخيص :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف

من أعذب الماء نحو البيت تجريها

ظهر الجسم إذا زالت طهارتها

رى القلوب إذا حرت صواربها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا

في أمة أنت راعيها وحاميها (٢٣)

- (٢٢) الحبيرى : الروض المعمار ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦١ ذكر ابن عذارى أن المنبر كان من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندي وبلغت تكلفته ٣٥٧٠٥ دينار وكان تملأه في خمسة أعوام (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠) .
- (٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

وأخيراً فقد اختتم الحكم ببناء المسجد بإقامة دار للصنعة في
قريبه لتكون مكاناً لتوزيع صدقاته ، كما أقام في ساحته وحوله مكاتب
لتعليم أولاد الأيتام والمساكين وفي ذلك يقول ابن شخيص :
وساحة المسجد الأعلى مكانة مكاتب الأيتام من نواحيها

أو مكاتب سور القرآن من كالم نادتكم يا خير قائلها ورابعها (٢٤)
وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة في جامع قرطبة من حيث البناء
والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعاضداً الأجزاء ، وأهم ما فيها تلك القباب
التي تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة
وقد كان لهذه القباب أثرها في أوربا حيث أوحى للفنانين الفرنسيين
بالبقوات القوطية الشهيرة (٢٥) .

أما المحراب الجديد فيعتبر أجمل عنصر معماري في المسجد أضافه
الحكم ، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة ، فأقاموا القباب على
بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات ،
وزينوا عضادته بلوحات من الرخام فيها حفر غائر على هيئة زخارف
نباتية وتوريقات تتشعب مع الأسلوب البيزنطي .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب باباً يؤدي إلى السباط الجديد
الذي يصل بين القصر والمقصورة ، ويتصل هذا الباب بمخزن لحفظ
الأدوات والمعدات والطرسوت والحسك الخاص بإيقاد الشموع في ليلة
السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وذكر أنه كان يحفظ

-
- (٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ويذكر ابن عذاري أن عدد
المكاتب التي أنشأها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول
المسجد والباقي في الأرياض (أحياء قرطبة) .
(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ - ٣٦ ،
تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٣٩٤ .

بهذا الخزن مصحف يرفعه رجلان لنقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان الذي كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه نقط من دمه (٢٦) . وكان يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاء بديع الصنع ، وكريسي يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمسجد حتى آل الأمر إلى الموحدين في الأندلس فأخرج في ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن علي فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بني مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المريني يحمله معه في أسفاره دائما ، حتى هزم في موقعة طريف فوثع المصحف في يد البرتغاليين ، وتحاليل المسلمون في استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار أزموور سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية (٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة في مسجد قرطبة على يد المنصور ابن أبي عامر والتي امتدت طولا من أول المسجد إلى آخره . وبدأت في سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربي منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء ، والمبالغة في إحكام البنية دون الزخرفة .

(٢٦) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٨ — ١٠ . وقد شك المشرق في نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهموه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جع عليها بعضا من الصحابة » (نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .
وقد قام المنصور بنزع ملكية الأراضي والدور الواقعة فى شرق
الجامع ، وتمويض أصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عدد
سوارى المسجد بعد هذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثرياته ٢٨٠
سرية . وبلغ عدد الأئمة والمقرئين الأكفاء والمؤذنين والخدم والمؤذنين
وغيرهم ١٥٩ شخصا (٢٩) .

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عامين ونصف كان المنصور فيها
يعمل بنفسه فى أحيان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى التتارى فى
ذلك . وأصبح المسجد مؤلفا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تناسقه
وتعادل أجزائه وأصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة بعد أن
كان يقع فى محور الجامع ، وهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل
الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى ببيت الصلاة القديم ثغرات
واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى
الجدار الشرقى الجديد ثمانية أبواب فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت
الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على جوانب الصحن فيكون
عدد أبواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما
رائعا (٣٠) .

(٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢٩) ذكر ابن بشكوال : أن المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار
أن يطلب ما يشاء ثمنها لها ثم يضاعفه له ، حتى أن امرأة كان لها
دار بها نخلة ، قتالت لا تقبل عرضا إلا مثل ذلك فأمر بأن تشتري
لها دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المال . (المقرئ
نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤) .

(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير في نظام
بنائه حيث لم تضاف إليه أى إضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة
فى عصرى الرابطين والموحدين وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يد
فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم
كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى (٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات البهرية سواء فى زخارفه
المعمارية أو فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو فى وضع المذنة ،
أو فى تصميم المئذيات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعمدة على
جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى .

ولا شك أن عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين
فى بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام
عندما استعان بأحد الموالى الشاميين ويدعى (عبد الله بن سنان)
فى بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بعد غزو النورمان لها (٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير فى تطعيم حضارة
الاندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تأثيرات كبيرة فى العمارة الإسلامية والمسيحية
على حد سواء . ففى العمارة الإسلامية كان نموذجا يحتذى فى كثير من
المساجد التى أقيمت فى الأندلس بعد ذلك فى نواحي شتى مثل نظام
القباب ذات الضلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة
ويتضح ذلك جليا فى جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٨ ،

انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم :

قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود وأسلوب الزخارف كما يتضح في جامع إشبيلية الذي أنشئ في عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفني إلى بعض بلاد العالم الإسلامي كالمغرب ومصر والشام فبئذنة جامع ابن طولون تجلوا علينا عقودا من النوع الشائع في جامع قرطبة ، والقنطرة التي تصل بين الجامع تستند على عقدتين متجاورين على الطراز القرطبي وبأسفلها كوابيل من نفس نظام كوابيل مسجد قرطبة (٣٣) .

وأما عن تأثيراته في العمارة المسيحية فتتضح في إسبانيا حيث ترى واضحة في بعض الكنائس مثل كنيسة المازن بقشتالة ، وقبوة مصلي يوريس ديل ، وكنيسة سانتيا جو دي بيناليا ، وسان مرتينيو بجيقيية ، وكنيسة سان ميان ، وسان ثريان في مملكة ليون وغيرها (٣٤) .

٢ - جامع إشبيلية : وقد أنشئ في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عديس بتشييده سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠م ولذلك نسب إليه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا في متحف الآثار الأهلئ بإشبيلية بخط كوفى ونصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الأمر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عديس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن حرون » (٣٥) .

وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفى عدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ - ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة فى منتصف الجدار

(٣٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسلمين .

وآثارهم فى الإندلس ص ٣٨٩ - ٤٠٠ .

(٣٤) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠٠ هامش ٢ .

(٣٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالي تشبه نظام المآذن القرطبية التي ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٨٨ م .

وقد غرس في صحفه أشجار الفارج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة (٣٦) ،

ويصفه المستشرق الألماني (فون شاك) « بأنه جاء عملا رائعا وشهيرا ولكنه لم يكمله على ما أراد له » ، كما يذكر أن المؤرخين العرب يقصون : أن عبد الرحمن رأى في نومه عند تهادئه أنه دخله فوجد النبي عليه الصلاة والسلام ميتا ومسجى في قبلته فأنثيه مغموما وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يموت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة الجوس (النورمان) على المدينة (إشبيلية) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهم الملتهبة المحمية ، وجمعوا كثيرا من الوقود ، وكوموه في إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندما هموا بذلك ظهر من جانب المحراب ملك في صورة غلام عاثر الجمال فطردهم من المسجد (٣٧) .

ولا ندري من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففي المصادر الأندلسية التي رجعنا إليها وهي كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو الذي صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزي الذي نقل عنه ذلك ، وعلمية ظهور الملك والتصديق به شيء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامي ، وللأسف لمن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة المزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية في مواضع كثيرة .

(٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

(٣٧) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكي .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لغارة النورمان على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظام بنائه ومساحته دون أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضاق بالمصلين في عصر الموحدين فأنشئ إلى جانبه جامع القصبة الكبير بإشبيلية . وحدث في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أن هدم الجزء الأعلى من مؤذنته على أثر زلزال شديد فجددها المعتمد بن عباد في شهر واحد فقط ، كما تصدعت جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تآكلت جوائز سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧٠هـ (٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية في يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المئذنة بأضرار بالغة سنة ١٢٥٦م نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأقام الإسبان مكانها برج النواقيس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من المئذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١م ولم يتبق من المسجد في الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من المئذنة يبلغ ارتفاعه ٩ م في داخله درج حلزوني عرضه ٨٠ سم يدور حوله دعامة أسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة عن المسكن الأندلسية في هذا العصر (٣٩) .

٣ — مسجد الباب المردوم بطليطلة : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة أحمد بن حديدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن دى

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .
(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠١ .

الفنون ملك طليطلة ، وثقلوا واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة ، فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعد مسجد قرطبة نظرا لاحتفاظه بتسعة قباب قائمة على الضلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التى مرت بها قباب جامع قرطبة (٤١) . وقد شيد من الحجر الجرانيتى والأجر وفقا للأسلوب الذى اقتصرت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدود الفرس ، ويعلو كل اسطوان من هذه الأساطين قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه فى قباب قرطبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى إلى الباب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد فى أعلاها نص التأسيس السابق . ويعلو هذه العقود الثلاثة بأكفة صماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هذه البائكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شكل معينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاوزة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب

(٤٠) عرف هذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بالباب المردوم .

(٤١) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب توابل الجير والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة (٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عليها سانتا كروز ، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية من الطراز المدجن في القرن الثالث عشر الميلادي ، ووهبه الملك الفونسو الثامن لأحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة (الكريستو دي لاثو El Cristo de Lathu) (٤٣) .

٤ - **المسجد الجامع بالرية** : يعتد العالم الأثرى الإسباني (توريس بلباس) أن هذا المسجد قد شيد في عهد الحكم المستنصر بعد زيادته في جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهى بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان نسبة وهي لا تعدو المحراب وجزءا من جداره - أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات استغناء ، وأن المحراب كانت تعلوه قبة مفضصة ما زالت قائمة حتى اليوم .

وإن نظام البناء - كما يتجلى من خلال ما بقى من جدار المحراب - كان على نمط النظام القرطبي القائم على تناوب حجرين عرضا مع حجر طولا وهو ما يعرف في عصرنا باسم (أدبة شتاوي) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بواسطة زهير العامري الصقلي كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذي بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة » (٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مفروشا بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشا بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظام مساجد الأندلس .

- (٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .
 (٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٣ .
 (٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢م وسميت بكنيسة (سان خوان) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمهمات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سلمت إلى جماعة الآباء فرانسيسكان فحفظت بقاياها وبقايا الجامع . وقد عثر في أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا أنها تختلف عنها في كثرة زخارفها القائمة على التزيينات وتبدو فيها أوراق مبسوطة مقسمة على أصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بقرطبة وقصبة مالقة مما يرجح أنها من عصر المعتصم بن صامح (٤٥) .

٥ - **مسجد الزهراء** : كما أقام الخليفة عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء التي أقامها إلى جانب قرطبة مسجداً كان يعمل في بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتي نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها أكثر اتساعاً ، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع مؤذنته أربعين ذراعاً وهي شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء في غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب . بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف (الصحن) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً (٤٦) .

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) المقري : فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥ - ٣٦٢ . هذا وقد ذكر د. حسين إبراهيم : أن الذي بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه في سبعين سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث أن الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود أنه هو الذي أشرف على بنائه . (انظر تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧٣) .

العمارة المنفية القصور والدور

حظيت قرطبة منذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس بنصيب كبير من عناية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وغدت حاضرة للمسلمين فى الأندلس ، وظلت تحتل المكانة الأولى بين المدن الأندلسية حتى سقوط الخلافة الأموية (١) .

(١) قرطبة مدينة قديمة ، يرجح أنها أنشئت فى العصر الأيبيرى ويستدل على ذلك من اسمها الأيبيرى Corduba الذى عربيه المسلمون إلى قرطبة ، ومن الحفائر الأثرية التى أجريت فى نطاقها حيث عثر على تهاثيل برونزية أيبيرية . وقد ظلت تتمتع بمكانة لائقة حتى أواخر القرن السابع الميلادى حيث أخذت تفقد أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة فى العصر القوطى .

وعندما جاء الفتح الإسلامى لشبه جزيرة إيبيريا كانت قرطبة من بين المدن التى فتحتها المسلمون حيث أرسل إليها طارق بن زياد قائده مغيث الرومى فى سبعمئة فارس ففتحها بسهولة عن طريق الحيلة والمفاجأة . وأصبحت قرطبة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمى حاضرة الأندلس فى سنة ٩٩ هـ ، ونقلت إليها العاصمة من إشبيلية التى كان موسى بن نصير قد اتخذها قاعدة للحكم بعد الفتح ، وظلت عاصمة للأندلس نحو ثلاثة قرون حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ .

وتقع قرطبة على سهل مرتفع فى سفح جبل قرطبة (جبل العروس) ، الذى يعتبر جزء من سلسلة جبال سيرا مورينا ، وتشرف من جهة الجنوب على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير

يقول ابن حوقل الرحالة الشيعي في وصفها ، وقد زارها في القرن الرابع الهجري في عهد الخليفة الناصر : « وهي اعظم مدينة بالاندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى عتية في كثرة اهل ، وسعة محل ، وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » (٢) .

ويرجع الفضل في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة عصر مضطربا سادت فيه المنازعات والفتن نتيجة للعصبية القبلية بين اليمينية والمضرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ في إرساء قواعد الحكم والإدارة التي كانت سائدة في الدولة الأموية بالشرق ، وسرعان ما ارتقت بالاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مضاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما فتح الداخل الاندلس ثغرا قاصيا ، غفلا من حيلة الملك عاطلا ، أرفه أهلها بالطاعة السلطانية ، وحكمهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الاعطية ، وعقد الآوية ، وجند الأجناد ، ورفش العباد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام الملك هيئته ، وأخذ السلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا

وترفع عن سطح البحر بما يتراوح بين ١٠٠ - ١٢٣ م ، وهي تعتمد في ثروتها على الزراعة خاصة في سهلها الجنوبي الذي يعرف بالكبانية وأهم محاصيلها الكزوم والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المعادن والأحجار كالفضة والزئبق وججر الشاذنة الذي يستعمل في التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والحمري .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها « (٣) .
وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة
والنفخامة يعيد به ملك آباءه وأجداده ، فزود حاضرتة بالكثير من المنشآت
والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ،
واتخذت مظهر المدن والعواصم الكبرى فيذكر المقرئ : أنه لما تمهد ملكه
شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ،
وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد
الكور (٤) ، ثم ابنتى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا
وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الفراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام
وغيرها من الأقطار .

ويقول في موضع آخر « إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره
وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف
دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام « (٥) .
ويبدو الطابع السورى فى تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن
الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لآبائه وأجداده من معالم
الخلافة ، وما درس من آثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد
السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الأموية فى بلاد الشام .

(انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس

ص ١٥ وبعدها ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٩٣ وبعدها ، دائرة

معارف الشعب (٦١) ص ١٥ - ١٦) .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) ذكر المقرئ أن عدد مساجد قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ

٤٩٠ مسجدا (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨) .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣ .

(م ١٥ - المجتمع الأندلسى)

قصر الإمارة (الخلافة) فى قرطبة :

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤساؤهم بالقصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيث الرومى قرطبة أقام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصير أن هذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيث « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت للملك الذى أسره وسميت ببلاط مغيث » (٦) .

وتتابع ولاية الأندلس فأتوا فى قصر الإمارة بقرطبة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنائه ، ودخلت عليه الكثير من الإضافات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلافى بعد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيه من المبانى الأولية ، والآثار العجيبة — لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يبعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — البدائع الحسان ، وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصانع (الأبنية المختلفة) صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس الموه ... إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » ويضيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم ير الرامون

مثلاً في مشارق الأرض ومغاربها « (٧) .

وقد وصف المقرئ قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - في قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المون الجسيمة حتى أوصاؤها إلى القصر الكريم ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفي القصر القباب العائية النمو ، المنيفة العلو ، التي لم ير الراعون مثلاً في مشارق الأرض ومغاربها « (٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادي الكبير والربض الجنوبي من قرطبة ، وأنه قد أضيف إليه في عهد عبد الرحمن الأوسط « الذي اتخذ القصور والمتنزهات ، وجاب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة » (٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضاً (١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكيم الريفي وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس (شبيهة بالاستراحات) في هذا القصر ومنها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

(٧) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٩ .

(٩) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .

(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن مجد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ففتح فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب العدل كان يجلس فيه يوما فى الاسبوع لمباشرة احوال المتظلمين بنفسه ، كما اقام ساباطا (طريقا مسقوفا) يصل بين القصر وجامع قرطبة المواجه له ، كما ان الناصر اضاف اليه إضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى انه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها أثرا محدثا إما بتجديد أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة (١٢) بجوار المجلس الزاهر - الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٣٣٨ هـ - كما أسس الدار المعروفة باسم دار الرخام (١٣) .

ويغلب على الظن ان هذه المجالس أو القصور التى اقامها هؤلاء الامراء فى قصر قرطبة القديم كانت ابنية جديدة على اجزاء من انقاض القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها - بالاضافة إلى ما مر ذكره - المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيقي ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان (١٤) .

وكان لهذا القصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب الرئيسى فى الناحية القبلية ، وباب قورية ، وباب الصناعة فى الناحية

(١١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١١٢ .

(١٢) لعلها سميت بذلك لأنها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر والمعروفة بالروضة . (انظر ابن حيان : المقتبس ص ٣ نشر مؤثر أنطونيه) .

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو ان السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .

(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢ ، ج ٢ ص ١٥٣ .

الشمالية ، وباب الجامع فى الناحية الشرقية وكان يدخل منه الامراء يوم الجمعة . اما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها ابواب حيث كانت كلها بساطين وروضات (١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخول البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية (١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الاسبان سنة ١٢٣٦م سُمى بالقصر الاسقنى بدلا من القصر الخلافى ، ثم حوله الاسقف (دون سانشورى روخاس) فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهته الجنوبية فى اوائل القرن السابع عشر ، ثم احرق سنة ١٧٤٥م ولم يبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بها فى ذلك الركائز التى تدعمها (١٧) .

قصر الرصافة :

كان عبد الرحمن يحن إلى قصور آبائه واجداده وخاصة رصافة جده هشام (١٨) فاقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الامويين يتخذون تصورا لهم فى بادية الشام بعيدا عن العاصمة لقضاء بعض اوقاتهم فيها ومنها تصير عمرة الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب للوليد بن يزيد ، وقصر الحير الغربى الذى يقع على بعد اربعين ميلا جنوب غربى تدمر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

شمال غربى قرطبة وبنى بها قصرا للتنزه والسكنى فيه فى بعض الاوقات .
وسماها بذلك نسبة إلى رصافة جده هشام (١٩) .

يقول المقرئ « فاتخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس واکارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه سفر بن زيد مولاة إلى الشام من النوى المختارة ، والحبرب المغربية حتى ثبت بين الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعترف بفضلها على أنواعها » (٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التى غرست فى منية الرصافة (الرمان السفرى) الذى وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

=

ميلا إلى الشمال الشرقى منها وأربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار الطبرى إلى نزول هشام بها وابتنائها قصرين فيها ولعلها هذان القصران (قرطبة حاضرة الخلافة) (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٥٠٢) . وأشار السيوطى إلى أن هشام قد بنى قصر الرصافة بقنسرين ليخلو فيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨) .

(١٩) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤ ، كما أقام ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى ربضا ببلنسية سماه بالرصافة . ولعل هذه الرصافة التى أقامها عبد الله هى الولجة التى ذكرها ابن الأبار فى الحلة السيرة (انظر ج ٢ ص ١٢٧) وقد كان موضع منية الرصافة التى أنشأها الداخل بستانا يعرف باسم (رينالش) ولا زال هذا الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعد ٥ كم شمال شرق قرطبة .

(٢٠) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٤ .

أجناس ، الرمان بعذوبة الطعم ، ورقة الحجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة » .

ويذكر أن أم الأصبع أخت عبد الرحمن الداخل قد أحضرت نوعا من الرمان من رصافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وأرسلته إلى أخيها عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضه عبد الرحمن على خواصه مزهوا به ، وكان من الحاضرين سفر بن زيد الكلاعي من جند الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قرية بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لفرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب في حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأل عن مصدره ، أخبره بطريقته في استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وغرس منه في منيته وغيرها ، فأدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وغدا يعرف (بالرمان السفري) نسبة إلى سفر الكلاعي (٢١) .

كما أرسلت أم الأصبع إلى أخيها شتلات من أشجار النخل فغرسها في منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بها لأول مرة شاهد نخلة أهاجت أشجانه ، وذكرته بموطنه الذي تركه فارا منه ، فقال مرتجلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناعت بأرض القرب عن بلاد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

وطول التئالي عن بني وعن أهلي

(٢١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم في إسبانيا (السفري . Azifri) . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٨٤) .

نشأت بارض انت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنهى مثلى
سقتك غواذى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل (٢٢)

ويقول أيضا فيها :

يا نخل انت غريبة مثلى
فى المغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى مكبسة
عجماء لم تطبع على خيل ؟
لو أنها تبكى إذا لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وذهلت

بفضى بنى العباس عن اهلى (٢٣)

وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى علية بالرصافة لمشاهدة الجنان
المحيطة بالقصر الذى أنشأه بها ، وكان يحيط به سور له عدة أبواب
منها : باب الجبل الذى عرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن
الأوسط (٢٤) .

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : انه
قيل إن هذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان
قالها عند دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل
والمشهور أنها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصادر .
(٢٣) الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هذه الأبيات
لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل
أقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا (الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ —
٣٨) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : أخبار
مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن أن نستنتج مما ذكره صاحب أخبار مجموعة : أن عبد الرحمن كان يلجأ إلى هذا القصر أيضا عندما كانت تواجهه مشكلة كبيرة ، وبخاصة من الثائرين والمتبردين . ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ، وابن سليمان الأعرابي ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن أخته الذي ثار عليه . وساعده هذيل ، كما حبس في هذا القصر أيضا جماعة منهم كبحي ابن يزيد بن هشام ، وعبيد الله بن أبيان بن معاوية بن هشام وأعوانها ، ثم أمر بقتلهم فيه ، وسحب جثثهم إلى نهر قرطبة حيث صليت أمام القصر (٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الأماكن الأثيرة لدى أمراء بني أمية ، فزادوا في عمارتها ، ونزلوا بها ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع الذي استعان بالخليفة الحكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعده بذلك (٢٦) .

وقد وصف هذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار . ومن أمثلة ذلك قول قاسم بن عبود الرياحي :

أسقينا إزاء قصر الرصافة

واعتبر قليلا في مال الخلافة

وانظر الأفق كيف بدل أرضا

كى يطيل اللبيب فيه اعترافه (٢٧)

(٢٥) أخبار مجموعة ص ٢١٠ - ١١٥ .

(٢٦) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ - ١٦ .

وبعد سقوط قرطبة في يد الأسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجماعة الآباء الفرنسيين . وقد بقي منها إلى اليوم: بعض آثار جدران وقاعات ، وفي جوف هذه الأطلال باب يؤدي إلى نفق في باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هرمة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقايا أبنية قديمة يقال إنها نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن (٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضح فيه التأثيرات الشامية (السورية) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرئ : أن هذا القصر شيد « بأصفاح والعمد ، وأبدع في بنائه ، ونمقت ساحاته ، وكسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله في ساحاته وأغنيته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بني أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « ميدان مراحهم ومضمار أمراحهم » ، وقلدوا به قصور أجدادهم في المشرق (٢٩) .

وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة في عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

(٢٨) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .
(٢٩) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩٢ .

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى ولد الأشم
منظر رائع وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي
غير أشهب ومسك أحمر (٣٠)

قصر ابن الشالية :

ومن القصور التي تعود إلى العصر الأموي أيضا ، وأقيم خارج قرطبة
قصر عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيد
ابن محمود وكان كاتباً له :

قصر الأمير أبي مروان منقش
من جنة الخلد بالسراء معمر
فيه مجالس قد شيدت بلا عمد
بنيانها مرمر بالتبر مطهر (٣١)

وكان عبيد الله من كبار الثوار في عهد الأمير عبد الله بن محمد ،
واستطاع أن يسيطر على جبل شمتان وما يليه من كورة جيان ، ومد نفوذه
إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المباني الفخمة ، واتصل بعمر
ابن حفصون زعيم ثورة المولدين في بيشتر ، وصاهره بقزويج ابنته من

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)

ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق ملثور انطونية ،
دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا ج ٢ ص ٢٦٣ ، فون شاك : الفن
العربي في أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جعفر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته في عهد الخليفة:
الناصر (٣٢) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الأندلسية:
تتضح شيئاً فشيئاً ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلاً من التأثيرات:
المشرقية في الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم
السلطنة بالأندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ،
وأحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ
دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتاً للوزارة في
قصره واتخذ القصور والمتنزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة
أبهة الجلالة » (٣٣) .

وقد تشبه عبد الرحمن بجده الداخل ، بل وفائقه في بناء القصور ،
وأسرف في الإنفاق عليها ومتها : البهو والكامل والنيق ، ويصف عباس
ابن فرناس ما رآه فيها من فخامة وترف فيقول :

حنيا كاملة الأهلة ركبت

على عهد تعتد في جوهر البدر

كان من الياقوت قبيست رءوسها

على كل مسنون مقبض من السدر

تري الباسقات الناشرات فروعها

موائس فيها من مداولة الوقـر

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ترجمة
رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب
في حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢
ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠ .

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادى عراجين من تمر
نشث لؤلؤا ثم استحالت زمردا
يؤول إلى العقيان قبل جنى البسر
وهذا شاعر آخر يصف أحد هذه القصور فيقول :
ومن عهد تزهى بماء محاسن
يصوب عنه كل طرف مصعد
حكمت حمرها الياقوت والدر بيضها
ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد
يجول السنا فيها مجال الشعاع فى
صفحة سيف الصيقل المتقلد
عشيق ومعشوق وبهو زاهر
إلى كامل فى حسنه ومجدد (٣٤)

أما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى الذروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أى حاضرة أخرى فى الأندلس من قبل ، بل إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل — برغم ما عرف عنه من عداة للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » (٣٥) .

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .
(٣٥) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١)
ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرخاء والازدهار
والعمران لم تشهد حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفاً بالبناء
والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الأندلس وخراجها فى
عده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران (٣٦) . وينسب إليه
انه قال :

هم الماك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ماك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره
اضحى يدل على عظم الشأن (٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الأسوس ، وغرس
الفروس ، واتخذ المصانع والتصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو
من مصانع أجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد
أو بتزييد » (٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استفحل الملك للناصر صرف نظره إلى
تشيد القصور والمباني » (٣٩) .

(٣٦) يذكر المقرئ أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف
ألف ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن
الستوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألفا
(نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(٣٧) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، وانظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

مدينة الزهراء :

يمكن أن نقسم المدن الإسلامية في الأندلس إلى نوعين :

الأول : المدن السائقة على الفتح والتي نزل بها المسلمون مثل قرطبة وإشبيلية وغيرها .

والثاني : المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتح ، واستقروا بها وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهذه المدن تنقسم إلى قسمين أيضا :

- ١ - مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرّج ، ومدينة القلعة ، ومدينة القليعة وغيرها .
- ٢ - مدن أميرية يبنها الأمراء والخلفاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التي بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر (٤٠) .

ويهمنا في هذا المثلّام الحديث عن هذا النوع الأخير ونخص بالذكر مدينتي الزهراء والزاهرة .

أما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص أقرب إلى الأساطير حيث ذكر المؤرخون في سبب بنائها : أن الناصر قد ماتت له جارية تركت مالا كثيرا ، فأمر بأن يفتدى بذلك المال أسرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجد لديهم أسرى . فطابت منه جارية له تدعى الزهراء - وكان مغرما بها - أن يبنى لها بهذا المال مدينة ويسمها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخذ في بناء المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك (٤١) .

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٦ .

(٤١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى ان البناء إذا تعظم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وأنه احد أسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى أن يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، خاصة وأنه قد تلقب بلقب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ (٤٢) .

ويبدو ان قصة الجارية إنما هي محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون أن يجعلوا لكل تسمية أصلا ، ويحبكون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون أنه نقش صورة هذه الجارية في تمثال وضعه على باب المدينة بالفسحة في حبه لها ، وحقيقة الأمر أن هذا التمثال لا يعدو أن يكون أحد التماثيل الرومانية التي نصبت على أحد أبواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذي عرف بباب الصورة أو باب العذراء (٤٣) .

أما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

(٤٢) يذكر د. حسن إبراهيم : أن عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة فكر في بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا في ذلك بأبي جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدي حين بنى المهدية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيها بعد . وإذا كان للناصر أن يمثّل بالمنصور والمهدي ، فكيف يتأتى له أن يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ ! (انظر تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧٠) .

على جبل قرطبة التى تقع المدينة على سفحه ، وخاصة اشجار التين واللوز (٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بناء هذه المدينة فى المحرم سنة ٣٢٥ هـ ، على بعد خمسة أميال تقريبا إلى الشمال الغربى من قرطبة (٤٥) .

وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الاسكندراني بطلب الأعمدة والرخام إليها . وكان يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنائير ، وعلى كل سارية بثمانية دنائير سجلاسية كما ذكر ابن عذارى ، أو بعشرة دنائير على كل رخامة كبيرة أو صغيرة كما ذكر المقرئ ، فجلبوا لها الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفاة . وكان يورد إليها من الجير والجص ألف ومائة حمل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة ، سوى التبليط فى الأساس ، وأن عدد السوارى التى جلبت لها بلغ (٤٣١٣) سارية ، جلب منها (١٠١٣) سارية من إفريقية ، وأهدى ملك الروم للناصر (١٤٠) سارية ، والباقى من رخام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر أنه كان يعمل فيها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البنائى الحكم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنائها بقية عهد الناصر وعهد

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .

(٤٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤٥) ذكر المقرئ أن المسافة بين الزهراء وقرطبة أربعة أميال وثلاث . وطولها من الشرق إلى الغرب (٢٧٠٠) ذراع ، وعرضها (١٥٠٠) ذراع ، وعدد سوارىها (٤٣٠٠) سارية ، وأبوابها تزيد على ١٥ ألف باب (نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(م ١٦ - المجتمع الأندلسى)

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥ هـ أى نحو أربعين سنة (٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس (جبل قرطبة) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسى لها حيث قال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثالث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، و سطح الثالث الأوسط ، يوازى الثالث الأسفل ، ولكل ثالث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للبساتين والروضات ، والجزء الثالث للديار والجوامع » (٤٧) .

وقد جاب الناصر من القسطنطينية حوضا من الرخام منقوشا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصبه فى بيت المنام بالقصر الشرقى بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة (٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينة القصر الخلافى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقد ذكر أنه اتخذ فيه قبة قراميدها من الذهب والفضة أنفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، إذا سطعت عليه أشعة الشمس أحدثت نورا وبرقا يخطف الأبصار ، ويأخذ بهجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أوما إلى أحد الصقالية ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لعان

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٤٧) صفة المغرب والاندلس (من كتاب نزهة المشتاق) ص ٢١٢ .

(٤٨) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ، ابن عذارى : البيان

المغرب ج ٥ ص ٢٣١ .

كالبرق . وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس أينما دارت ،
وهذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان في كل جانب من جوانب هذا القصر ثمانية أبواب قد انعقدت
على حنايا قائمة على أعمدة من الرخام الملون والبثور الصافي ، وقد رصعت
هذه الحنايا بالذهب وأصناف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصاف
التي تحمل في طياتها كثيرا من المبالغة (٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سماه (دار الروضة) .
كما أخذ في بناء المنزهات ، فأتخذ مئمة الناعورة خارج القصور ،
وساق إلى هذه القصور والمئيمات المساء من أعلى الجبل على مسافة
بعيدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر في مدينة الزاهرة فيقول :
« وأنشأ في مدينة الزاهرة من المباني والقصور والبساتين ما عفا على
مباني من سبقه ، وأخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة السياج ،

(٤٩) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهي : أن الناصر
لما بنى هذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم
ملكا فعل مثل هذا ، أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين »
وبينما هو كذلك في غبطة وسرور دخل عليه القاضي منذر بن سعيد
البلوطي فقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان
يبلغ منك هذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال :
ليس الله يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن آيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، وآيوتهم
أبوابا وسرا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لآسا مقام الحياة
الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

فوجم الناصر وأطرق مليا ثم بكى ، ودعا للقاضي بخير ،
وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هذه القبة ، وجعل قواميدها
من التراب (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠) .

ومسارح للطيسور مظاللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بها أيضا دورا
لصناعة الآلات من السلاح والخطى وغير ذلك (٥٠) .

وكانت هناك بحيرة بالقصر تربي فيها الحيتان ، وكان طعمها فى
كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثنى عشر ألف خبزة ، وينتفع لها من الحمص .
الأسود ستة أقفزة فى كل يوم (٥١) .

قصر منية الناعورة :

كما أنشأ الناصر فى منية الناعورة (٥٢) غربى قرطبة قصرا له نسب .

(٥٠) العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان
يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرات ١٨ ألف خبزة ويعلق على ذلك
قائلا « وهذا من أعظم الأشياء » (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١) .
(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة (الساقية) التى كانت ترفع المياه .

إلى بساتينها (قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٠٣) ، وكانت
منية الناعورة فى بداية الأمر أرضا تقع على شاطئ نهر قرطبة
بجوار مصلى فحس المصارة العتيق ، اشتراها الأمير عبد الله
أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بما حولها من المزارع من
رجل يسمى خليل البيطار سنة ٢٥٣هـ « فأنشأها منية عجيبة ،
واسعة الخطة ، أرادها للفرجة ، وأوسع خطتها ، وأكثر
غراساتها ، واقتصد مع ذلك فى الانفاق عليها » وكانت بساتينها
تسقى من نهر قرطبة بواسطة الناعورة ولذلك سميت بها ثم انتقلت
ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فأقام بها هذا القصر ، وأجرى
له المساء المصذب من جبل قرطبة فى جسر أو قناة على حنايا
معقودة استغرق بناؤها أربعة عشر شهرا ، وكان اثرا لديه
يقصده للراحة والنزهة ، وخاصة بعد عودته من الغزوات ،

إليها في سنة ٣٢٩هـ « وأجرى له الماء العذب من جبل قرطبة في قناة
يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد
عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز الماء إلى عجزه فيبجه بفمه في تلك
البركة فيسقى جنان القصر على سعتها » كما ذكر المقرئ (٥٣) .

وقد ذكر ابن عذارى : أن عدد الدور التي كانت تضمها مدينة الزهراء
١١٣ ألف دار للرعية ، بخلاف دور الوزراء والكبراء . وهذا دليل على
انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعد أن اتخذها الناصر
مقرا جديدا للخلافة . هذا بخلاف عدد دور القصر الخلفي وتبلغ
أربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته وأهل بيته ، وذكر أن عدد الفتيان
الصقالبة في القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخدم
بلغ ٦٣٠٠ امرأة ، وأنه كان يصرف لهم من اللحم في كل يوم ١٣ ألف رطل.
سوى الطيور والأسماك (٥٤) .

وقد بالغ المؤرخون والرحالة في وصف قصور الزهراء ، وما احتوته
من مظاهر الثراء والترف بأوصاف لا يصدقها العقل في كثير من
الأحيان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية التي أجريت في موضع هذه.

وفيهِ نزل الملك أردون الرابع ملك قشتالة لما قدم يستنجد
بالمستنصر لرده إلى عرشه سنة ٣٥١هـ (انظر : المقتبس ص ٢٨
تحقيق ملثور انطونيه ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، نفح الطيب
ج ١ ص ٢٦٤) .

(٥٤). البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ هذا بينما يذكر المقرئ أن عدد
الفتيان الصقالبة بالزهراء ١٣٧٥٠ ، وعدد النساء ٦٣١٤ ،
وقيل عدد الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ (انظر
نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥) .

المدينة قد أثبتت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير (٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بها ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بها دارا ، أو يتخذ بها مسكنا فله أربعائة درهم معونة « فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها الرعيعة » (٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالسكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كادت الأبنية تتصل بينهما . وتوفى الناصر قبل أن يتم بناء المدينة بأكملها ، فأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعم بالحياة والازدهار طويلا ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨ هـ لمنافسة الزهراء فسلب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونقل منها الدواوين ، وبيت المال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن - وقد نديها الكثير من الشعراء ومنهم السمسيس الألبيرى الذى يقول :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب اثنتان

(٥٥) انظر عن هذه الحفائر : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ملحق

رقم ٣ ص ٢٠٨ وبعدها ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة

ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ - ٤١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٧ ، المقرئ : نفح الطيب ج ٢

ص ١١٢ .

فقات يا زهرا الا فارجمي قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم ازل ابكى وابكى بها هيهات يغنى الدمع هيهاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها يوما ووقف على أطلالها فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا

اين سكانك المراز علينا

فاجابت هنا اقاهوا قليلا

ثم ساروا ولست اعلم ايننا (٥٧)

مدينة الزاهرة :

بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليد
الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عامر
الملقب بالمنصور الحجابة له ، وأخذ نفوذه فى الازدياد ، وسيطر على
مقاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعد أن تخلص
من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفوذ وسلطان فأقام على نهر
الوادى الكبير بالقرب من قرطبة قصرا له كان نواة لمنيته التى سميت
بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينة الزهراء التى بدأها الناصر وأكملها
المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استفحل أمره ، واتقد
جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما سميت إليه الملوك من اختراع
قصر ينزل فيه ، ويحل به أهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم
به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه قتياله وغلباته » .

(٥٧) المثرى : نفع الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم

ص ٤١٠ .

كما يذكر المقرئ أيضا أنه « بنى على طريق المباحاة والمخامة مدينة العامرية ذات القصور والمتنزهات المخترة كمنية السرور وغيرها من مخترعاته العجيبة » (٥٨) .

وهناك عامل آخر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو خشيته على نفسه من دخول قصر الخليفة هشام بعد أن حجر عليه ، واستبد بالأمر من دونه ، وكثر حساده ومنافسوه وخصومه (٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بناء هذه المدينة سنة ٣٦٨ هـ ، فحشد لها العمال والفعلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبدأ العمال فى تسوية أرضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ، فامتدت رقعتها امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عالية ، وفتح فيه عدة أبواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سنة ٣٧٠ هـ ، وامتعه ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الأهرام (مخازن الغلال) ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجاليات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها ، والطول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

(٥٨) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٥٨ .

بأرياض قرطبة « (٦٠) .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء مكانتها ، فقد أخذ الكثيرون من أهلها في الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بها ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليا على نحو ما كان معمولاً به في الزهراء وقرطبة ، كما أقام بها مسجدا جامعاً لتكتمل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتها ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة في الزهراء . فقد كانت تصل إليها الضرائب والجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، وغدت مركزاً للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكاناً لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيها المنصور سنة ٣٨٢هـ شانجة (سانشو) ملك بنبلونة — الذي أهدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منه عبد الرحمن المعروف بشنجل — استقبالا حافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضا الخليفة هشام المؤيد فيها سنة ٣٩٨هـ بعد أن أعاد له نزهة فيها (٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء وأقيمت فيها المنيات والمتنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

(٦٠) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٠ ، المقرئ : نفح الطيب

ج ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : امهال الاعلام

ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر ناصح ، وقصر الزاهى الذى كسيت جدراناه بالمرمر ،
وأجريت فيه المياه والغدران التى تحف بها الأشجار والأزهار ، وقصر
الحاجبية الذى أقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور (٦٢) .

ومن منياتها : منية السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين
روضة وغدير (٦٣) وذات الواديين ، ومنية أرطانية ومنية
اللؤلؤة (٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور (٦٥) التى كان يقضى
بها الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بها الكثير من الشعراء ،
بسبب سحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحباب الشاعر ، الذى دخل على
المنصور فى منيته « والروض قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجاده
واغواره ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بها السعد خاضعا » .
ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منهما دون الثالثة
فقال :

(٦٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٢ .

(٦٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٦٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .

(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جانب مدينة الزهراء وحاطها
بالرياض والجنان وأجرى فيها قناة تنساب مئوية كالثعبان بين
بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتقع آثارها اليوم على
بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة (انظر
البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٥ ، قرطبة
حاضرة الخلافة ص ٢١٣) .

لا يوم كالיום فى ايامنا الاول
بالعامرية ذات الماء والظل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل
طيبا وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها
بالسعد الا تدل الشمس فى الدول
كانما غرست فى ساعة وبدا السموسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من السموسان مائلة
أعناقهم من الإعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح
والبعض مغلق عنهن فى شغل
كانها راحة ضمت أناملها
من بعد ما ملئت من جودك الخضل
واختها بسطت منها أناملها
ترجو نذاك كما عودتها فصل(٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بها
وعنده صاعدا البغدادى فقال منشدا :

فالعامرية تزهى على جميع المباني

وانت فيها كسيف قد حل فى غمدان(٦٧)

فقام صاعد وكان منافسا له فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ،
ومكن سلطانه . هذا الشعر الذى قاله قد أعده وروى فيه ، أقدر

(٦٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان اقول احسن منه ارتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دء- والك
فقال :

يا ايها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخر كل يمان
العامرية اضححت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين اهل الزمان

ثم قال فى وصفها :

انظر إلى النهر ينساب كالثعبان
والقضب تلتف سكرا على ذرا الأغصان
والطير يخطب شكرا بهيس القضببان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والفرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الرياحان
فدم الدهر فيها فى غبطة وأمان (٦٨)

وفى منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد البغدادى اللغوى :

اما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجرى على احفافها الطربا
اجريتها فطما الزاهى بجريتها
كما طموت فسدت العرب والعجا
تخال فيه جنود الماء رافلة
مستلزمات تريك الدرع والقلبا

تحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضة إذ أورقت ذهباً
بديعة الملك ما ينفك ناظرها
يتلو على السمع منها آية عجباً
لا يحسن الدهر أن ينشئ لها مثلاً
ولو تعنت فيها نفسه طاملاً (٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقد وصف الوزير
الجزيري مجلساً للمنصور فيها فقال :

وتوسطتها لجة فى قصرها
بنت السلاحف ما تزال تنفق
تنساب من فكى هزبر إن يكن
ثبت الجنان فإن فاه أخرج
صاغوه من ند وخلق صفحتى
هادية محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع فى عرشه
مثل الملك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج
وجنى خيبرى وورد يعبى
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
زهر الربيع فهن حسنا تشرق

كما أنشد الشاعر الجزيري على لسان النرجس فيها مخاطبا
المنصور :

حيثك يا قمر العلاء والمجالس
أزكى تحيتها عيون النرجس
زهرا تريك بحسنها وبلونها
زهرا النجوم الجارية الكنى (٧٠)

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حياة
الزاهرة لم تبلغ نصف هذه المدة ، حيث ثار العاصمة على عبد الرحمن
شنجول سنة ٣٩٩ هـ وهاجموها ونهبوها وهدموا مبانيها ومحووا رسومها ،
فخربت وتلاشى أمرها وصارت كأمس الدابر ، وكانت كارتتها أعظم من
الزهراء ، حيث أن موجة التخريب ضدها كانت أشد وأعتى نكابة في
العالمين .

ونذكر أن بعض ما نهب منها بيع في العراق وغيرها من بلاد المشرق .
ويروى ابن عذاري : أن العاصمة نهبوا ما كان فيها من الأموال
والسلاح والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب
الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي بهدمها ، وقلع أبوابها ،
وتحطيم أسوارها ، وتشيعت قصورها ، وأضرمت النيران فيها حتى طمست
معالمها ، وأعاد العاصمة إلى قرطبة (٧١) .

(٧٠) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٧١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٤ ، وقد وجد في بهو
الجنس بقصر إشبيلية - الذي بنى في عهد بني عباد (ملوك
إشبيلية ، وأضيف إليه في عصر الموحدين - أعمدة تيجانها متخذة
من أطلال الزاهرة والزهراء . (دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٢٨) .

ويبدو أن المنصور قد كان يتوقع خراب الزاهرة وضياع معالمها فقد ذكر ابن حزم : أنه كان مع المنصور وجماعة في نزهة بالزورق في نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « وبها لك زاهرة الحسن لقد حسن مراك ، وعبق ثراك ، وراق منظررك ، وفاق مخزرك ، وطاب تريك ، وعذب شريك . فليت شعري من المريد الذى يعمدك ، ويوهن ركك ويهدمك ، ويخلى ميدانك ، وبضوى تصبتك وأفنائك . فبؤسا له إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . ألا تسببه بهجة منظررك فكيف من محو اثررك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظمتنا ذلك وأنكرنا ما صدر عنه وظننا أن الراح قد غابت عليه ، وخيلت ذلك إليه فقال : « والله كأنكم لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا في اقرب مدة فيهدم هذا كله ويعدمه ، وكأني بجارتها في هذا النهر » (٧٢) . وقد حدث ما كل يحس به المنصور بعد أن فرط في حق الكثيرين ووصل إلى النفوذ والسلطان بكل حيلة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سعيد : أنه كان في بلنسية كثير من المنزهات والمسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر ، تحيط بها الجنان والانهار من كل جانب (٧٣) .

كما كانت هناك منيات أخرى أقيمت بها بالطبع مجالس أو قصور للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

منية نصر الفتى في الربض : وكان مولى للأمير عبد الرحمن الأوسط ، ومن أكبر المفتيان الخصيان في بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام ببناء الزيادة التى زادها في جامع قرطبة (٧٤) . وقد اتخذ نصر هذه المنية

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٣) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٤) المقتبس ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى مدوة الرىض التى تشرف على نهـر الوادى الكـبير بجـوار مقبرة الرىض (٧٥) . وكان موضعها بيتا للرحا فى أيام أبى الخطار الكلـبى فى عصر الـولة . ويبدو أنه أقيم مكانها فندق « كان متقبله من أهل الإضرار والفسق » (٧٦) فأمر عبد الرحمن بهدمه بعد مبايعته بالإمارة سنة ٢٠٦ هـ .

ويظهر أن الأمير قد أقطع فتاه — وكان أثيرا لديه — هذه الأرض فأقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦ هـ على يد الأمير نظرا لتآمره عليه مع جاريته عجب (٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى المشهور ، ثم آلت بعده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن « فشىد بنيانها وأتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة السالفة الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحكم ولى عهده ، وفيها نزل سفراء الإمبراطور البينى قنسطنطين السابع فى صفر سنة ٣٣٨ هـ عند قدومهم إلى قرطبة (٧٨) .

منية عجب : كما أقامت عجب جارية الحكم الرىضى منية لها فى الرىض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير — وهو الطريق المرصوف بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع ما بين الضفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليه الباب القبلى للقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقامة على النهر . وكانت هذه المنية تشتمل على عدة مساكن موقوفة على المرضى (٧٩) .

(٧٥) المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملثور انطونيه .

(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .

(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٩ .

(٧٨) المقتبس ص ٣٨ تحقيق انطونية .

(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

قصر الفارسي : وكان من القصور المتصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بنى أمية التي شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستنكى . وفيه يقول أحد الشعراء :

ويحتاج قصر الفارس صبابة

لقايل لا يالو زفاد الأسى قدحا (٨٠)

منية ابن أبي الحكم بن القرشية : وكانت تقع على نهر قرطبة الأعظم (نهر الوادي الكبير) بمنطقة تعرف باسم (الشابات) (٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بها عمارات مسورات ، وقد نزل بها أبناء على بن الأندلسي صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عند قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠ هـ في عهد الحكم المستنصر بمبالغة من الحكم في إكرامها بعد خروجها على المهدي الفاطمي .

منية ابن عبد العزيز : وكانت تقع في الصحراء الممتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعد مروره على السدة والمصاراة ومسجد الحاجب ابن أبي عبدة - الذي أنشئ في عهد عبد الرحمن الأوسط - ثم ربح مسجد الشفاء ، وربض حمام الإلبيري أو النبدى (٨٢) . وقد نزل فيها يحيى بن على المعروف بابن الأندلسي وأخوه جعفر في ٢٧ ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ .

منية جعفر المصنفى : أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصنفى في خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذارى أنها كانت في منطقة تسمى

(٨٠) فتح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٨١) المقتبس : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .

(٨٢) نفسه ص ٤٦ .

(م ١٧ - المجتمع الأندلسي)

الشى غربى قرطبة . وذكر ان السبب فى بنائها : ان الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن أبى عامر ، وكان لشدة نظره فى الحدثان متيقنا من انه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة فى موضع يسمى الشى (بفتح اللام) فأمر حاجبه بالمسارعة إليها والشروع فى البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها أن هناك موضعا آخر يقع فى شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى أبو بدر . وقد كان هذا الموقع فعلا هو الذى اختاره المنصور ابن أبى عامر لبناء مدينة الزاهرة التى جعلها مقرا له (٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحفى إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

قف بالمصحفية وانذب مقلة أصبحت بلا إنسان

واسألها عن جعفر وسطاه ونداه فى سالف الأزمان (٨٤)

* * *

(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٨٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

الدور

وإذا كانت قصور الأمراء والخلفاء والوزراء قد كثرت في الأندلس في العصر الأموي ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا (١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة في البناء والعمارة والزخرفة والتأثير كل على قدر إمكاناته .

وليس من السهل تحديد مواقع دور الخاصة في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصادر بالكثير في هذا الصدد فيما عدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينها أفاضت في وصف القصور . ويمكن تقسيم الدور في الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعة للدولة ، ودور خاصة بالناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

دار الوزراء : ويبدو أنها أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر » وذلك للتشاور معهم في أمور الدولة (٢) وعلى هذا فإن هذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنها كانت من ملحقاته . وقد ذكرها ابن القوطية وابن حيان (٣) .

(١) ذكر المقرئ : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصل في عهد المنصور ابن أبي عامر في قرطبة وحدها (٦٠٣٠٠ ر) دار ، وأن عدد دور العمارة فيها وصل إلى (٢١٣٠٧٧ ر) دار ، سوى الدور التي أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليه في العصر الحاضر مساكن الإيجار (نفع الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ انفتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

دار القومة : ويبدو أنها أنشئت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التى أضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هذا المسجد ، وكانت تقع بداخله فى الجهة الشمالية . ويذكر أنها تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودمر سقفها ، وأدى إلى تشعبتها » فى ليلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ (٤) .

دار الرهائن : وكانت تجاور باب القنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل فى أمرهم ، فقد حبس فيها صالح وعلى ابننا رافع صاحب حصن (حجة) ونفر من بنى عمها (٥) .

دار الصدقة : وقد أنشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة التى أضافها للمسجد وكانت مزودة بعقبة وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات (٦) .

بيت العمال : وكانت دويرة من ملحقات القصر الخلافى ، اتخذت فى الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القديم فى عهد الإمارة (٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحكومية مثل :

دار الصناعة : وكانت تقع بجوار مسجد أبى عثمان بقرطبة (وهو عبيد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخول عبد الرحمن

(٤) المقتبس ص ١٠٤ تحقيق الحجى .

(٥) نفسه ص ١٧٦ .

(٦) نفسه ص ١٩ .

(٧) المقتبس ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

إلى الأندلس) ، وكان هذا المسجد يقع شمال القصر الخلفي حيث كان هناك باب للقصر يعرف (بباب الصناعة) لأنه كان يشرف عليها . ويظهر أن هذه الدار أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩ هـ ، وكانت تصنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتضرت منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحلى والمثاقيل فيها يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التي أنشئت لبناء السفن في سواحل الأندلس ، وفيها تمت صناعة الاثنى عشر تمثالا من البرونز المصع بالدر النفيس والتي وضعت في مجلس المؤنس بمدينة الزهراء (٨) .

دار الطراز والبرد : ويذكر أنها أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فهو الذي أحدثها واستنبت عملها كما ذكر ابن عذاري ، وإن كان ابن حيان يذكر أنها من بناء عبد الرحمن الداخل (٩) . ويبدو أن الداخل هو الذي أنشأها واختصت بصناعة البرود الأميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذي كان حديث الرقاق وطرفة أهل الآفاق » (١٠) .

ومعنى هذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولاهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البردية التي أقامها الداخل . وفي عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخلع والكسوات وملابس الحرير وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معقلا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقتبس من ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(١٠) أعمال الأعلام ص ٢ .

وينافسون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب « (١١) . وقد اشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة في زمن الناصر في صناعة الجيد من الثياب والكسوة من الكتان والخز والقز (١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : أن هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ . في عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة في غرب قرطبة ، وأما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من الحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبزازين مكانها (١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاها في عهد الأمير عبد الله زيان . الفتى ، وفي زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفي زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامي (١٤) .

دار المسكة : وكان أول من أنشأها في قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار مسكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التي كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستمين فلسا بدرهم ، وفي سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للمسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التي كانت تقع بجوار

(١١) أعلام الأعلام ص ٤٠ .

(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .

(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .

(١٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ وأغلب الظن أنها كانت تقع بجوار قصر الإمارة في قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . (انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠) .

باب العطارين خارج قرطبة (١٥) لضرب الدنانير والدراهم الأندلسية ،
وولى خطتها أحمد بن موسى بن حدير ، ثم نقلها بعد ذلك إلى مدينة
الزهراء التي أسسها (١٦) .

أما دور الخاصة فكان من أشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن
وكانت قريبة من باب القنطرة .

ودار القاضي منذر بن سعيد البلوطي : وكانت تقع بجوار مسجد
السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربي من قرطبة .
ودار بقى بن مخلد : وكانت تقع بظاهر المدينة في محص الطرف على
سارح المبطنة الممتد من باب عبد الجبار .

ودار الأمير عبد الله بن محمد : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربي ،
ولها عليّة تشرف على الطريق .

ودار الفقيه المشاور أبي إبراهيم : وكانت تقوم بجوار مسجد
أبي عثمان تجاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية .
ودار محمد بن سعيد الأموي : وكانت تقع ببنية عبد الله بالناحية
الشرقية من قرطبة .

ودار ريان الوصيف : وكانت تقع بجوار منار الجامع بقرطبة .
وغيرها (١٧) .

وقد كانت الدور في الأندلس بصفة عامة تقوم حول فراغ مركزي
هو الصحن الذي تتوزع حوله الغرف ، وتتألف من جزئين أساسيين :
الواجهة الخارجية ، وداخل البيت . وبينما كانت الواجهة الخارجية بسيطة

(١٥) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دي غويه ، ليدن
سنة ١٨٥٥ م .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الزخارف .
الرائعة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الأندلسية كانت تتركز فى داخل
الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتألق الناس
فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجاج المنقش ، المعروف
فى الشرق بالفسيفساء ، وكان يعرف عندهم (بالزليجى) ، وهو ذو ألوان
عجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام الملون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقاعات فى فصل الصيف .
هذا بالإضافة إلى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعة
من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عادة ما يفضى
إلى ردهة تؤدي إلى البهو ، أما فى دور العامة فكان يفصل بهم منكر
على شكل زاوية قائمة حتى لا يرى المسافر من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الأندلسية تجد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى
تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مدن
الأندلس كانت تحتوى على عليات أو غرف علوية ، أو مصارى (جمع
مصرية) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان
الخشب المتقاطعة وتسمى (بالشراحيب) . وهى لا تختلف كثيرا عن
المشربيات فى المنازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الأندلسية التمتع
بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحد .

وكان صحن البيت أو فناءه عنصرا هاما باعتباره المكان الذى تقضى
فيه المرأة معظم وقتها ، ومنه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف
الدار ، ولذلك فقد اهتموا بتزيينه ، وطرشه بالحجر أو الرخام أو غير
ذلك ، وغرسه بالأشجار كالبرتقال والليمون ، ومده بالمياه الجارية .

بما يزيده روعة وجمالا ، ويخفف فى نفس الوقت من حرارة الشمس (١٨) .
ولقد وصف ابن سعيد المغربى دور الأندلس بأنها « فى غاية الجمال
لمبالغة أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تثبو العيون عنها » وأضاف
مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إننى تعجبت لما دخلت الديار المصرية
من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق
أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن فى بنائها ،
واستخدام الطين فى تجصيصها ، وهو ما كان سائدا فى الريف المصرى
إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى فى رسالته
على المبانى الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ،
واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ،
والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » (١٩) .



(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

مجالس الموسيقى والغناء

ازدهر فن الغناء والموسيقى في الأندلس ، وساعد على هذا
الازدهار عدة عوامل نستطيع ان نجملها فيما يأتى :

١ - طبيعة بلاد الأندلس الجميلة التى تدعو إلى البهجة والسرور
واللهو والطرب .

٢ - ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغناء ، وميل
يبدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العاج الأندلسية التى عثر
عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيها بعض
الأشخاص بالآلات موسيقية .

٣ - ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغناء والموسيقى ، وإجزالهم
المعطاء لأهلها . كما يتجلى من خلال الروايات التاريخية ، ومن خلال
بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التى عثر عليها ، ومنها علب
العاج الأندلسية (١) .

٤ - قدوم كثير من مشاهير المغنين والمغنيات من المشرق إلى

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق :
الأدب العربى في الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى
ص ٨٦ - ٨٧ . ويروى أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط
كان شاعرا مقلدا عالما بالغناء (الحلة السيرة ج ١ ص ١٢٨) ،
وكذلك اثنان من إخوته أيضا (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب
الأندلسى ص ٣٩) . كما يروى أن أبا الأصبغ عبد العزيز
ابن عبد الرحمن الناصر كان مغرما بالغناء ، محبا للشراب ،
ولما أُنقِطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء
أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تتسرك

الاندلس - وخاصة من الحجاز والعراق اللذين انتشر بهما الغناء - وعلى رأسهم زرياب .

ه - اختراع الموشحات والأزجال في الأندلس ، واستجابة الكثير من الأندلسيين لها ، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما في أنفسهم ، وأسهل في التلحين والغناء ، وأنسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون بفنائهم (٢) .

الطيور تغريدها . (دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هامش ١) .
ومما يدل على أن الغناء والموسيقى قد أصبحا جزءا من كيان معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره أبو بكر الطرطوشي (٥٠٢ هـ) من أنهم في أوساطهم الشعبية كانوا يقرأون القرآن بالألحان والرقص بالأرجل ، والتصفيق بالأيدي ، وهي عادات اخترعوها على حد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من ألحانهم في القرآن اسما مخترعا ، فقالوا : اللحن الصقلي ، فإذا قرأوا قوله تعالى (وإذا قيل إن وعد الله حق) يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على نغمات متوازنة ، ومن ذلك الرهب (الرهبان) أن نظروا إلى كل موضع فيه ذكر المسيح تثلثوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة في الكنائس » . (الحوادث والبدع ص ٧٧ - ٧٨ تحقيق محمد الطالبي) . ولا نعتقد أن ذلك قد حدث إلا في عصر ملوك الطوائف الذي وصل فيه الترف واللهو والتمزق إلى درجة كبيرة ، فانتصرف الكثيرون إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون في قول الطرطوشي بعض المبالغة حيث نظر إلى تفاصيل البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هذه النظرة ، كما هو حادث في بعض سرادقات العزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن إبراهيم :

تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥ .

٦ - قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤ هـ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار (٣) « قد حنق الموسيقى ، وعانى ضرب العود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالآندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى » (٤) ، وكذلك يحيى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب (الأغاني الأندلسية) على غرار كتاب الأغاني للأصفهاني (٥) .

ويذكر التيفاشى (ت ٦٥١ هـ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غنائهم إما بطريقة النصارى - يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى أسبانيا قبل الفتح - أو بطريقة حداة العرب (فن الحداة)

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلا يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى (مونت أجودو) فطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظرا لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذبلا لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كلات بالنجاح صنعه آلة عرفت (بالميتانة) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

(انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣) .

(٤) ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذى كان من الطبيعى أن ينتقل مع العرب الفاتحين . كما انتقل الغناء
الحجازى والعراقى أيضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنين
ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة
الأموية ، وكانت مدة الحكم الرضى ، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية
من يحسن غناء التلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام
المقدم فى هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلى
على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تعهده الأسماع واتخذت
طريقته مسلكا ونسى غيرها » (٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل قينة تسمى
العجفاء (٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من
الأمير وضعا إليها (٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأمويين للغناء
منذ بداية عهدهم فى الأندلس بالرغم مما صالدهم من صعوبات فى سبيل
تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .
ويبدو أن (علون وزرقون) كانا أول مغنين دخلا الأندلس من
المشرق ، وكان ذلك فى عصر الحكم الرضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ (حضارة الأندلس) .
(٧) لم تذكر لنا المصادر اسمها ، ويبدو أنها اشتهرت بذلك اللقب لأنها
كانت نحيلة ، وكانت تسكن مع مولاها فى بيت صغير متواضع
مساحته اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وليس به الكثير من الفرش
والاثاث سوى نمرقتين ومقعدين مفككين من قديمها كما يذكر المقرئ
عن رواية الأرقمى (نصح الطيب ج ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى
الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦) .

(٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

وصفه الكثيرون بالميل إلى الترف واللهو وخاصة في مرحلة شبابه
برغم قضاائه على الكثير من الثورات التي قامت ضده وأشهرها ثورة
الزبرص . كما اشتهر بالغناء في عصره رجل يسمى (منصور اليهودي) .
ولكن غناء هؤلاء ذهب لغلبة غناء زرياب عليهم بعد قدومه إلى
الاندلس (٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ - ٢٢٨هـ)
عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالاندلس ، حيث كان أديبا شاعرا
بعيد الهمة والغايات كما وصف . ويعتبر أول من اتخذ رسوم الخلافة
وابتهتها . وكان كما ذكره المقرئ « مولما بالغناء مؤثرا له على جميع
لذاته » (١٠) . ولذلك فقد رُفد إلى الاندلس في عهده بعض القيان
المغنيات من المدينة ، فأفرد لهن دارا ملحقة بقصره سميت (دار
المدنيات) (١١) .

ومن أشهر هؤلاء القينات (فضل المدينة) التي كانت جارية لإحدى
بنات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعلم الغناء ،
فاشتريت للأمير عبد الرحمن ومعها جارية أخرى تسمى (علم) ، وكان
يؤثرهما لظرفهما وأدبهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية أخرى
تسمى (قلم) ، وكانت في الأصل من سبى البشكنس ، ثم أرسلت إلى

(٩) نفح الطيب ج ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .
(١٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. أحمد هيكل (في تاريخ
الأدب الاندلسي ص ٧٣) أن الذي فعل ذلك هو عبد الرحمن
الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان
الأوسط .

المشرق ، فتعلمت الأدب والغناء ، وروت الشعر ، وحفظت الكثير من الأخبار (١٢) .

كما كان من القيان الوافدات من المشرق أيضا غير هؤلاء جارية بغدادية ذات فصاحة وبيان ومعرفة بالألحان تسمى (قمر) ويصفها المقرئ بأنها « جمعت أدبا وطرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها » (١٣) .

وقد كانت جارية لإبراهيم بن الحجاج اللخمي (ت ٢٨٨ هـ) الذي ثار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها في مدح إبراهيم :

ما في المغارب من كريم يرتجى
إلا حليف الجود إبراهيم
إني حلت عليه منزل نعمة
كل المنازل ما عداه سقيم
ومن شعرها في الحنين إلى موطنها :
أها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من أخلاقها

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسي ص ٤٤ ، دائرة معارف

الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

نفسى الفداء لها فإى محاسن

فى الدهر تشرق من سنا إشراقها (١٤)

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى (انس
القلوب) شغف بها وزيره أبو المغيرة بن حزم (١٥) .

كما كان من المغنيين الذين قدموا إلى الأندلس أيضا مغن من مصر
يدعى عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني الذى قدم حدثا متظرفا يشدو
بشئ من الغناء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى نجابته
تصحح بالإقلاع عن الغناء ، والاكتفاء بأدبه وفضله ، ففعل واتصل
بالمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه وصيره واليا ، ثم ترقى بعد ذلك
إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ عن نيف وثمانين سنة (١٦) .
على أن أهم وأشهر مغن دخل الأندلس هو أبو الحسن على بن نافع
الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى
عصر الرشيد .

ويذكر أن الرشيد طلب من اسحاق أن يأتيه بمغن مجيد للصنعة
تجاءه بزرياب ومعه عوده الخاص بدلا من عود أستاذه ، ولما سألته
عن السبب قال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

(١٤) نفع الطيب ج ٤ ص ١٣٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى
ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

(١٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن عذارى : البيان
المغرب ج ٢ ص ٦٤ — ٨٦ .

(١٧) أطلق عليه هذا اللقب تشبيها له بطائر أسود اللون حسن التغريد
وذلك لسواد بشرته وحسن غنائه (انظر : تاريخ الحضارة
الإسلامية العربية ص ٤٢٧) .

خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثالث أو نحوه ، وأوتارى من حرير .
لم يغزل بماء ساخن يكسبها انائة ورخاوة ، وببها ومثلثها اتخذتها من
مصران شبل أسد ، فلها فى الترتم والصفاء والجهارة والجدة اضعاف
ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب
المتعاورة بها ما ليس لغيرها « (١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

يا ايها الملك الميئون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليه
العناية به حتى ينظر فى شأنه ، فدب الحسد فى قلب إسحاق ، وخشى
أن يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغداد ، فرحل إلى المغرب
حيث قضى وقتا قصيرا فى بلاط زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير
القيروان ، وكتب إلى أمير الأندلس الحكم الرضى يسأله الإذن فى
الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه فى الغناء ، فأذن له فى دخول الأندلس (١٩) .

وأرسل إليه منصور المبنى اليهودى لاستقباله ، ونزل بالجزيرة
الخضراء مدة ثم جاعته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور
فناه عن ذلك ورغبه فى قصد من سيحل محل الحكم فى الملك ،
ولما تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليه منصور يخبره بخبر زرياب ،

(١٨) نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ .
وغنى أمام الرشيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة
أبياتا لم تعجبه فأمر بصفع قفاه وطرده . (العقد الفريد ج ٧
ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣) . ولكننا نميل إلى
أن سبب خروجه من المغرب دعوة الحكم له ، وأنه توقع أن ينال
فى الأندلس ما لم ينله فى بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .
(م ١٨ - المجتمع الأندلسى)

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيا
من أكبر خصيانه بتلقيه (٢٠) . ولما وصل أنزل في دار مخمة ، واستقبله
الأمير وبألف في إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل
ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار
في كل عام ، ألفا في كل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة في كل
من عيدي النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ،
وما وهب له من الضياع والبساتين التي قدرت بأربعين ألف دينار (٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له
بابا خاصا في قصره يدخل منه كلما استدعاه (٢٢) . وقد أدت هذه
المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سعيد : أن زرياب غنى يوما أمام
عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواريه وولده
فنثرها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل
ذلك لأن ذلك المال لم يعظم في عينيه وفرقه في ساعة واحدة ، فوقع
عبد الرحمن على هذه الرسالة :

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقرئ : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه
(العبر ج ٤ ص ١٧٤) ، (نفع الطيب ج ١ ص ١٦١) .

(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفي بروفنسال :
الحضارة العربية ص ٦٧ - ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب
الاندلسي ص ٣٨ - ٣٩ ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا
ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ويذكر الأخير أن راتبه الشهري كان
مائتي دينار .

(٢٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .
خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ٩٤ .

« قد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا ليحبينا إلى أهل داره ، ويغفرهم
بنعمنا وقد شكرناه ، وأذننا له بالمال المتقدم ليسكه لنفسه ، فإن كانت
عندك مضرة أخرى في حقه فارفعها إلينا » (٢٣) وهذا يدل على مدى
حب عبد الرحمن لزياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشدين فيه .

وقد أبدع زرياب في تنسيق الألحان ، وأظهر براعة فائقة في
الموسيقى والغناء حتى ادعى أن الجن هي التي تعلمه الأصوات ، ويبدو
أنه قد ورث هذا الشعور عن أستاذه اسحاق الموصلي الذي ورثه عن
أبيه إبراهيم . وكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو جارتيه غزلان وهيندة ،
فتمسك كل واحدة بعود ، ويمسك هو بعوده ، ويطارحها الغناء ليلته ،
ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه (٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات في مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى رأسها
العود ، فقد أضاف إليه وترًا خامسا بعد أن كانت أوتاره أربعة ،
واتخذ مضربه من قوائم النسر بدلا من الخشب . وقد أثر عنه أنه كان
يخفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الأغاني بالحانها (٢٥) . وبذلك يعتبر

(٢٣) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب في إسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإسلام السياسي
ج ٢ ص ٤١٨ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا
ص ٦٩ . ويذكر ليفي بروفنسال أن الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم
الباحثين أن الأوتار أربعة وهي : الزير واللبم والمثنى والمثلث ، وكل
منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس
الذي زاده زرياب ولازال إلى اليوم وسطا بين الهاديء والحاد
وسمى صول رمز له بالروح وهو أحد درجات السلم الموسيقي
المعروف اليوم (انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ،
دائرة معارف الشغب (٦١) ص ١٠٥) .

زرياب هو المؤسس الحقيقي لمدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورت فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون (٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شذوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعليم أحدهم أمره بالقعود على الوسادة المدورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عمالة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان أنصق الأضراس لا يقدر على فتح فيه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فيه عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته (يا حجام) أو يقول آه ، ويهد صوته ، فإن سمع صوته صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه وإلا أبعدته (٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرياب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحيناً يجمع بين العزف والإنشاد الجماعى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس التخت (المسرح الصغير) الذى تجلس

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٣٩ .

منه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بالاستارة ، وأن موسيقاه التي أدخلها أصبحت تمثل الموسيقى الراقية في الأندلس ، ونسبت إليه معرفت (بالموسيقى الزريبية) ، وأصبح الحذاء بمثابة الفناء المسمى أو الشعبي (٢٨) .

وقد علم زرياب أولاده الفناء والموسيقى ، وكانوا عند قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنتين هما عليّة وحمدونة ، فتعلموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذي صار مثله في الصنعة والحظوة (٢٩) ، كما علم جارية له تدعى (مننعة) أحسن أغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك (مصابيح) جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل (٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء المغنين والمغنيات فقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول فن الفناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر الذي كانت له أغان يجرى فيها مجرى اسحاق الموصلي . وقد أصبح لزرياب طرائق خاصة في الفناء يتناقلها الناس وقد ألف فيها البعض ، مثل أسلم ابن أحمد بن سعيد الذي ألف كتابا في أغانيه (٣١) .

وصفوة القول : أن زرياب كان أشهر مغن في الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون في الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب في مائة غلام (٣٢) .

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .

(٢٩) نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ .

(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣١) تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣٢) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٨ - ٦٩ .

فهذا عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

قد طاح امرى والذى ابتغى
هين على الرحمن فى قدرته
الف من الحمر واقل بها
لعالم اربى على بفتنه
زرياب قد اعطيا جملة
وحرفتى اشرف من حرفته (٣٣)

وهذا علوية الأعسر المبنى البغدادي يشكو للمهدى العباسي
ويقارن بين ما هو فيه وما فدا فيه زرياب (٣٤) .

وإلى جانب قرطبة فقد اشتهرت أشبيلية باللهو والغناء أيضا —
وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة
الغناء بأشبيلية بحر زاخر ، وتذاقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد
المدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرائها
وتناقص دولها » (٣٥) .

ويقول صاحب منهاج الفكر « وبأهلها يضرب المثل فى الخلالة ،
وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة » (٣٦) وكان يقال « إذا مات

(٣٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٧ .

(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .

(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالغناء فى إشبيلية أبو بكر
الإشبيلي والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة
إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس (دائرة معارف الشعب
(٦١) ص ١٠٢ هامش ١) .

(٣٦) المشرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٦ .

عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مغن
بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية لتباع فيها » (٣٧) .

ولما ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بها أهل الأندلس أيما
إعجاب ، وأخذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات
بصفة خاصة فى عصر ملوك الطوائف (٣٨) .

والى جانب المغنين كانت هناك شخصية الزاير الذى لا يستغنى عنه
فى الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم النكورى زاهر عبد الرحمن الناصر
الذى كان أنيقا يلبس القننسوة من الوشى والثوب من الخز ويتوسط
الناس فى الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صاحب نوادر .
ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبورى الذى قتل هو وقنبوط الملهى فى
موقعة قنطيش زمن فتنة البربر مع سليمان المستعين (٣٩) .

هذا وقد امتد أثر الغناء الأندلسى إلى الممالك المسيحية فى أسبانيا
ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس
العليسة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغية شانجة بن غرسية
ابن فردلند لبعض تردنا عن ثغرنا إليه فى الفتنة (الفتنة
البربرية) وفى المجلس عدة قبينات مسلمات من اللواتى وهبن له سليمان
ابن عبد الحكم (المستعين) أيام إمارته بقرطبة فأوهأت العليسة إلى
جارية منهن فأخذت العود وغنت :

(٣٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣١٧
هامش ١ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٩ ، دائرة معارف
الشعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية
سلسلة عالم المعرفة (٣١) سنة ١٩٨٠ م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ .

خيلى ما للريح تاتى كانما
يخالطها عند الهبوب خالوق
ام الريح جاءت من بلاط احبتي
فاحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله ارضا حلها الاغيد الذى
لتذكاره بين الضلوع حريق
اصار فؤادى فرقتين فعنده
فريقى وعندى للسياق فريق

فأحسنيت وجودت ، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات
كانهن فلققات قمر « (٤٠) » .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأمراء والخلفاء

(٤٠) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .

وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى أسبانيا
فيما يعرف بغناء (السجيريا) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبي
أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالسوليارس أيضا ، وهو نوع من الغناء
الشعبي كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنيين
والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة
منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى :
Ay, Ay, Ay, Ojriomio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبى ، ويؤكد
المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخوليان ريبيرا أن الغناء
الأسباني المشهور (بافلانجو) ليس إلا أثرا من آثار الغناء
الأسباني . (انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) ، كما
كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند
شعراء التروبادور (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩) .

والاغنياء ، وكانت القيان المغنيات يغنين فيما يبدو من وراء ستارة (٤١) .
ومن أمثلة هذه المجالس التى ورد ذكرها : مجلس غناء لسعيد
الخير أبى عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقد بنى دارا جديدة ، وأقام
احتفالا ومجلس غناء دعا إليه الكثيرين ، وحدث أن سقط المجلس
على من كان فيه ، ونجا سعيد بفضل عبود من الاعمدة التى كان يقوم
عليها ، ومعه جاريته (منتهى المنى) أم ولده مروان ، وماتت أربع عشرة
جارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبد الرحمن
فسر بنجاته وعوضه عما أصابه ، وأعطاه بكل جارية ماتت جارتين ،
وأعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه (٤٢) . ومجلس غناء
للمنصور بن أبى عامر فى منيته السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه
جاريته أنس الطلوب وكان معه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم فغنت
شعرا منه :

يا لقمى تعجوا من غزال جائر فى محبتي وهو جارى

ليت لو كان لى إليه سبيل فاقضى من الهوى أوطارى

قال أبو المغيرة : فلما أكلت الغناء أحسيت بالمعنى فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمار

بين سمر القنا وبين الشفار

(٤١) انظر : ابن حيان : المقتبس ص ٣٤٥ تحقيق د. مكى ، جذوة
المقتبس ص ٧١ ، ويبدو أن لفظ الستارة كان يطلق فى البداية
على المكان الذى تستقر فيه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء
والوجهاء ، ثم استخدم بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان
أنفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على
المكان الذى تقام فيه مجالس الغناء .

(٤٢) المقتبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسال : الحضارة العربية
فى أسبانيا ص ٦٣ .

لو علمنا بأن حبك حق
لطلبنا الحياة منك بثار
وإذا ما الكرام هموا بشيء
خاطروا بالنفوس في الأخطار

وعند ذلك أحس المنصور بأن في الأمر شيئاً فأغلظ في القول
للجارية وقال لها لن تشيرين بهذا ؟ فبكت وأنشدت :

اذنبت ذنباً عظيماً فكيف منه اعتذارى
والله قدر هذا ولم يكن باختياري
والعفو أحسن شيء يكون عند اقتدار

فوهب الجارية لأبى المفيرة ، فأنصرف بها في الصباح إلى
منزله (٤٣) .

وقد كان البعض يتسبط في مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر الممازحة
والهجاء ، ويسقط مئونة التحفظ (٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : أن الناصر
طلب من وزيره أبى القاسم لب أن يهجو الوزير عبد الملك بن جهور ،
فامتنع خشية من لسانه ، فطلب من ابن جهور أن يهجو أبى القاسم ،
فامتنع أيضاً ، فقال الناصر أنا أهجوه :

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة في طولها ميل
وعرضها ميلان إن كسرت
والعقل مافون ومخبول
لو أنه احتاج إلى غسلها
لم يكفه في غسلها النيل

(٤٣) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤٤) انظر الصيدى : جذوة المقتبس ترجمة ٥٦٠ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجاك فاهجه فقال :
قال أمين الله فى خالقـه
لى لحيـة ازرى بها الطول
وابن عبير قال قول الذى
ماكوله القرضيل والفول
لولا حيائى من إمام الهدى
نخست بالانخس شـوقول

وكان عندما بلغ إلى قوله (شو) قد سكت ، فقال له الناصر
(قول) فأتم له البيت على نحو ما كان أضمر ، وقال : أنت هجوته
يا مولاي . فضحك الناصر وأمر له بصلة (٤٥) . كما كان البعض يظهر
غضبه أيضا . فقد ذكر ابن عذارى أيضا أن محمد بن سعيد المكنى
بابن السليم — وكان قد تولى عدة ولايات للناصر واحتج ما لا كثيرا —
حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فأخذ منه الشراب ، فشق
الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن أشق هكذا رأس من
اعرف له ما لا كثيرا غلته دوننا ، ولم يسهم ببيت المال منه » (٤٦) .

وقد وصل الأمر ببعض إلى حد خلع ثوب الوقار والرقص فى
المنجلس فقد ذكر المقرئ : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان
من وزراء المنصور بن أبى عامر ومن أخص ندمائه ، وكان يجتهد فى مرضاته ،
ويحاول أن يدخل عليه السرور والمرح . وحدث أن قام وحاول أن

(٤٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القرط
هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان إسبانيتان باللهجة الرومانسية
الأولى تدل على ضمير الغائب والثانية تعنى الردف أى نخست
بالمنخس ردفه أى إيتيه (د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى
ص ٢٢٧) .

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢٦ .

يرقص فى مجلس له متحايلا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك ليهيج المنصور (٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعا جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالاندلسى إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة ٣٧٢هـ ، فقدم إليه ساقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر ، فاستخفه الطرب ، وقام يرقص ، فلم يبق أحد فى المجلس إلا فعل مثله ، وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانته ، فخرج إليه البعض ، وقتلته وحمل رأسه إلى المنصور فأظهر الحزن عليه (٤٨) .

موقف الناس من الغناء بالاندلس :

وجد الغناء والموسيقى بالاندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يتخرج من سماعه الكثيرون ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء (٤٩) . وقد تناول ابن حزم الاندلس الغناء من الناحية الفقهية فى رسالته (الغناء الملهى وهو مباح أو محظور) ، ورد الأحاديث التى تقول بحظره (٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الاندلس من أنكر مذهب ابن حزم ، ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص السماع ، صلب بإنشاد الأغاني

(٤٧) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزى :

تذليس إيليس ص ٢٢٣ - ٢٥٠ ، الشيخ محمد الفزالى : السنة

بين الفقه والتشريع ، مائة سؤال عن الإسلام ج ١ ص ١٧٥

وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاطنة « (٥١) فجعل ذلك من معاييه . والحقيقة أنه كان في الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رايان أو فلسفتان : فلسفة تقوم على التشديد والتحرير في كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعدم التضييق ، والحكم على الأشياء من منطلق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفلسفة في كثير من الأوقات ، وكانت وجهة نظرها في الغناء أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للفرائض ، أو مله عن الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع في المحرمات فلا حرج في ذلك ، أما الحرج فيأتي من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للفرائض ، الملهي عن الفرائض ، المؤدى للوقوع في المحذور . ويرى أصحاب هذه الفلسفة ومنهم ابن حزم أنه لم يرد حديث صحيح في تحريم الغناء (٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجال الدين في الأندلس كانوا يكرهون الغناء ، أو يشددون النكير على أهله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيد ويعجب به ولا يجد حرجا في ذلك . ومن أمثلة ذلك قصة قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أبي عيسى ، وكان عند رجل من بني حدير — وكانوا من بيوتات قرطبة — وجارية له تغنى بتلك الأبيات :

طابت بطيب لسانك الأقداح

وزهت بدمرة خذك التفاح

وإذا الربيع تسمت أرواحه

طابت بطيب نسيمك الأرواح

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ٢/١ ص ١٠٠ .

(٥٢) د. محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية

ص ١٧٠ — ١٧١ .

وإذا الحنانيس البست ظلماءها

فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هذه الأبيات على يده ، وخرج للصلاة على جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها (٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب العقد — وكان محافظا — مر ببعض الأحياء ، فسمع مصابيح جارية الكاتب أبى حفص مهر بن قهليل تغنى ، فاعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى أحد المساجد فأخذ لوحا لبعض المصيبة الذين كانوا يتعلمون وكتب عليه :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد

ما كنت أحسب هذا البخل من أحد

لو أن اسماع أهل الأرض قاطبة

أصفت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها هذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحق به ، وأدخله بيته ورحب به (٥٤) .

ويصف لنا ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) كثيرا من مجالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنا شدة تأثيره ومن معه بما كان يسمع فيها من غناء .

ويذكر أن حفى العاصرية إحدى بنات المظفر عبد الملك ابن المنصور كلفته بصنع أبيات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيد

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغية الملتبس ترجمة ٢١٨

ص ١١١ .

(٥٤) جذوة المقتبس ص ٩٥ .

الفناء ولها صنعة رائعة فى الإنشاد (٥٥) .

ويصف لنا التجيبى (شارح المختار من شعر بشار) مدى حبسه
للفناء وهو مريض بمدينة مالقة سنة ٤٠٦ هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل
اشتد مسهرى ، وخفقت حولى أوتار العيدان ، والطنابير ، والمعازف
من كل ناحية » (٥٦) .

(٥٥) طوق الحمامة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٥٦) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

الطعام والشراب

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس ، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التي عرفوها في بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التي كانت موجودة في هذه البلاد شيئا فشيئا ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الثريد ، والخريزة ، والعصيدة والربيكة ، والجثيشة ، والسخينة وغيرها (١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان أخذت أنواع من الأطعمة الأسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من الترف والبذخ تتسرب إلى أطعمة الأمراء والخلفاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم (الجوارشنة) أو الأدوية الهاضمة ، إلى جانب أنواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء فيها يأكل ويشرب (٢) .

ولم تمدنا المصادر الأندلسية إلا بالقليل النادر في هذا المجال .

(١) انظر د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريزة : اللحم يقطع صغيرا على الماء فإذا نضج ذر عليه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والربيكة : من البر والتمر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجثيشة : دقيق مجروش خشن يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ويطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكثرون من أكله في أحوال الشدة . (انظر : الحياة الاجتماعية في العصر الأموي ص ٢٠٤ - ٢٠٥) .

(٢) انظر : د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خلال الأمثلة القليلة التي عثرنا عليها من أخبار
الأمراء والخلفاء الأمويين أن نتبين مقدار الترف والبلذخ في طعامهم .

فقد ذكر المقرئ : أن عدد الفقهاء الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ
ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى دخلتهم من اللحم كل يوم بخلاف
الطير والحوت (السمك) ثلاثة عشر ألف رطل . أى بمعدل نحو رطل
لل فرد الواحد أو أقل قليلا ، وأن المرتب من الخبز لخيتان بحيرة الزهراء
١٢ ألف خبزة (رغيف) كل يوم ، وأنه كان ينقع لها من الحمص الأسود
سنة أفقرة كل يوم (٣) .

كما ذكر أيضا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر
ألف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيتان ، وهذا لطعامه ومن
في قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجواري (٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار في هذا العصر أنه كانت هناك
أفران عامة — كما يبدو — يجهز فيها الناس طعامهم كما في عصرنا الحاضر .
فقد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضي صلى صلاة الجمعة
في المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى
باب الفرن الذى كان يطبخ فيه قال لصاحبه : أطبخت خبزتى ؟ قال :
نعم ، فأخذها تحت إبطه ، وسار إلى منزله ومعه جماعة أخرؤا دوابهم
إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قدم زرياب إلى الأندلس جاء معه بالكثير من ألوان الطعام
البيغدادي ، وأخذ عنه الأندلسيون طرق طهيه ، وابتدع الوائنا أخرى

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

(م ١٩ - المجتمع الأندلسى)

من الأطعمة المظيية بالتوابل والأفاويه ، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم
(النقايا) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ،
وابتكر نوعا من (التقلية) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب ،
ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الأفاوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا
بعد التحريف عن زريابيا (٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ
بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفاكهة والحلوى من الفطائر المصنوعة
بالجوز واللوز والعسل ، والعجائن المحشوة بالبندق والفسق ، والمعقودة
بالفواكه . كما أنه فضل تقديم الماء والشراب فى اكواب زجاجية
شفافة على آنية الذهب والفضة والاكواب المعدنية ، وجعل غطاء
المائدة من الأديم أو الجلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع
من القطن أو الكتان .

وقد شاعت تقاليد زرياب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ،
وآداب المائدة وبخاصة فى أوساط الطبقة العليا وعلى رأسها
الأمراء والخلفاء (٧) .

أما عن الشراب : فقد كان هناك من يشرب الخمر ، وقد كانت
زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، ويعده أيضا ، وكان
يزرعها بدون شك كثير من الأسبان غير المسلمين لصناعة الخمر ، لدرجة

(٦) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، أحمد أمين :
ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال :
الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢
ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٤ ،
ص ١١٥ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ —
١٦٧ .

ان الخافضة المستنصر عزم على قطع اشجارها فى جميع انحاء الاندلس ،
حتى يقضى على صغاعة الخمر ، وشاور فى ذلك فقيل له : إنهم يعملونها
من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك ، ولكنه أمر بإقامة الموجود من
الخبور وتشدد فى ذلك (٨) .

ويذكر ابن سعيد المغربى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط استفتح
دولته بؤدم غندق الخمر ، ويبدو أنه غندق اشتهر بتقديم الخمر فسمى
بهذا الاسم (٩) . ويذكر ابن عذارى : أن الأمير عبيد الله بن محمد
ابن عبد الرحمن « كانت اللذات فى أيامه ميجورة » ، ولم يشرب قط نبذا
ولا مسكرا (١٠) . كما كان هناك أيضا من يشرب النبيذ على مذهب أهل
العراق مثل : أحمد بن إبراهيم بن غيرة النخعي ، وكان من أهل قرطبة ،
وقد وصفه ابن الفرصى بأنه « كان مغفلا ، وكان يذهب فى شرب النبيذ
النسب مذهب أهل العراق » . وقد توفي سنة ٢٩٠ هـ زمن الأمير
عبد الله (١١) ، ويشمل : صهيب بن منيع القرطبي (ت ٣٠٨ هـ) ، الذى
تولى القضاء بقرطبة ، ويذكر الحميدى : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير
الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ،
وكان نقشه (يا عليهما كل عيب كن رعوفا بصهيب) ، وأحضر نقاشا
فزاد عليه (واستر العيب عليه إن فيه كل عيب) ثم رده ، فظل يختتم
به زمنا حتى فطن لذلك فغيره (١٢) .

(٨) ابن الأبار : الحلة السيرام ج ١ ص ٢٠٣ ، الحميدى : جذوة

المقتبس ص ١٣ ، النخعي : بغية الشمس ص ١٨ ، المقرئ : نفع

الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه

عن مسألة شرب النبيذ فى الفصل الثالث .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٤٥ ، ترجمة ٥١٣ .

الملابس والأزياء والزينة

تميز الأندلسيون بعدة خصائص وصفات مميزة . وصفهم بها ابن سعيد المغربي : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، وميلهم الواضح للتأنق في ملابسهم ، وانفرادهم بتقاليد في الزي تختلف عن أهل الأماص الأخرى ، وحسن تدبيرهم في شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكراهيتهم للبطالة والتسول ، ورغبتهم الشديدة في العلم والتعلم ، وتدينهم ومحافظتهم على قواعد ديانتهم والمحافظة على إقامة حدودها ، وإنكار التهاون في تعطيلها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهاونا من السلطان في إقامتها .

وحبهم الشديد للغناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضروري من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهذا يدل على صفة بارزة فيهم وهي رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هذا بالإضافة إلى ظاهرة القلق والتناقض في حياتهم أو التطرف في الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ملابسهم وفرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه فيصوم ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » (١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضا إلى زى أهل الأندلس في عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في العصر الأموي فقال : « وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة ، وأما الأجناد والعمامة فقليل من تراه بعمامة في الشرق

أو الغرب ، وكثيرا ما تزيا السلاطين والأجناد بزي النصارى المجاورين ،
وأكثر غوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم
إلا الأشياخ والعظمون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا أو خضرا ،
وأما الصفر فمخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة
والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الاكتاف ، وإنما يسدلونها
من تحت الأذن اليسرى . وإذا رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم
شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها
لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل
الثياب « (١٤) » .

ومن هذا النص يتضح أن الأندلسيين وخاصة فى شرق الأندلس
كانوا يتميزون بكشف رعوسهم ، وعدم لبس العمام ونحوها كما كان يفعل
المشاركة . وأما الذين يلبسون العمام وخاصة فى غرب الأندلس فبحكم
مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمام مغيرة عن عمام أهل
المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة
بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة
اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . وما يشير إلى تلك العادة
قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزنى

بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترنى لبست بياض شيبى

لأنى قد حزنت على شيبابى (١٥)

(١٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ١١١ - ١١٢ ، د. أحمد هيكال : الأدب

الأندلسى ص ٤٥ - ٤٦ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو (المصبغات) محبوبة في الأندلس ، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضى مناصبهم شيئا من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة واللباس . فالقاضي محمد ابن بشير قاضي قرطبة في عهد الحكم الربضي - والذي اتصف بالعلم والورع - كان يعقد جلساته أحيانا في جامع قرطبة في إزار مورد ورداء معصفر وثمعر مصبوغ .

حيث يذكر الخشنى : أنه أتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجبة المفرقة والرداء المعصفر ، والكحل والخضاب ، والخفاء في يديه ، اعتقد أنه ليس القاضي ، فطالب من بعض الحاضرين أن يدلوه عليه ، فأشاروا إليه فقال لهم : إنى أراكم تستهزئون بى أسألكم عن القاضي وتدلوني على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العدل والانصاف فوق ما كان يظن (١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى اللبثي - زعيم الفقهاء في عهد الحكم ابن هشام وعبد الرحمن الأوسط - من أشد الناس تعظيما لهذا القاضي وثباتا عليه في حياته وبعد مماته . وقد سأل عن لبس العمائم فقال هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمهم في الدين ، فقل له لو لبستها لاتبعت الناس في لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخز

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويقول لسان الدين ابن الخطيب عن أهل غرناطة في زمنه ونعتقد أن فيه شيئا من العصر الأموي : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٣ .

فلَمْ يتبعه الناس ، وكان اهلا لان يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة
لتركى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضى سعيد بن سليمان الذى ولى القضاء فى عهد الامير
عبد الرحمن الأوسط يجلس للحكم فى المسجد وعليه جبة صوف
بيضاء ، وفى راسه اقروف ابيض وغفارة بيضاء من نفس
القماش(١٨) .

وهذا مما يدل على عدم تقييد جميع افراد كل طائفة أو طبقة
لباس أو زى معين ، ومدى حرية كل شخص فى اختيار ما يناسبه
من الملابس . بيد ان اللباس العام الذى كان يلبسه الناس هو
الطيلسان الموصول به غطاء الرأس — مثل لباس المغاربة الآن —
أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء فى غرب الأندلس .

وكان الشيوخ والمعلمون يغطون رؤوسهم بغطاء الطيلسان إذا
لبسوه ، أما العمامة فيتركونه متدلّيا خلف رقبتهم . كما صنع البعض
القلانس من الخز وكان يغطى بها رأسه كـ محمد بن بشير الذى كان

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٣٦ .

(١٨) قضاة قرطبة ص ٦٢ — ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيق
د. محمود مكى . يبدو ان الاقروف كان غطاء للرأس على شكل
مخروط ، واحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من
الطيلسانات (الأدب الأندلسى ص ٣٥) . وكانوا يطلقون على
القلنسوة اسم القالض (القاليس) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان
الفتية المقلص عندهم هو الذى يحفظ الموطن أو عشرة آلاف حديث
والمدونة . (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى
ص ٦٥ — ٦٦) .

يصلى الجمعة بالناس في جامع قرطبة وعليه قلنسوة خز (١٩) وكانت القلائس غطاء للرأس عند أكثر العمامة .

وكان الكثيرون يستعملون غفائر الصوف الد مرء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلائس ، ويتدلى جزء منها على القفا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا الغفائر الصفراء تمييزاً لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون ذؤابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجعلونها بين الكتاف ، وإنما يسدلونها تحت أذنهم اليسرى (٢٠) . كما عرف البرنس وخاصة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليه في بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها (٢١) .

ويشير المقرئ إلى أن المنصور بن أبي عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحد في الغالب حتى لا يلتفت الناس حوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليه برنسا ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهم (٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحلة وتكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديباج أو من الحرير الموشى بخيوط ذهبية . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخرة مثل الوشى اليوسفى والوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضاة والعلماء . فقد ذكر ابن حيان : أن الأمير عبد الرحمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على العادة ، فطلب من

(١٩) الخشنى : قضاة قرطبة ص ١٨ ، ٣٠ .

(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩ .

(٢٢) نفح الطيب ج ١ ص ٥٩١ .

الراشدة القائمة على رأسه أن تدخل إلى خزانة الكسوة لتأخذ برداء
يوسفى من آخر أنواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بالقصر
ليصنعه ثوبا يلبسه فى النزهة غدا (٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف
منية قنتيش (كنتيش) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان
فاخرة :

ولابسة وثيا كان رقيقه رقيق الهشامى العنق المنصد (٢٤)

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الأندلس أثر كبير فى اهتمام أهلها
بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات
المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات
الفاخرة من الديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعتابى وغير
ذلك .

وكانت هذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسميات مشرقية
— تصنع فى الأندلس وتصدر للمشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها
وملوكها بها حتى أن بعضهم طلب أن يكفن فى ثياب أندلسية من صنع
هذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجته ، ودون رودريجو خيمينث
دى دارا (٢٥) .

وقد كان الأندلسيون يتخذون الخفاف ، ويلبسون الجباب والثياب
القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .

(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ . تحقيق د. مكى .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى

الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

من الطيسانات ذات الغطاء . وكلمة الأرجوان على الصوف الأحمر فقط . رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطى به المرأة رأسها من شقاق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطى به المرأة رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجفافة على ما يجففون به المساء أو غيره من قطع القماش ، وكلمة البيطير على قطعة القماش التى توضع حول عنق الطفل لتصون ثيابه من اللعاب والطعام (٢٦) .

وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان طابعها الاناقة والنفاسة والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية . حيث كن يتفنن فى لبس المصيفات والمذهبات والديباجيات من الثياب ، وبالعن فى زينتهن من التحلى بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة فى ذلك الوقت (٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب فى وصف أهل غرناطة — وهو وصف يمكن أن نعممه على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات والتقاليد بين يوم وليلة — « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر ، وألوانهم زهر مشربة بحمرة ، وألسنتهم نصيحة يتخللها إعراب كثير وتغلب عليهم الإمالة ،

(٢٦) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد

هكل : الأدب الأندلسى ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ حيث يذكر من أنواع الطيب

العنبر الجيد المقدم على أجناسه فى الطيب ، ومن أنواع البخور

عود الأنجوج الذى يضارع العود الهندى ذكاء وعطر رائحة .

ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ ، ٩٢ .

ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والمختلة السيرة ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفائس بينهم الملف المصبوغ شتاء ، فتبصرهم
فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطيحاء الكريمة ، وزى
جندهم فى القديم رى أقبالهم وأضدادهم من جيرانهم الإفرنج ، وحريمهم
حريم جميل موصوف بالخصن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقباء
الشعر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ،
يندر فيهن الطول ، ويبالغن فى التفنن فى الزينة والمظاهرة بين المصبغات ،
والتنافس بالذهبيات والتيلجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية
نساء الله أن يفض عنهن فيها عين الدهر « (٢٨) » .

هكذا وقد كان لقوم زرياب اثر كبير فى تطور الزى فى الأندلس
حيث أدخل كثيرا من التقاليد فى هذه الناحية ، ومنها أنه جعل لكل فصل
من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هناك مواعيد لبسها فملابس
الربيع خفيفة ملونة من الخرز والدراريع التى لا بطانة لها ، وملابس
الخريف قريبة منها إلا أنها مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفة
بيضاء ، وملابس الشتاء ثقيلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ،
وقد عدل فى هيئات الثياب وتفصيلها فقصرها ، وضيق أكمامها بعد
أن كانت واسعة ، وأعطاهها هيئة جميلة (٢٩) .

كما ابتكر زرياب النمط الجديدة لترتيب الشعر وتصنيفه فقد كان

(٢٨) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩هـ .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣ - ٤ ومن المعروف أن سكان
غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعد
سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ - ٨٦ ، د. حسن
إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم
تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

أهل الأندلس رجلا ونساء يرسلون الجمة مفروقة من وسط الجبين فيسندل شعرهم عاما على الصدغين والحاجبين ، فلما راوا زرياب وأولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقصد سووها مع حواجبهم ، وأداروها (٣٠) وراء آذانهم ، وأستلروها على أصدافهم هوت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فآخذوا في تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء آذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها (تصفيفة الجبهة) وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب كما يفعل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر أنواعا من العطور فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والدهن ومال إلى إلى العطور المستخرجة من الزهور (٣١) . وهكذا تحكم زرياب فى كثير من العادات الاجتماعية فى الأندلس من ناحية اللبس والأزياء والزينة ، كما تحكم فى كثير من العادات فى الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء . يقول لين بول « وتحكم زرياب فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم بترونيس وبروميل الوسيم » (٣٢) .

-
- (٣٠) محمد دياب : تاريخ العرب فى إسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .
(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .
(٣٢) العرب فى إسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة الغربية فى إسبانيا ص ٧٠ - ٧٢ ، وبترونيس أو بطرون كان قضايا يونانيا أشهر بكتابات السخرة وأعجب به ليونون وضعته إلى حاشيته .
وبروميل إنجلزى ولد فى لندن سنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالأناقة ابتكر كثيرا من الأزياء حتى لقب بمالك الأناقة فى عصره وتوفى سنة ١٨٠٤م (انظر تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية فى إسبانيا ص ٧٠ هامش) .

ويقول المستشرق الإسباني بالنسيا : « لم يستهو زرياب أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بأدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته فى إرسال شعره ، وولائه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبها فأخذ الناس عنه كل ذلك ، وأصبح ذوقه مقياسا لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذيه القرطبيون فى إعداد ملابسهم » (٣٣) .

ونستطيع أن نقول : إنه لم يستهو أمثلة أهل قرطبة فقط بل الأندلسيين بصفة عامة ، وأن ذوقه لم يكن مقياسا لأهل قرطبة فقط بل للأندلسيين على وجه العموم .



الأعياد والمواسم والخصلات

لم تمدنا المصادر بالكثير من الأخبار فى هذا الصدد ، وإن كنا نستطيع من خلال الإشارات والروايات القليلة التى وردت أن نقول : أنه كانت هناك أعياد دينية إسلامية شارك الأندلسيون إخوانهم المسلمين فى بقية العالم الإسلامى الاحتفال بها وعلى رأسها عيدي الفطر والأضحى .

وقد كان الأمراء والخلفاء يخرجون فيها لحضور الصلاة فى موكب حافل إلى المصلى (١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولائم تقدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو أنهم أخذوا يحتفلون أيضا بالمولد النبوى بعد أن عرف الاحتفال به فى المشرق وخاصة فى مصر زمن الفاطميين (٢) ، ولعل ذلك

(١) كان من أشهر المصليات فى قرطبة مصلى المصارة ومصلى الرىض . وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، ولفظ (مصارة) انتقل إلى المغرب من الأندلس ، ويعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة ، ويعد من متزهاتها ، ولم تكن المدن الأندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للنزهة فى أيام الأعياد ، وما زالت هناك مواضع فى أسبانيا تحمل نفس الاسم AL Muzara وكذلك فى المدن المغربية أيضا .

أما مصلى الرىض : فكان يقع على الضفة اليسرى من النهر جنوب قرطبة ، على مقربة من مصلى الرىض ، وكان مصلى المصارة أقرب من الرىض ، ولذلك كان الأمويين يصلون به غالباً صلوات الأعياد والاستسقاء (انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤) تحقيق د. محمود مكى .

(٢) السندوبى : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ص ٦٢ مطبعة الاستقامة

بالقاهرة سنة ١٩٤٨م .

يرجع إلى تعظيمهم للنبي ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ، وإلى الشعور الدينى القوى لديهم الذى أدى بهم إلى التحدى لإثبات وجودهم فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى أوربا المسيحية ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة الواضحة التى تميزت بها الاندلس كدولة إسلامية فى أوربا ، وهى ما يطلق عليه البعض ظاهرة (المشاركة والتحدى) .

وقد حرص الأندلسيون والمغاربية على الاحتفال به فى العصور المتأخرة احتفالا كبيرا لإيقاظ الشعور الدينى وخاصة بعد تساقط القواعد الإسلامية فى الاندلس واحدة إثر الأخرى وذلك على المستويين الرسمى والشعبى بمواكب الشموخ التى لازالت موجودة حتى اليوم ببعض مدن المغرب وخاصة مدينة سلا (٣) .

كما يظهر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم فى هذا اليوم . فتد ذكر ابن حبان وابن عذارى والمقرئ : أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى يوم عاشوراء :

لا تنسى لا ينسك الرحمن عاشوراء

واذكره لا زالت فى الأحياء مذكورا

قال الرسول صلاة الله عليه

قولا وجدنا عليه الحق والنورا

فأرغب فديتك فيما فيه رغبنا

خير الورى كلهم حيا ومقبورا (٤)

(٤) د. أحمد العبادى : المسلمون فى أرض الاندلس : مجلة المختار من

عالم الفكر عدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ - ١٨٥ ، نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيان

المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر المقرئ البيت الثالث بصيغة مختلفة ،

وأرجع ذلك إلى أنه قد نسى لفظه لطول العهد به فكتبه بالوزن

والمعنى هكذا :

فيمن يوسع فى إتفاق موسمه أن لا يزال بذالك العام ميتورا

ومن هذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات في هذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .
وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الأندلسيون الأسبان في الاحتفال بها مثل عيد الميلاد ، وعيد العنصرة وخميس العهد أو خميس إبريل الذي يسبق عيد الفصح بثلاثة أيام (٥) .
وقد أشار الطرطوشي إلى أن الأندلسيين كانوا في هذه الأعياد يبتاعون الفواكه والحبوى من المجنات والأسفنج كالعجم تمسها واعتبر هذا من البدع (٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة في هذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنباً إلى جنب فى المجتمع الأندلسى سنين طويلة .
وهناك أعياد قومية أو شعبية ، مثل عيد العصير AL acir الذى كان يحتفل به عند جنى محصول العنب ، وكان محصولاً رئيسياً ، فكانوا يقيمون فى الحقول فى جو يسوده المرح والفناء والرقص ، وهى عادة لازالت موجودة فى إسبانيا إلى اليوم (٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشاركن الرجال فى الاحتفال بهذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة فى أيام الأعياد ، وكن يذهبن إلى ساحة المصلى ، حيث يقمن الخيام للتفرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشي (٨) : وقد ازدادت هذه الظاهرة وضوحاً فى أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

(٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

(٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .

(٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب في وصف استقبال سلطان غرناطة
أبى الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجال ، والتقى أرباب الحجا
بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود
وحمر الخدود » .

ويقول في وصف نساء مدينة رندة « يلبس نساؤها الموق (الخف) ،
على الأملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق ، وينعشن قلب
المشوق ، بالطيب المنشوق » (٩) .

ويتضح من خلال هذه النصوص وأمثالها أن تحرر المرأة في
الأندلس وخاصة في العصور المتأخرة ، كان أكثر من بقية العالم
الإسلامي ، وذلك بحكم تأثير الجوار مع المسيحيين بعد سقوط قواعد
المسلمين في أيديهم . وبحكم إرغام الأسبان لهم على التنصر ، وممارسة
العادات والتقاليد المسيحية ، فتنصر منهم من تنصر .

وبالإضافة إلى ذلك فقد احتفل في الأندلس بعيدي النيروز
والمهرجان (١٠) .

(٩) د. أحمد العبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب

والأندلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القديمة ، وهو بداية السنة عندهم
في فصل الربيع ، ويذكر البيروني أن أول من احتفل به الملك
جهشيد الفارسي ، حيث يقال : إنه لما فقد خاتمه ذهب عنه
ملكه ، ثم لارد إليه بعد أربعين يوما عاد إليه الملك ، فقال
الفرس مهئين (نوروز آمد) أي اليوم الجديد ، فسمى بذلك (الآثار

=

(م ٢٠ - المجتمع الأندلسي)

الباقية عن القرون الخالية ص ٢١٧) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذين العيدين بمد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحا من الأعياد الرسمية فى العصر العباسى . وفى صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين . فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفلوا فى خلافة علي رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الطوى على عادتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا كل يوم . (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٣٦) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به فى آخر العام ويسمونه (رز مهر) أى محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ، وكانوا يتخذونه دليلاً على نهاية العام فى فصل الشتاء ، كما يتخذون النيروز دليلاً على بدايته فى فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسى أنه قال : كنا على عهد الفرس نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الياقوت فى النيروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرها كنضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا له أصلاً ، وهو قول يظهر فيه الوضع جلياً .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم أفريدون على أزد هاك (الضحاك) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ، وكانوا يتهادون فيه مثل النيروز ويقدم فيه الملوك إلى الجند كسوة الخريف والشتاء . (انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ، التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره القزى : من أن عبد الرحمن الأوسط لما قدم زرياب إلى الأندلس بالغ في إكرامه ، وقرر له راتباً شهرياً ألفاً لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز ألف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز والمهرجان ، هذا الصغير والقمح والضياء والبساتين التى وهبها له وقدرت بأربعين ألف دينار (١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الأصم وهو من شعراء عصر النصارى يوم المهرجان بقوله :

أرى المهرجان قد استبشرا
قدادة بكى المزن واستعبرا
وسريكت الأرض أفـوافها
وجالت السندس الأخضر
وهز الرياح صنابيرها
فضوعت المسك والعنبرا
تهادى به الناس الطافهم
وسامى المقل به المكثرا (١٢)

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون فى ذلك . ومن قول أبى جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد فى وصف يوم المهرجان :

(١١) فتح الطيب ج ١ ص ١٦١ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .
(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٧٦ .

يا حسن يوم المهرجان وطيبه
يوم كما تهوى أغر محجل
سرح لحاظك حيث شئت فإنه
فى كل موقع لحظة فتأمل (١٣)

والى جانب الأعياد فقد كان هناك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق
عليه اسم أجازة رسمية ، فقد كان يوم الأحد من كل أسبوع بمثابة
عطلة للموظفين . فقد ذكر ابن حبان (٤٦٩ هـ) فى ترجمته لقومس
ابن أنتيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانيا فأسلم فى
آخر حياته « أنه كان أول من سجن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل
الخدمة فى يوم واحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان
أول من دعا لى ذلك لنفسه فيه ، فتبعه جميع الكتاب طلبا للراحة
والنظر فى أمورهم ، فانتخبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه » (١٤) .

ويشير ابن سماك العاملى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن
الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه (الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار
المأثورة) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة
أحد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيه من الخدمة فى مطر
وابيل » (١٥) .

ويبدو أن هذا اليوم كان عادة مسيحية انتقلت بعد ذلك إلى

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(١٤) المتقوس ص ١٢٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت

سنة ١٩٧٣ م .

(١٥) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٤١٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

الاندلسيين كما نراه اليوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة في مصر من يوم الاحد يوم عطلة لهم .

وهذا يدل على أن التقليد الذي سنة (قومس بن انتنيان) في اتخاذ يوم الاحد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخدمة قد ظل معمولاً به في عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذي توفي سنة ٤٦٩ هـ ، ويبدو أنه ظل معمولاً به بعد ذلك .

ولقد جرت عادة الأندلسيين على الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم وحفلاتهم بوسائل شتى مثل الغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية وسباق الخيل ، فضلاً عن الاحتفالات الدينية التي تقام في المساجد والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتلى القرآن الكريم ، وتلقى القصائد الشعرية المناسبة ، إلى جانب الأناشيد والموشحات الدينية ، وحفلات الذكر التي قد يصاحبها العزف على بعض الآلات مثل الشبابة البيراعة ، والضرب على الدفوف ، وتوزع فيها الأطعمة . وهذه الاحتفالات في مجموعها تتشابه في مظهرها العام مع الاحتفالات في المشرق إلا أنها تختلف في بعض التفاصيل التي تتفق مع البيئة المحلية (١٦) .

* * *

الحفلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجدت هناك الحفلات المتنوعة مثل حفلات الزواج والميلاد والختان وغيرها . ولم تمدنا المصادر إلا بإشارات بسيطة لا نستطيع من خلالها أن نجلى هذا الموضوع أو نؤميه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهما .

ففى حفلات الزواج مثلا : لم تشر المصادر التى رجعنا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى صاحب مدينة سالم فى عهد المستنصر حيث يقول المقرئ « وكان أعظم عرس بالأندلس » (١) . ومن هذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبلذخ الذى كان فى هذا العرس بالرغم من عدم ورود تفاصيل عنه . وفى حفلات الختان ، عثرنا على إشارتين بسيطتين . حيث ذكر ابن عذارى أنه فى سنة ٣٢٠ هـ صنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده (٢) .

وذكر المقرئ : أن المنصور بن أبى عامر قد احتفل بختان ولده عبد الرحمن شنجول (٣) . ولا شك أنه كان يقوم بذلك (الزین) أو المطهر، وقد يجلب فى الاحتفال بعض المغنين وأصحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة فى الثغر الأوسط سنة ٢٣٥ هـ فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصرى ، ونزلها الكثير من المسلمين (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٨ .

فيه الهدايا لوالد الطفل ، وتقام فيه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا بهذه المناسبة .

وفي حفلات الميلاد : روى أن الحكم المستنصر لم يرزق بأولاد ذكور قبل تولده الخلافة ، وكاد أن يياس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤ هـ بولد من جاريته أصبح البشكنسية فسر بذلك سرورا عظيما ، وأقام احتفالا كبيرا حضره كبار رجال الدولة يهتفون ويلقون القصائد الشعرية . ومن ذلك قول جعفر المصحفي الحاجب :

اطلع البدر من حجابيه

واطرد السيف من قراره

رجعنا وارث المآلى

لشيت الملك فى نصابه

بشرنا سيده البرايا

بنعمة الله فى كتابه

لو كنت أعطى البشير نفسى

لم أفطن حقا لما أتى به (٤)

وسائل اللهو والتسلية

لا شك فى أن الحياة المترفة التى عاشها الكثيرون فى الأندلس ، وخاصة فى الطبقات العليا ، قد اقترن بها فراغ كبير كان لابد من شغله . فمنهم من شغله بالعمل الجاد والعلم النافع والعبادة ، ومنهم من شغله بالأوان مختلفة من ضروب اللهو والتسلية واللعب . وقد كان الغناء والموسيقى على رأس هذه الوسائل حيث شغف به معظم الأندلسيين كما قديما ، وكانت له مجالسه التى تعقد فى القصور والمنى والمنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المغنيين والمغنيات .

(٤) د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقنص من هذه الوسائل أيضا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون في رحلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخل الذي كان كلفا به في أوقات فراغه . فقد ذكر ابن الأبار نقلا عن أبي الفرج الجياني صاحب كتاب (الحقائق) : أنه أتاه في بعض غزواته أت ممن كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرائيق (٥) واقفة في جانب من معسكره وحشه على الخروج لصيدها فرفض قائلا :

دعني وصيد وقع الغرائق

فإن همتي في اصطياد المارق

في نفق إن كان أو في حائق

إذا التظت أوائج الضوائق

كان لفاعي ظل بند خانق

غنيت عن روض وقصر شاهق (٦)

ومنهم أيضا الحكم بن هشام الملقب بالريضي الذي كان شغوفًا بالصيد واللهو والقنص أيضا . وكان هذا من الأسباب التي اتخذها الفقهاء لإثارة الناس ضده وإشعالهم ثورة الربض (٧) .

وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذي يقول عنه ابن حيان : « وكان

(٥) الغرائيق : جمع غرنوق وهو طائر مائي أسود أو أبيض ، وقيل الكركى ، وقيل يشبهه .

(٦) الحلة السبراء ج ١ ص ٤١ والنواع والمفعة ما يتلفع به من رداء أو قناع أو غيره .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنس مع جواريه ، ويستمتع للأغاني « (٨) .
وقد ذكر الرازي أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرائيق ،
التي كان مولعا بها فابعد ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، ومعه ابن المشير
الشاعر فقال :

ليت شعري أم حديد خاتنا
أم نحتنا من صخرة صماء
كل عام في الصيف نحن غزاة
والفرانيق غزونا في الشتاء

إذ نرى الأرض والجليد عليها
واقع مثل شقة بيضاء (٩)

ويذكر ليفي بروفنسال : أنه كان يخرج في رحلات مع جاشيته
للصيد بالصقور ، وخاصة في سهل الوادي الكبير الذي تطل عليه
قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرائيق ، ويجب ملاحظة طائر الكركي بصفة
خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبا (١٠) .

كما كانت هناك رحلات صيد للأمير عبد الله بن محمد في جهة
عدوة النهر الأعظم بقرطبة (١١) .

وهذا يدل على مبلغ حب الأنراء للصيد ، وحرصهم إليه في رحلات
منتظمة .

وإلى جانب رحلات الصيد فقد كانت هناك رحلات للنزهة

(٨) المقتبس ص ٢٢٤ تحقيق د. مكي .

(٩) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب ج ١ ص ١٢٥ .

(١٠) الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهليهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن خيان : من أن الأمير عبد الرحمن الأوسط طلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أتم رسومها ، والتعجيل بذلك لتحرك في صبيحة اليوم التالي ، وطلب من الرائدة أن تأتية من خزانة الكسوة برداء يوسفى من الوشى ليصنع منه عريف الخياطين بالقصر ثوبا يلبسه في هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفي بعد صلاة المغرب ، فصار كفناله (١٢) .

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللخفاء لحنت في كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت ، فلولا الموت ما ملكناه أبدا (١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الرضى كان يلعب بالصولجان في القصر ، فجاءه الخبر بأن جابر بن ليبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه (١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه في سنة ٣٤٧هـ في عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

(١٢) المقتبس ص ١٦١ - ١٦٣ .

(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

الفاطميين ، وكان خروجاً فخماً ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجلاً ونساء وأطفالاً لمشاهدة العسكر وهم يهزون من الريض ، وأخذ العوام والغوغاء يتقاذمون بالحجارة محاكين صفى القتال ، فدخل بينهم قبوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحمى الوطيس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخر ، قبال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبهم ومن حولهم من المتفرجين ، وسلبوا النساء ثيابهم ، فأخذن يتوارين فى الحقول حياء وخجلاً حتى يحين وقت التفرق (١٥) .

وهذا شبيهه بما يحدث فى عصرنا من تجمع الكثيرين لمشاهدة مرور مركب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكري أو رياضى ، وما قد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مثالب واحداث .

كما يبدو أنه وجدت فى الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعتز على أمثلة لها فى العصر الأموى إلا أنه قد وجدت مخطوطة لألفونسو الحكيم (١٦) . فيها رسم للعبة شطرنج معقدة .

ومن المعروف أن العرب قد اقتبسوا الفرد والشطرنج عن الفرس ،

والله اعلم بالصواب .

(١٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحكم فى مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو العالم لشغفه بالعلوم والآداب ، له المدونة الكبرى فى تاريخ أسبانيا أو تاريخ أسبانيا العام وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩) ، (د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٦٩) .

وَأَدْخَلُوا عَلَيْهَا إِضَافَاتٍ وَتَحْسِينَاتٍ ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ هَاتَانِ اللَّعِبَتَانِ إِلَى أَوْرِبَا
وَاحْتَفَظَتْ بِبَعْضِ الْأَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ (١٧) . وَإِذَا كَانَ الشَّطْرُنْجُ قَدْ عُرِفَ
فِي الْمَشْرِقِ فَلَا تُشْكُ وَأَنْ يَكُونَ قَدْ انْتَقَلَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ أَيْضًا ، كَمَا عُرِفَ
فِي أَوْرِبَا .

أَمَّا عَنْ مَصَارِعَةِ الثَّيْرَانِ : فَالْوَاقِعُ أَنَّ الْعَصْرَ الْأُمَوِيَّ لَمْ يَشْهَدْ هَذِهِ
الرِّيَاضَةَ الْعَنِيفَةَ حَيْثُ لَمْ تَرُدْ إِلَيْنَا نصوصٌ تَفِيدُ ذَلِكَ ، وَأَوَّلُ إِشَارَةٍ وَرَدَتْ
إِلَيْهَا تَعُودُ إِلَى عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ ، حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفَ كَانَ
يَرُوضُ الْأَبْقَارَ ، وَأَنَّ حَيَاتِهِ انْتَهَتْ بِطَعْنَةٍ مِنْ قَرْنٍ بِقَرَّةٍ فِي صَدْرِهِ فُتُقْتَلُ
سَنَةَ ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م ، ثُمَّ وَرَدَتْ إِشَارَاتٌ كَثِيرَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ لِسَانِ الْمَدِينِ
ابْنِ الْخَطِيبِ مَوْرَخِ غَرْنَاطَةَ وَابْنِ زَمْرَكِ شَاعِرِ الْحَمَاءِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ
تَعْطِينَا مَعْلُومَاتٍ مُفِيدَةٍ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ (١٨) .

كَمَا كَانَ هُنَاكَ مَا يَشْبَهُ حَدَائِقَ الْحَيَوَانِ فِي عَصْرِنَا . حَيْثُ يَرُوى
أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْفَاصِرَ عِنْدَمَا بَنَى مَدِينَةَ الزَّهْرَاءِ اتَّخَذَ فِيهَا مَحَلَّاتٍ لِلْوَحُوشِ
فَسِيحَةَ الْفَنَاءِ مُتَبَاعِدَةَ السِّيَاحِ ، وَمَسَارِحَ لِلطُّيُورِ مَظَلَّةً بِالْأَشْبَاكِ (١٩) .
وَالِى جَانِبِ ذَلِكَ فَهَقْدَ كَانَتْ هُنَاكَ أَمَاكِنُ يَقْصُدهَا أَرْبَابُ اللَّهْوِ وَالْفُسُوقِ .
حَيْثُ يَذْكَرُ ابْنُ عِذَارَى أَنَّ الْحَكَمَ الرِّبْضَى أَمَرَ بِهَدْمِ فُنْدُقٍ كَانَ بِالرِّبْضِ ،
وَكَانَ مُتَقَبَلَةً مِنْ أَهْلِ الْإِضْرَارِ وَالْفُسْقى ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَشْفِ مِنْهُ أَنَّ هَذَا
الْفُنْدُقَ كَانَ مَكَانًا يَجْتَمِعُ فِيهِ أَهْلُ اللَّهْوِ وَالْفُسَادِ لِمَآرِسَةِ مَتْعِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ .
وَيَصِفُ ابْنُ عِذَارَى هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْجَبَّارِ فَيَقُولُ إِنَّهُ أَظْهَرَ مِنَ الْخَلَاعَةِ

(١٧) أَحْمَدُ أَمِينٌ : ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(١٨) أَنْظَرَ الْمُخْتَارَ مِنْ عَالَمِ الْفِكْرِ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٩) الْمُقَرَّى : نَفْعُ الطَّيِّبِ ج ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ،
ومائة بوق للزمر ، ومائة عود للضرب ، وكان له غلام صقلبي يتعشقه
عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية تسمى
بستان كانت لأبي القاسم المصرى الخيالى ، وامرأة أبى الشرخ وتسمى
واجسد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله امر لا يظهر إلا من أهل
الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشتتاً بالفسق مظهراً للخلاعة ،
لا يفيق من سكر ، ولا يرعوى عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي حتى قال
بعضهم فيه :

أمير الناس سخرة كل عين
يبيت الليل بين مخنئين
يجشم ذا ويلثم خد هذا
ويسكر كل يوم سكرتين
لقد واؤا خلافتهم سفها
ضعيف العقل شيئا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيه كثير
من هذا يطول الكتاب به » (٢٠) .

ومن الواضح أن مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة
فى المجتمع الأندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فيشير الشقندى فى
رسالته فى تفضيل الأندلس على المغرب إلى أن هذا الوادى لا يخلو
من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشراب الخمر فيه غير منكورة ، لا ناه
عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعريضة (٢١) .

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢١) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر القري : أن أهل الأندلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون
ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد (٢٢) .

والحقيقة أن المجتمع الأندلسي قد اتسم بالحدة والقطر في نظراته
بالأشياء . فقد وجدت بينات كلها علم وزهد وتقى ، كما وجدت إني جانبها
بينات أخرى مالت إلى التحرر والزهو والترف والمجون ، وعاشت حياة
صاخبة لاهية . وانساق الكثيرون مع هذا التيار المميت الذي غرقهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمه الشعراء الأندلسيون من شعر الخمر والغزل
لخيل إلينا أن المجتمع الأندلسي لم يعرف غير ذلك ، ونرى المقابل إذا قرأنا
ما نظموا في شعر الزهد والتصوف وما ألفه المتهباء من مؤلفات قلنا
إن هذا المجتمع كان كله مجتمع زهد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخر
مع الاختلاف النسبي بين مجتمع وآخر فى ناحية من النواحي .

* * *

المرأة ودورها

لعبت المرأة فى المجتمع الأندلسى دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء فى مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافية ودينية .
وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة فى الأندلس كانت تتمتع بقدر من حرية الحركة ، والمشاركة فى الحياة العامة أكثر من قرينتها فى المشرق (١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شىء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحية الحجاب فقد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والسرارى فكان يسفرن عن وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفى لما جالست الرجال ، وشاركتهم فى الشعر والأدب قبل ذلك منها بشىء من الاستهجان والاستغراب (٢) .

ولم تمدنا المصادر بالكثير عن المرأة فى المجتمع الأندلسى وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خلال الأخبار القليلة التى عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة فى هذا المجتمع .

لقد كثرت الجوارى فى المجتمع الأندلسى نتيجة لكثرة الحروب والمعارك التى خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية فى اسبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى فى أوروبا وغيرها . يقول المراكشى عن المنصور بن أبى عامر : « وملا الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٠ .

... الخ « (٣) . ويذكر ابن الأبار أنه في إحدى غزواته لمملكة جليقية سنة ٣٧١ هـ عاد بأربعة آلاف سبية (٤) .

وامتثلت بنوت المسلمين في الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهم من النسل المولد من ناحية العادات والتقاليد واللغة وغير ذلك .

كما كان لبعض الجوارى وامهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفاء والكبراء . ويشير ابن حزم في بداية الفصل الأول من كتابه (طوق الحمامة) إلى جانب من الحياة العاطفية للأمراء الأندلس وخلفائهم فيقول « وقد أحب من الخلفاء المهديين والائمة الراشدين كثير منهم باندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتنانه بصبح أم هاشم (هشام) المؤيد بالله وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ... وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبي عامر بواجد بنت رجل من الجنائين (البستانيين) حتى حملها أن يتزوجها ... الخ « (٥) .

ومن الأمثلة التي وردت ما ذكر من أن الحكم الرضي كان شغوفا بخمس جوار عنده قد اختصن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يوما

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .

(٤) الحلة السيرة ج ١ ص ٢١٦ .

(٥) طوق الحمامة ص ١٩ - ٢٠ .

للدخول عليهن فأعرض عنه وكان لا يصبر عنهن فقال :

قصب من البان ماست فوق كثران

أعرضن عني وقد أزمعن هجراني

ناشدتهن بحقي فاعترزن علي

الهجران حتى خلا منهن هيماني

ملكنتي ملك من ذلت عزيمته

للحب ذل أسير موثق عاني

من لي بمفتصات الروح من بدني

غصبتني في الهوى عزى وسلطاني

ولما عدن عليه بالوصال قال :

نلت كل الوصال بعد البعاد

فكأنني ملكت كل العباد

وتناهى السرور إذ نلت ما لم

يفن فيهن تكائف الأجناد (٦)

ويذكر أن من شعره فيهن قوله :

ظل من فرط حبه مماوكا

ولقد كان قبل ذاك يدعى مليكا

إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما

وبعادا يدنى حماما وشيكا

تركته جاذر القصر صبا

مستهاما على الصميد تريكا

يجعل الخد مائلا فوق ترب

وهو لا يرتضى الحرير أريكا

(٦) الحلة السيرة ج ١ ص ٥٧ .

(م ٢١ - المجتمع الأندلسي)

هكذا يحسن التذلل للحبر

إذا كان فى الهوى مملوكا (٧)

ومن أمثلة ذلك أيضا (طروب) جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط وأم ولده عبد الله التى وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر أنها كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرفض لها طلبا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذى كان من جارية أخرى تدعى بهير (٨) . وبالزعم من انكشاف هذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضره له إلا أنه لم يعاقبها وظل على حبه لها (٩) .

ويذكر أنه بلغ من حبه لها أنها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هذه الأبيات بشيء من الاختلاف فى بعض اللفاظ ويقول : وله فى النسيب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسيب فيهن . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ٤٩) .

(٨) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس فى هذه المؤامرة مستدلا على ذلك بأن الأمير لم يغضب على طروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة فى وقوع هذه المؤامرة فأمثالها كثير فى عصور التاريخ المختلفة . والسبب فى عفوه عنها هو حبه الشديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب كيلة كما قال الشاعر . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ هامش ١) .

أن يرضأها بعد أن تمنعت عليه فأمر بسد باب حجرتها ببدر الدراهم
من الخارج . ولما رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخل الحجرة
فأخذت في جمعها ثم أقبلت عليه واكبت على رجله تقبلها (١٠) .

كما يروى أنه أعطاها عقدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولما استعظم
بعض وزرائه ذلك قال : ويحك إن لابس العقد أنفس خطرا ، وأرفع
قدرا ، وأكرم جوهرا ... الخ « (١١) .
ويذكر أن له فيها شعرا يقول فيه :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيب

فما أقطع الليل إلا نحيبا

وأما بدت لي شمس النهار طالفة ذكرتني طروبا

فيا طول شوقي إلى وجهها

ويا كبدا أورثتها ندوبا

ويا أحسن الخلق في مقلتي

وأوفرهم من فؤادي نصيبا

لئن حال دونك بعد المزار من بعد أن كنت منى قريبا

لقد أورث الشوق جسمي الضنى

وأضرم في القلب منى لهيبا

(١٠) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢ .
ويذكر ابن عذاري أن مقدار هذه الدراهم كان عشرين ألف
درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة للسيرة ج ١ ص ١١٦ وقد ذكر المقرئ أنه أعطاها
حليبا قيمته مائة ألف دينار (نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣) .

عدانى عنك مزارا لعدا

وقودى إليهم لها ما أهيها (١٢)

وذكر ابن سعيد المغربى أنه فى إحدى غزواته جاءه طيفها فى المنام فاشتاق إليها ، فاستخلف على الجيش قائدا ، ورجع إلى قرطبة للقائها (١٣) .

ولكننا نعتقد أن أمثال هذه الروايات فيها شىء من المبالغة فلا يمكن أن تصل الأمور به إلى هذه الدرجة — مهما بلغ حبه لها — بحيث يترك جيشه ويعود إليها مجرد أنه رأى طيفها فى المنام .

صحيح أن عبد الرحمن كان كثير الأولاد ، حيث بلغ عدد أولاده مائة كما يقال — خمسون من الذكور وخمسون من الإناث — (١٤) ، ووصفه الكثيرون بأنه كان مولعا بالنساء شديد الميل لهن ، ولكن بالغ البعض فى ذلك مبالغة شديدة لا تتفق ومقامه كحاكم أو أمير مسلم .

(١٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ — ١١٥ وقد أورد ابن عذارى هذه الأبيات ابتداء من البيت الأخير وبعده الثمانية أبيات الأخرى التى ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشية الإطالة وقال ابن عذارى : إن عبد الرحمن قالها عندما خرج لغزو مملكة جليقية سنة ٢٣٥ هـ ، ولكنه أخطأ فقال عبد الرحمن بن الشهر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطأ مطبعيا (البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ — ٨٦) .

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظر : ابن حيان : المقتبس ص ١٤٩ تحقيق د. مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ — ٥٢ ، نفع الطيب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ٤٧ . وقد ذكر ابن سعيد أنه كان لا يتخذ منهن ثيبا البتة .

بومثال ذلك ما ذكره المقرئ من أنه بلغ من حبه للنساء أن وقع على جارية في شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقال له يحيى الليثي كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بنية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تفتنه بمذهب مالك في التخيير ؟ قال : لو فتحنا هذا الباب له سهل عليه أن يظا كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود (١٥) .

فلا يمكن لحاكم مسلم أن يفطر عبدا في نهار رمضان من أجل جارية هي ملك يمين له في أي وقت من الأوقات في غير نهار رمضان . ومن المبالغات أيضا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه أمره طوال حياته أربعة : فقيه ومغن وجارية وعبد » (١٦) .

ويذكر أنه كان لعبد الرحمن جوار أخريات منهن : (الشفاء) التي اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة تقيّة عاقلة خرجت معه في إحدى غزواته فمرضت فأعادها إلى قرطبة ، فماتت في الطريق ودفنت في قرية مجاورة لطليطلة . وجارية أخرى تدعى (مدثرة) اعتقها وتزوجها كذلك (١٧) .

وجارية ثالثة تسمى (فخر) وهي التي بلغته بخبر المؤامرة التي دبرت ضده بعد أن أخبرها الحراني الطبيب الذي كلفه نصر بوضع

(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب في اسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفقيه يحيى الليثي كبير الفقهاء ، وبالفنّي زرياب ، وبالجارية طروب ، وبالعبد نصر الخصي .

(١٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

السم في شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات (فضل وعلم
وقلم) (١٨) .

ويروى أنه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء .
كان شغوفاً بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها
باسمها عندما طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر
ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى
الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فشكر الله ، وقالت له جاريته الزهراء :
اشتيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبنّاها
تحت جبل العروس شمال قرطبة (١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ،
والواقع أن الناصر كان شغوفاً بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق
به وبدولته بعد أن تلقب بالآب الخليفة . يقول ابن خلدون : « ولما
استفحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمباني » (٢٠) .
ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكراه تلك الأبيات التي تنسب إليه :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محتله حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره
أضحى يدل على عظيم الشأن

(١٨) الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ هامش ١ ، البيان المغرب ج ٢

ص ٩٣ ، د. الشكعة : الأدب الاندلسى ص ٤٤ .

(١٩) انظر المقرئ ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهران أو مرجانة استولدها ابنه
الحكم ، وأطلق عليها لقب (السيدة الكبرى) . ذكر أنها أرادت أن
تبهج الناصر يوما ، فاشتريت زرزورا وعلمته أبياتا من الشعر حتى إذا
جلس الناصر للفصد ذات يوم فى بهو المجلس الكبير المشرف على مدينة
الزهراء ، وبدأ الطبيب فى العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهب
واخذ يردد : أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل عنه فذكر أن أم ولده هى التى
فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار (٢١) .

كما كان لصبيح البشكنسية (٢٢) حظية الخليفة المستنصر ، وأم
ولده هشام نفوذ كبير فى حياة زوجها وبعد مماته عندما ولى ابنها
الخلافة وهو غلام صغير فى العاشرة من عمره سنة ٣٦٦ هـ ، وكان
الحكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخلافة — يذكر أنه
وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين — وبعد تقلده الخلافة
بأربع سنوات رزق بهشام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها
أم ولده وسبت مكانتها عنده (٢٣) .

(٢١) العبر ج ٤ ص ١٣٧ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم
ينادىها بحعفر تدليلا لها (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد
الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور الأندلسى)
ص ٣٥) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قد رزق بولد سماه عبد الرحمن سنة
٣٥١ هـ ولكنه توفي طفلا صغيرا . (انظر ابن الأبار : الحلة
السيرة ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠٣ هامش ١) .

وقد اتخذت من محمد بن أبى عامر الذى لقب بالمنصور كاتباً لها ووكيلاً للنظر فى أموالها وضياعها ، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » (٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان ينفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى أنه صاغ لها تمثالاً من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيراً ، حتى أخذ الناس يتحدثون بشأئه زمناً طويلاً . وقد أعجبت به صبيح أيها إعجاب ولما تحدثت الساعة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبى عامر سبيلاً إلا رد قيمته ، فاقترضا من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة (٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للأقاويل من العلاقة بين المنصور وبين صبيح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما يلغه من نفوذ ومكانة (٢٦) .

وأياً ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة - بمثابة رئاسة الوزارة - بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور فى الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة العامرية التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية (٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما أخرج فى غزوته

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢٦) د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ١٩ وبعدها .

(٢٧) د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٤ وبعدها .

المعروفة (بشنت اشنتين) سنة ٣٥٢ هـ اُكثرت من التعلق به والحزن
لفراقه فقال مستعجرا :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت
وكيف انثنت عند الفراق يدي معي
فيا مقلتي العبرى عليها أسكى دما
ويا كبدي الحرى عليها تقطعى (٢٨)

وكما تمتعت زوجات الخلفاء بشيء من النفوذ فقد كان لبعض
زوجات الطبقات الأخرى نفوذ أيضا مثل (تكفات البربرية) زوجة
محمد بن زياد اللخمي قاضي الجماعة بقرطبة في عهد عبد الرحمن
الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حيان « ذات دالة عليه على ما تفعله
الزوجات الحظيات » (٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون في إقتناء الجوارى منافسة شديدة
وصلت إلى حد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الأبار : أن مروان بن محمد
ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها
له ، ثم استأثر بها دونه ، فاشتدت غيظه لذلك ، وانتهر فرصة خلوا أبيه
معها فقتله ، فاعتقل وسجن في عهد المنصور بن أبي عامر ست عشرة
سنة ، ثم أطلق سراحه فسمى (بالطلاق) ، وكان أدبيا شاعرا مكررا
تشبهه ابن حزم بابن المعتز من بني العباس في ملاحه شعره وحسن
تشبيهه (٣٠) .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢٩) المقتبس ص ٢١٠ تحقيق د. محمود مكي ، وقد ذكرها الخشنى : كنات

بدون تاء في البداية انظر (قضاة قرطبة ص ١٠٦) .

(٣٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللاتى كان لهن أثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبانيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل عجب جارية الخليفة الحكم الرضى التى أقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، وأقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريتها متعة التى أقامت مسجدا أيضا على نفقتها نسب إليها (٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالريش الغربى فى قرطبة (٣٢) .

كما شاركت بعض النساء أيضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى أنه كان فى الريش الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة لنسخ المصاحف بالخط الكوفى (٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين ودرس الأدب .

وكان كثير من الخاصة يعينون مؤديات لبياتهم . فيذكر خوليان ريبيرا : المستشرق الأسباني : أنه كان لجنى حزم — وهم غير أسرة ابن حزم — الفقيه الأشهر — مدرسة من أشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .

(٣٢) طوق الحملة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة الغربية ص ٧٣ .

(٣٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك في القرن الثالث
تقريباً (٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الأندلس مثل راضية مولاة
عبد الرحمن الناصر التي اعتنقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى الصقلي
وحجاً معها ولقيا جماعة من العلماء أخذوا عنهم ، ونسخاً مجموعة من الكتب
وقد توفيت في حدود سنة ٤٨٣هـ (٣٥) .

ومن النساء اللاتي برزن في مجال الأدب الشاعرة حسانة التميمية
بنت أبي الحسن الشاعر وكانت من أهل البيرة ، وقد تأديت على أبيها
ولما توفى ذهبت إلى الحكم الرضوي ومدحته بأبيات منها :

إني إليك أبا المعاصي موجهة

أبا الحسين سقته الواكف الديم

قد كنت ارتع في نعماء عاكفة

فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له

وملكته مقاليد النهي الأم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته — وكان يقرض الشعر —
بوامر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على البيرة ، فجهزها بجهاز
حسن (٣٦) .

(٣٤) التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٦٢ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، التربية الإسلامية ص ١٦٣ .

(٣٦) انظر نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. أحمد
هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٠٦ — ١٠٧ . وانظر عن شاعرات
الأندلس د. الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢١٩ وبمدها .

ومن اللاتى برزن فى مجال الادب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون
الحجارية وكان من شواعر الاندلس فى المائة الرابعة ، من وادى الحجارة
ومن شعرها فى الغزل :

لى حبيب لا ينثنى بعقاب
وإذا ما تركته زاد تيهها
قال لى هل رايت لى من شبيهه
قلت ايضا وهى ترى لى شبيهها (٣٧)

ومن النساء اللاتى اشتهرن بالعلم والزهد أيضا : البهاء بنت
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى أمية ، وقد اشتهرت
بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر أنها كانت تكتب المصاحف وتحبسها
على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد
توفيت سنة ٣٠٥هـ (٣٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن دحون الوليد بن حبيب المروانى ،
وكانت جارية سوداء اهديت إليه عندما حج ، وقد اشتهرت برواية
الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف
حديث . اى تحفظها بسندها - وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى
الاندلس ، فتزوجها واستولدها ابنه بشر (٣٩) . الذى عرف بالحبيبي
وأصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت
بالرواية عنه أيضا (٤٠) .

وليس من شك فى أن إتاحة الفرصة للمرأة الاندلسية فى مجال
العلم والثقافة قد صقل من شخصيتها ، ووسع من مداركها وآفاق
تفكيرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها .

-
- (٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : المقتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكى ، ابن عذارى :
البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) المقتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الاندلس ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

الحالة الاقتصادية

الحالة الاقتصادية

موقع الأندلس ومناخها :

وصف كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحي شتى . فقد ذكر الرازي — وهو أحد مؤرخي الأندلس المتقدمين (ت ٣٤٤ هـ) — « أن الأندلس تقع في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي ربع المعمور الدنيا . فهي موسطة البلدان ، كريمة البقعة بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة الشائعة ، منبسجة المعيون الثراء ، متفجرة الأنهار الغزار ، قليلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيطها زيادة منكرا تضر بالأبدان ، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال ، وتوسط الحال » (١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عند قادس ، والثاني ما بين أربونة وبرذيل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغرب من إقليم جليقية (٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحالة الشيعي الذي زارها في القرن الرابع الهجري : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والبسعة في الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التهلك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رغد المعيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنيهم وأرباب صنائعهم لقلة

(١) المقري : نفع الطبيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم» (٣) .

وقال أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ) — الذى يعتبر من أوائل الجغرافيين الذين أنجبته بلاد الأندلس — : « الأندلس شامية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظيم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها » (٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الأموات ، وفرادة الحيوان ، ودرور الفسواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطبائع ، ونفوذ الإدراك ، وأحكام التمدن والاعتماد بما حرمه الكثير من الأقطار » (٥) .

وذكر أبو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : أن الأندلس عند علماء أهل أندلسان : فالأندلس الشرقى ما صبت أوديته إلى البحر الرومى (البحر المتوسط) ما بين مرسيه إلى سرقسطة ، والأندلس الغربى ما صبت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم قسما ثالثا هو وسط الأندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجيان والمرية ومالقة وغرناطة .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه ج ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٦٤ .

أما شرق الأندلس فتقع فيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية ودانية ومرقسطة ، وأما غرب الأندلس فتقع فيه اشبيلية وماردة واشبونة (لشبونة) (٦) .

البيئة الطبيعية :

الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوروبا ، تحيط بها المياه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالي الشرقي حيث تفصلها جبال البرتات — أي المنافذ — (البيرينية — البرانس) عن فرنسا .

ويبلغ طولها نحو ألف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميل . وتتألف من هضبة كبرى تسمى (مسيتا) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ، ومجموعة من السلاسل الجبلية التي تطوقها ، ومن أشهرها في الجنوب جبال (سيرانورينا) أي سلسلة الجبال الحمراء ، ومن أهم جبال هذه السلسلة جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين العرب باسم (جبل العروس) (٧) . وتفصل هذه الجبال بين الهضبة الكبرى والسهل الجنوبي الكبير المنبسط حتى أقصى الجنوب . وترتفع في السهل الجنوبي سلسلة جبال أخرى تسمى (سيرانيفادا) أي سلسلة الجبال الثلجية ، وتمتد في شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال أخرى هي الجبال الأيبيرية ، وتفصل هذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقي المنبسط حتى

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٨ ، الحبري : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ص ٥٣ ، القرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

(م ٢٢ — المجتمع الأندلسي)

ساحل البحر المتوسط . وفى شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هى جبال (كانتا برسيا) أو القنطرية كما تعرف فى المصادر العربية . وتلى هذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية الغرب حتى تنتهى إلى السهل الغربى الكبير .

وتجرى فى الأندلس عدة أنهار أهمها نهر الوادى الكبير — الذى لا يزال معروفا بهذا الاسم فى إسبانيا حتى اليوم مع شىء من التحريف حيث يسميه الأسبان : (جواد الكبير Guad al Quivir) ويروى أراضى السهل الجنوبى ويمر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا فى المحيط الأطلسى ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة فى الشمال منها ويطلق عليه الأسبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

وهناك أنهار أخرى تصب فى البحر المتوسط ، ومنها نهر إيرة الذى تقع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر شقر الذى يسميه الأسبان — خوكر — وعليه تقع جزيرة شقر التى كانت مصدر إلهام للكثير من الشعراء .

ونهر سنجورا أو شقورة الذى يخترق مدينة مرسية ، ويروى قسما كبيرا من أراضى شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب مياه الأمطار والثلوج التى تعتمد عليها الزراعة أساسا فى منطقة الهضبة الوسطى (٨) .

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٥ وبمدها :

د. أحمد هيكى : الأدب الأندلسى ص ٦ — ١٠ .

د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ — ١٦ .

دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ — ٤ .

وهكذا نرى أن طبيعة الأندلس ليست واحدة ، وإنما هى مكونة من سهول وهضاب وجبال وأودية ، ففيها المناطق الخصبة ، والمناطق الجبلية القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على أنها جنة . ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قد نزلوا بالمناطق الخصبة وأقاموا فيها وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التى تقع ضمن الهضبة الكبرى ، وأصبحت هى مركز المقاومة الإسبانية المسيحية ضد المسلمين لاسترداد البلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون أن الأندلس عبارة عن جنان وارفة ومياه غزيرة ويساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسى ابن خضاجة الهوارى (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) الذى عاش فى عهد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة وصفه للرياض والبساتين :

إن للجنة بالأندلس

مجئلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجى ليبتها من لعس

وإذا ما هبت الريح صبا

صحت واشموقى إلى اندلس (٩)

وتوله :

يا اهل اندلس اله دركم

ماء زرع واشجار وانهار

ما جنة الخلد إلا في دياركم

ولو خيرت هذه كنت اختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سمرا

فأيس تدخل بعد الجنة النار (١٠)

ومثل الشاعر الذي يقول :

حبذا أندلس من بلد

لم تزل تنتج لي كل سرور

طائر شاد وظل وارف

ومياه سائحات وقصور (١١)

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمناخ من إقليم لآخر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هذا الاختلاف إلى التنوع في حاصلاتها الزراعية .

الزراعة :

كان المسلمون عند فتحهم لبلاد من البلاد صالحا يتركون الأرض بأيدي أهلها في مقابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصالح المسلمين ، فيؤخذ عنها الخراج أيضا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضا

(١٠) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٤ .

دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخراج (١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس
تضوا على النظام الذى كان سائدا فى عصر القوط حيث كانت الأراضى
فى يد عدد قليل من الأشراف والنبلاء ورجال الكنيسة ، بينما كان سائر
السكان من المزارعين بمثابة الأقبان الذين يعملون فى هذه الأراضى
لصالح تلك الفئات القليلة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت
على الفاتحين إلى جانب سكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حرية
التصرف فى هذه الأرض . وكان ذلك عاملا مهما فى تحقيق فكرة التضامن
الاجتماعى بين السكان .

وأصبحت هذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم النهضة
الزراعية بالأندلس . وكان ملاك الأراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود
وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هذا أيضا من العوامل
التي ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السمع بن مالك
الخولانى ١٠١هـ أصبح ملاك الأرض والمزارع شبه شريكين فيها ، وكذلك
أصبح العرب شركاء للكثير من الأسبان بعد توزيع الأراضى بين عرب
الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع
الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين (١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القديمة
وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجال

(١٢) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ ، د. حسن

ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(١٣) انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦١ — ٦٢ ، د. منى

حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٧ .

الزراعة بأقل من تقدمهم في مجال الحرب والجهاد ، ونجحوا في تحويل أجزاء كبيرة من الأراضي المقفرة بالاندلس إلى أراضٍ صالحة للزراعة (١٤) .

كما أدخلوا محاصيل جديدة من المشرق مثل النخيل والرمان الذي أدخلت زراعته من الشام — وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ابن عبد الملك — في عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد الكلاعي وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه فسمى بالرمان السفري . ويصف ابن حيان هذا النوع بأنه (الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم وغزارة المَاء وحسن الصورة ، وكذلك النارنج الذي لازال يعرف في الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .

والقطن الذي انتقلت زراعته إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري ، واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى رأسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذي تكثر زراعته في جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندي الذي لازال يعرف في الأسبانية باسم سانديا Sandia (١٦) .

كما أدخلت زراعة قصب السكر حيث يفهم من كتابات بعض المؤرخين الأندلسيين مثل الرازي وعريب بن سعد القرطبي أنه كان ينتج بكميات كبيرة بالاندلس في القرن الرابع الهجري ، وكان من أهم مراكز زراعته البيرة ، ومالقة ، وإشبيلية (١٧) .

(١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٨ .

(١٥) عبد الحميد الشرقاوي : الحياة الاقتصادية في الأندلس في القرون الرابع الهجري ص ٦٠ .

(١٦) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب في اسبانيا ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذي أدخلت زراعته في شرق الأندلس وخاصة في منطقة بلنسية التي تعتبر اليوم هي المستودع الرئيسى للأرز في أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى (بائليا Paella) .
ويلاحظ أن كلمة أرز قد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفظ Arroz وكذلك أدخلت بعض الخضروات التي لازالت تحتفظ بأسمائها العربية أيضا كالباذنجان والخرشوف والزيتون والزعفران ، والسلق وغير ذلك (١٨) .

وقد كانت أكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته في حوض البحر المتوسط مثل القمح والشعير والقطن والكتان والأرز والبقول والمواالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها . يقول الرازى مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم » (١٩) .
هذا إلى جانب الغابات الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد مثل أشجار اليلوط والسنديان والصنوبر وغيرها (٢٠) .

وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس في العصر الأموى الاهتمام بشؤون الري مثل إنشاء الترع والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

(١٨) الحيمرى : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٨٣ .
(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

وهناك ظاهرة طبيعية أحسن المسلمون استغلالها في الأندلس في مجال الزراعة ، وهي كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلئ بالمياه ، وترفع منها بالثواجير (السواقي) لتستخدم في الري . ولا تزال إحدى هذه القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم في جنوب بلنسية بأسبانيا (٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين في مجال الري (محكمة المياه) التي كانت تعقد ن الأهالي لتنظيم توزيع المياه على الفلاحين ، وهي محكمة أهلية لا دخل للحكومة بها ، وكان حكمها نافذا على الجميع ، وما زال هذا التقليد معمولا به في بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة كل يوم خميس عند الظهر في نفس المكان القديم الذي كانت تعقد فيه بجوار مسجد المدينة الذي تحول بعد الاستيلاء عليها من الإسبان إلى كنيسة . ويلاحظ في هذا الصدد أن أسماء كثير من أدوات الري والزراعة قد دخلت في اللغة الأسبانية ولا زالت إلى اليوم مثل الناعورة Noria والساقية Acequia (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع كانوا يسمونه (الخطارة) (٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف (بالتقويم القرطبي) أصبح

(٢٠) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

دليلا تحدد على أساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة ، وأخذة عنهم .
غيرهم من الأمم (٢٥) .

كما عرف الأندلسيون (نظام القلب والتذيل) لإعداد الأرض
للزراعة ، واستخدموا الثيران في حراث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول
باسم (الرقع) ، ويسمون المرعى باسم (المجثر) (٢٦) .

وقد وجد هناك نظام إقطاع عسكري حيث يعطى جنود الجيش
أراضي تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو عن طريق غيرهم ، ويتعيشون
منها . وظل هذا النظام — كما يبدو — معمولاً به حتى جاء المنصور
ابن أبي عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب في الجيش ، وقد أفاد
هذا النظام الجديد في القضاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق
الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء
المرابطون فأعادوا نظام الإقطاع العسكري من جديد في القرن الخامس .

ويفصل ذلك الطرطوشي فيقول : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس
من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ،
وامر العدو في ضعف وانتقاص لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد ،
فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربي التاجر تجارته .
وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافرّة ، والأجناد متوافرين ، والكراع
والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر ،
فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبونها
فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم واستضعفوه ، فتهاربت الرعايا ،
وضعفوا عن العمارة ، فماتت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعت

(٢٥) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ .
(٢٦) انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكشى : المعجب
ص ٢١ .

الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل
امر المسلمين فى نقص وامر العدو فى ظهور إلى أن دخلها المتلثمون
(المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم » (٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضها وبساتينها وجنائها العامة التى
كانت متاحة للجميع يتمتعون بها ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنزعة
جمالية ، ويميل كبير لمحبة النبات والورود والأزهار وزراعة الأشجار .
ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضلاً عن العمائر والقصور ،
بل حتى فى أبنية المساجد . ودليل ذلك أن مذهب الأوزاعى الذى
اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيع غرس الأشجار فى صحن المسجد ،
ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم
ظلوا فى هذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قول
ابى الحسن النباهى « ومن المسائل التى خالف فيها أهل الأندلس قديما
مذهب مالك بن أنس ، هى أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها
وهو مذهب الليث بن سعد ، وأجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهو
مذهب الأوزاعى » (٢٨) .

ولازالت هذه العادة موجودة فى إسبانيا إلى اليوم حيث توجد
أشجار الليمون والبرتقال فى صحن جامع قرطبة ، وفى بعض الكنائس
أيضا (٢٩) .

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩ . نشر ليفى

بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

الصناعة :

أما عن الصناعة بالاندلس فقد كان للمسلمين أيضا أثر كبير في نهضتها وترقيتها وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل منها :

١ — استغلال المسلمين لثروات البلاد الطبيعية ، وبذلهم جهودا كبيرة في هذا المجال (٣٠) .

٢ — روح التسامح التي أبداهها المسلمون تجاه أهل الحرف والصنائع .

٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتاج إليه البلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأندلس مثالا فيقول « كالحال في الأندلس لهذا العهد . فإننا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ... وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده ... وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آمد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

(٣٠) أشار المقرئ إلى كثير من هذه الثروات في نفع الطبيب ج ١

جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق» (٣١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الأسبان وشملوا أهل الصناعة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصناع وأرباب الحرف المختلفة يسيرون في نفس الطريق الذي كانوا يسيرون فيه من قبل مع بعض التغيرات الطفيفة في تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث أكثر هؤلاء أن وجدوا أنفسهم يخاطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فاقبلوا على الثقافة العربية ، ودخل الكثير منهم في الإسلام ، وتحققت بذلك النقطة الحضارية الهائلة في العصر الأموي وخاصة في عصر الخلافة ، وصيغ في ذلك العصر فن إسلامي أندلسي أخذ يتدرج في النمو والتطور (٣٢) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض المصناعات في الأندلس فإننا نجد منها :

صناعة المنسوجات : التي انتشرت في أنحاء كثيرة من البلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الأصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم (بوقلمون) يصنع في مدينة شنترين غربى الأندلس بألوانه المتغيرة (٣٣) . كما كان

(٣١) المقدمة ص ٢٨٢ فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .

(٣٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٣٣) قيل : في تفسير كلمة (بوقلمون) أنها اسم للحرير باليونانية ، وقيل : إنها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش في المحيط الأطلسي غرب الأندلس ، وكانت تحتك بحجارة الشاطئ ، فيقع منها وبر في لين الحرير ولون الذهب ، فيجمع وينسج في مدينة شنترين ثيابا تتلون بعدة ألوان (المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣١) .

يصنع فى الأندلس أيضا النسيج الحريرى المعروف باسم (العتايى)
الذى انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس نظرا لكثرة
اشجار التوت . حيث يشير المؤرخ الأندلسى عريب بن سعد القرطبى
(ت ٣٦٩ هـ) إلى قيام النساء بتربية دود القز ، ورعاية بيضه ، وانتقاء
شرائقه من شهر فبراير حتى يفقس فى شهر مارس من كل سنة (٣٥) .

وكان من أهم مراكز هذه الصناعة قرطبة والمرية التى يقدر القرى
عدد الأنوال فيها فى عصره (ت ١٠١٤ هـ) بنحو خمسة آلاف وثمانمائة
نول (٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحرير والديباج . ويذكر
ابن سعيد المغربى عن الحضرمى قوله « وكما يتجهز الفارس من تلمسان ،
تتجهز العروس من مرسية » (٣٧) .

وحينما زار الرحالة ابن حوقل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى
اشاد بأنسجة الديباج الأندلسية ، وبالسروج الحريرية ، وذكر أنها فاقت
فى صنعها أى مكان فى العالم ، وأنها تزيد فى كمياتها على ما ينتج فى بلاد
العراق (٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة فى مدينة إشبيلية

(٣٤) سُمى بذلك نسبة إلى محلة العتابية فى غرب بغداد وهى موطن
صناعته الأصلى .

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .

(٣٦) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٣٧) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣٨) صورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التي كان يزرع فيها القطن ، وكان يصنع بها نوع من الأقمشة يقي من الأمطار . كما وجدت أيضا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت هناك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيد الصقل في الرقة والبياض ، وكان من أهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة (٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة في سرقسطة وجنالة ، ولا تزال إسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغذية (البطاطين) والسجاد ، ولعل الصوف الإسباني المعروف باسم (مارينو) ينسب إلى قبائل بني مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وكانت لهم مراعى كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه (نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب) .

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسطة وتنتالة في شرق الأندلس ، ولعل كلمة (الفوميرا) الإسبانية التي تعنى سجادة قد جاءت من الكلمة العربية (الخيرة) أى الحصيرة أو من الحمرة لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها (٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في أوروبا وحرص الكثير من الملوك والأمراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولا تزال هناك نماذج في بعض المتاحف الأوروبية تشهد بمدى براعة الأندلسيين في هذه الصناعة مثل متحف فيجو بقطالونيا في إسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية بهدريد ، ومتحف الفن في بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا (٤١) .

(٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٤٠) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأمراء والخلفاء ورجال الدولة والجند تسمى دور الكسوة أو دور الطراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى أيامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الأفاق » (٤٢) .

يقول ابن خلدون عن الطراز « من أبهة الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إلحاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضع فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصدا للتبويه بلباسها من السلطان فمن دونه ، أو التبويه بمن يختصه السلطان بملبوسه ، إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ... الخ » (٤٣) .

صناعة السفن والأخشاب :

كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وساعد على ذلك كثرة الغابات المنتشرة بها . وقد كانت صناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجانة

(٤٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٠ هامش ١ .

(٤٣) المقدمة ص ١٨٦ — ١٨٧ .

واشبيلية والجزيرة الخضراء ، ولما قدم عبد الرحمن الداخل اتخذ سنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن فى المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضافة إلى توفر معدن الحديد الذى تحتاج إليه وخاصة فى شلطيش (٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجدت أمثلة رائعة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته . وقد مر ذكر شيء من ذلك بالتفصيل عند الحديث عن بناء المساجد وتعميرها (٤٥) .

كما تمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى صناعة ألعاب الخشبية المطعمة بالعاج التى كانت تتخذ لحفظ قنينات العطر والمسك والعنبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هذه الصناعة بصفة خاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو فى عهد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخذت تنتشر فى أماكن أخرى . ومن أروع الأمثلة لعبة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيد درى الفتى الصقلبى سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد توقفت أو أصابها الذبول بعد وفاة الحكم إلى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد الذى أحياها من جديد ، ومن أمثلة ذلك صندوق له غطاء على شكل هرم ناقص صنع لعبد الملك سنة ٣٩٥هـ على

(٤٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٩ .

د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يد نجير بن محمد الفتى البامري ، وشاركه فى صناعته صانعان آخران من الصقالبة وهما عبيدة وخير .

وزخارفه تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر من حياة البلاط الاموى ، واخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة تونكة فى طليطلة — وهو محفوظ فى متحف برغش — عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع ، موزعة فى ثلاثة صفوف أفقية وعلى أعلى الصندوق نقش بالخط الكوفى نصه « . . . باقية لصاحبه أطلال الله بقاءه مما عمل بمدينة تونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله » (٤٦) .

صناعة الزجاج :

ومن الصناعات التى ازدهرت فى الأندلس صناعة الزجاج التى اشتهرت بها مالقة والمرية ، وخاصة صناعة الأكواب والكنوس التى تعلق فى الثريات التى توضع فى المساجد والقصور (٤٧) .

ونعتقد بأن هذه الصناعة قد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعد دخول زرياب إلى الأندلس ، وتفضيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية فى تقديم الماء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضة والمعادن الأخرى (٤٨) .

صناعة الأسلحة :

كما تقدمت صناعة الأسلحة فى الأندلس ، وانتجت بكميات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التى خاضها المسلمون ضد أعدائهم ،

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٨) انظر : د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ .
(م ٢٣ — المجتمع الأندلسى)

وكذلك التي خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالإضافة إلى الأسلحة المستوردة . وقد وجدت أنواع شتى من الأسلحة وعلى رأسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربي أن من آلات الحرب في الأندلس : « التروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » وقال : إن السيوف البرذليات — نسبة إلى مدينة برديل وهي بوردو الحالية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذي بأشبيلية إليه النهاية « (٤٩) » .

وكان الفولاذ الأندلسي مشهورا بجودته ، ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه أنواع كثيرة من الأسلحة .

صناعة السكر :

ومن الصناعات التي وجدت في الأندلس أيضا صناعة السكر الذي كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة في القرن الرابع الهجري ، كما أشار إلى ذلك الرازي وعريب بن سعد . وكان من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا في الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المستغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر أسبانيا مما ترتب عليه تضائل إنتاجه (٥٠) .

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .

(٥٠) دراسبات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

صناعة الورق :

ومن الصناعات التي اشتهرت في الاندلس ايضا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هذه الصناعة قد وجدت في العصر الأموي ، وخاصة بعد تقدم الحركة العميلة وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسي في كلامه عن مدينة شاطبة : (انه يعمل بمدينة شاطبة بالاندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشرق والمغرب) (٥١) .

وكذلك اشتهرت بالنسبة وطرطوشة بصنعه أيضا ، ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبات الشهدانج (٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين أنهم كانوا أول من أدخل الورق إلى أوروبا عن طريق الاندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شاطبة كانت أول مكان في قارة أوروبا يصنع فيه الورق (٥٣) .

وكان الورق الشاطبي مشهورا في العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الاندلسيون إلى جانب الكاغد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش وهو الرق المعروف بالبارشمان ، وكان مطلوبا في أوروبا وخاصة لكتابة الأناجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الإيطاليون بعد ذلك .

(٥١) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هامش ٢ ، ويظهر أن الصين كانت أول من عرف صناعة الورق بنحو قرن قبل الميلاد .

والى جانب صناعة الورق فقد تقدمت صناعة أدوات الكتابة وما يتصل بها من حبر وأقلام وشمع للأختام وغير ذلك . وقد برع الأندلسيون فى صناعة الأحبار من البيئية وعرفوا المعدنى والنبتاتى والمطبوخ وغير المطبوخ ، والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغاب وكانوا يسمونها : (الأنبوب) ، بل عرفوا أقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة المحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض أبيات من الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الأتلام (٥٤) .

صناعة التماثيل والتحف المعدنية :

كما اشتهرت فى الأندلس صناعة التماثيل المعدنية ، وتشير كتب التاريخ الأندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء . فيذكر المقرئ : أن الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة أسد وبجانبه غزال وتمساح وفى المقابل صورة ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجنبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر . . . كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها « (٥٥) .

وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بمدينة الزهراء على تماثيل لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغزال الذى أشار إليه المقرئ عند ذكره لهذه التماثيل الذهبية

(٥٤) د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

الحمراء ، وبلغ ارتفاعه نحو أربعين سنتيمتراً ويزدان جسده بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فيه عن طريق أنبوبة تهتد من وسط قاعدته وتصعد إلى رقبته (٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البرونزية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاتون (النحاس الأصفر) عدد كتوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كتوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط . وأكبرها الثريا الضخمة المعلقة في قبة المحراب وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من هذه الثريات التى احترقت عندما اشتعلت النيران في هذا المسجد في أثناء الفتنة البربرية في بداية القرن الخامس الهجرى . وقد عثر في الحفائر التى أجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات أكبرها على شكل طبق مستدير مخرم في شكل هندسى بديع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكتوس التى تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل (٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة ، الذى يبدو أن القطلانيين سلبوه من قرطبة من بين ما سلبوه بعد تخريبها في القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، ونصه « بسم الله بركة من الله وبين وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكيم أمير المؤمنين المستنصر بالله . . . مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩ سم ، وعرضها ٢٣ سم ويحتفظ بمفصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة (٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير (هاون) من البرنز محفوظ بمتحف ميلانونيا ، وهو مزود بحلقتين وتوءات مثلفة على شكل مناقير طيور تدور ببذنه ، وتزيينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى مطبوس لا تظهر منه إلا كلمة (لصاحبه) . ويمكن إرجاعه إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بضبتي باب من البرنز المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية الشكل سعتها ١٤ اسم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثنى الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جميلة ، وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عند حديثه عن أحد أبواب قصر قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه » (٥٩) .

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

التجارة :

ازدهر النشاط التجارى فى الأندلس بعد الفتح ، حيث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى أيدي الناس . ويذكر بعض الباحثين أن عدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين أو أربعين مليوناً ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، وهذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين أو أربعين مليوناً ولذلك نعتقد بأن فى هذا العدد شيء من المبالغة فى التقدير .

ودليل ذلك أن البعض قد قدر عدد سكان أسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين ألفاً ، وفى أوائل القرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بنحو اثنين وعشرين مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً (٦٠) .

وظلى فرض أن المسلمين الذين غادروا أسبانيا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير (٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد أو حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقدير عدد سكان الأندلس بنحو ثلاثين أو أربعين مليوناً فى عصر الرومان يظل تقديراً مبالغاً فيه إلى حد كبير .

(٦٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨١ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد قدر بعض الباحثين الأسبان (المهندس المعماري توريس بلناس) عدد سكان قرطبة في عصر الخلافة بما يقرب من مائة ألف (٦٢) وهذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الأندلسية .

وعى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية في الأندلس ، وكان لموقع الأندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربى اثر كبير فى نشاط التجارة عن طريق الموانئ الأندلسية المتعددة التى تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذى كان يعد أعظم موانئ الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوروبا كالقطن والزيتون والأرز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق المسانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين (٦٣) . وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التى كانت تصدر من الأندلس : الملابس المطرزة التى تعمل فى الأندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والأصواف والأصباغ والحريز واللبود الفاخرة ، والأردية الكتانية التى تصنع فى بجاية ، والورق الأبيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجاف من مالقة ، والخزف المذهب الذى اشتهرت به أيضا ، والكبريت الأحمر من مرسية والأسلحة من طليطلة (٦٤) . كما كان يأتى عن هذا الطريق

(٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٧٦ .

(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٣١٠ .

(٦٤) د. حسين إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور

وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الرتيق الأبيض من أوروبا ، وكان للتجار اليهود في ألمانيا وفرنسا والأندلس دور كبير في تجارته .

وقد كانت التجارة بين الأندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصة في أوقات السلم وكانت هناك ثلاثة طرق : أولها : الطريق البري الذي يمر عبر جبال البرانس عن طريق عدة ممرات من أهمها : ممر باب الشزري (الرونسفال) وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات أو الأبواب إلى موانئ جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسيليا ، وناربون التي كانت من أهم المراكز التجارية في بلاد الفرنجة .

وثاني هذه الطرق : الطريق البحري عبر ساحل إسبانيا الغربي المطل على بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ، وهذا الطريق لم يسلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هذا الساحل الغربي تشكل خطرا كبيرا .

وأما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقي للأندلس المطل على البحر الرومي (المتوسط) ثم تنقل البضائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانئ الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الأندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومنورقة ، عرضة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التي تسير بحملة بالسلع والبضائع . وقد حملت هذه القارات أهالي هذه الجزر على طلب الحماية من شارلمان ملك الفرنجة الذي طلب من أمراء الأندلس عقد معاهدة بحرية للاشتراك في تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات (٦٥) .

وقد كان لأهل الشام دور كبير في تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليات في كثير من الموانئ المطلة على هذا البحر ، كما كان

لليونان واليهود دور فى هذه التجارة أيضا . وكانت هناك جماعات من التجار المغاربة الذين يعملون فى نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة (فرنسا) . وتسميهم بعض المصادر (تجار من وراء البحر) (٦٦)

هذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شك بدور كبير فى هذه التجارة أيضا ، يقول ج. ب ترند « وقد ظلت أسبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة فى دائرة الإسلام الاقتصادية ، فكانت التجارة احتكرا فى أيدي المسلمين واليهود ، وظلت الممالك المسيحية فى أسبانيا لا تستعمل إلا النقود العربية والفرنسية طوال أربعة قرون تقريبا » (٦٧)

وقد أخذت العلاقات التجارية تنمو ملحوظا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجارى بينها ، وكانت السفن والمراكب التجارية فى موانئ الأندلس المتعددة كإشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية تعمل بين كثير من مدن البحر المتوسط ، وتحمل المنتجات الأندلسية المختلفة من الأقمشة والسجاد والخزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هذه العلاقات متواصلة مع مصر بخاصة ، وبدأت تأخذ منذ القرن الخامس شكلا قويا ونشطا ، ونجد فى النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقد عثر فى مدينة ألمرية على شاهد قبر يحمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنية فى هذه المدينة التى كانت .

(٦٦) لويس أرشيبالد : القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ١٢٠ ، د. حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .
(٦٧) تراث الإسلام ج ١ ص ٥ ، ٦ لجنة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ / ١١٣٥م (٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس إنشاء دار لسك العملة أو النقود في عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدي الروماني Solida (٦٩) .

(٦٨) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ٧٦ — ٧٧ ، د. متى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٣٠ . (٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية في دار السكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح في أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد سك الدينار على أساس الدينار الروماني القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة (ضرب في أسبانيا سنة ٩٣هـ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رؤوس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها (الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كفوا) ، وهناك دنائير عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه الدنائير تقرا في وسطها عبارة (محمد رسول الله) ، وفي محيطها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هي النصف دينار (١٩٨ جرام) ، والثالث دينار (٣٠ جرام) وتتميز بأن

كما كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس أيضا الاهتمام بإنشاء المؤسسات ذات الصيغة الاقتصادية التي ارتبطت بالنشاط التجاري . وتتمثل في الخانات والوكالات والفنادق والقياسر . وكان التجار القادمون إلى الأندلس يجدون في هذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر لدوابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك أن الأندلس قد شهدت في العصر الأموي الكثير من هذه المؤسسات ، وإن كانت المصادر التاريخية والأثرية لم تمدنا بالكثير عنها ، وإن امدتنا بشيء عنها في عصور تالية . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسي من أنه كان بالمرية وحدها في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا (٧٠) ، ويبدو أنها كانت فنادق صغيرة تتألف من طابق واحد أو طابقين على الأكثر .



أوجهها تحمل في وسطها صورة تمثل كرة قائمة على عمود فوق خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هامش ٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل سكنت عملة باسمه لم تكن تختلف عن عملة الأمويين في الشام من حيث الشكل والوزن والنقش ، وقد انتشرت دور سك العملة بعد ذلك حتى بلغت أربع عشرة (د. منى محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٣٣) .

(٧٠) انظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ — ١٤٦ . تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

(موارد الدولة ونظامها لمالى)

لا شك فى أن للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع والعمران المقررة أنه إذا كثرت الأموال فى أيدي الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفاق ، وينعمون بالعيش بصفة عامة .

وقد كثرت الأموال فى الأندلس فى العصر الأموى نتيجة لتنوع مصادر الدخل المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وثروات طبيعية ، بالإضافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجزية وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعارك والحروب التى خاضها الأمويون ضد أعدائهم ومناوئتهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من الصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا أنه بقى الشيء الكثير الذى أدى إلى تعدد مظاهر البذخ والترف فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من أفراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عند الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية .

لقد كان الأمويون بعد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومنافسة خصومهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم أمام أعدائهم من المسيحيين . فأضافوا كثيرا من مظاهر الأبهة والعظمة على دولتهم وخاصة عاضمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا كنا قد تحدثنا عن الزراعة والصناعة والتجارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن أهم موارد بيت المال :

١ - الخراج : وهو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون منوة إذا عدل عن تقسيمها على المحاربين ،

وتركت بأيدي أصحابها بعد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم (١) .

ويبدو أنه كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج وهى : نظام المحاسبة وتكون نقدا أو نوعا أو الاثنين معا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول . ونظام المقاطعة (الإقطاع أو الالتزام) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمتقبلين (٢) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنيمة فيدفعون العشر من غلتها .

(٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ . ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا بقصد تعميرها فلم يعمروها ، فجاء آخرون وعمروها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعلها للفريق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فمعرها قوم آخرون فهم أحق بها » (تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٦) .

وقد ذكر الماوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تليك ، والأول ينقسم إلى موات وعامر ، والثانى : ما يتعين ماله ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال فإذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع ليملكها (الأحكام السلطانية ص ١٨١ - ١٨٢) .

ونظرا لأهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشؤون الري والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت فى عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق فى ذلك أموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطى الأجرة للعمال بنفسه (٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الأراضى المتفجرة وتحويلها إلى أراض خصبة صالحة للزراعة (٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة فى غير سنوات الجذب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج فى الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ (الجباية) فى كثير من المواطن (٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر المقرئ : أن الخراج كان قبله ٣٠٠ ألف دينار مائة ألف للجيش ومائة للنفقة فى النواصب ومائة ألف ذخيرة ووفر (احتياطى) فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثائرين وقتل الخراخا (٦) . ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية أيضا .

٢ - الجزية : وهى مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وهى تسقط بالإسلام

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .

(٥) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولفظها مشتق من الجزاء على اعتبار أن أهل الذمة يدفعونها في مقابل ما يمنحون من الاستقرار في المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفي مقابل الأمن والحماية لهم ، وتعتبر في مقابل الزكاة التي تفرض على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان وهما رغبة لدولة واحدة .

وهي ليست ديناً يؤخذ من ورثة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرعوس كما يشيع خصوم الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو العاجزين عن العمل ، أو العميان أو المقعدين ، أو المجانين ، أو ذوى المعاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا أغنياء (٧) .

وهي كما يقول الماوردي : في مقابل استقرارهم في دار الإسلام ، ويلتزم لهم في مقابلها بحقين : أولهما : الكف عنهم ، والثاني : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين (٨) .

(٧) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨١ - ٤٨٢ . وتنسب أحياناً باسم الجوالي وتعني هذه الكلمة في الأصل جاليات أهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية فلزمهم هذا الاسم . ثم أصبح يطلق على الجزية التي يؤدونها أيضاً (دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسّر الدكتور حسن إبراهيم الجوالي بأنها : اختيار الأحسن من كل شيء سواء أكان من الممتلكات أو من الأشياء ، أو أنها ربما كانت وظيفة العامل في الزكاة (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجزية كما ذهب أبو حنيفة متفاوتا ، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام : ثمانية وأربعين درهما للأغنياء ، وأربعة وعشرين لتوسطى الحال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، أما الإمام مالك فقد تركها لتقدير الإمام . بينما ذهب الإمام الشافعى إلى أن الحد الأدنى لها اثنا عشر درهما وما بعد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، وأوصى بالرفق والإنصاف فى جبايتها . وتتضى القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيوائها ، ولا يقام فى الشمس ، ولا يجعل عليه شئ من المكروه ، وإذا امتنع عند دفعها فإنه يجبس حتى يؤديها بدون إيذاء (٩) .

ونص كتاب الصلح الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش سنة ٩٤ هـ يوضح لنا شيئا من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك » (١٠) .

٣ — الزكاة (الصدقة) : وهى ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم كما قال تعالى لرسوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » .

وتنقسم إلى عدة أنواع : زكاة الأموال (التدين) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعدن والركاز . وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

(٩) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٣ .

(١٠) الحميرى : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض الماطر ص ٦٣ ،

الضبى : بنية الشمس ص ٢٢٩ .

(م ٢٤ — المجتمع الأندلسى)

٤ - الموارث الحشرية : وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المال (١١) .

٥ - الفىء والغنيمة : والفىء هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمة التى تطلق على كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقي إلى بيت المال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

(١١) د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول (ﷺ) يقسم الفىء خمسة أقسام متساوية عملا بقوله تعالى « وما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

وأما الغنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجند حتى يسلموا أو يفتدوا أنفسهم . وأما الأموال المنقولة كالنقود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبها يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل أبو بكر ، ومالك يرى وقفها كما فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها . (انظر : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥) . ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقة قسمتها فقال : « واعلموا أنها غنمتم من شىء ... الخ » الآية .

فكان للإمام مع من ذكر فى الآية الخمس والأربعة أخماس الأخرى للقاتلين ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ - ١٢٧) .

المسلمون في الأندلس في هذا العصر ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطالونية وضد الفاطميين في بلاد المغرب ، وضد بلاد الفرنجة (غالة أو فرنسا) . فقد كثرت الغنائم وخاصة في عهد الخليفة الناصر وفي عهد المنصور بن أبي عامر الذي قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم في أي منها وعاد منها بغنائم كثيرة (١٣) .

ويدخل في ذلك أيضا ما كان يفرض على بعض ملوك هذه البلاد في بعض الأحيان - عقب هزيمتهم - من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ - العثور : وهي الأموال التي كانت تجبى من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجمركية التي تقدر على الواردات في العصر الحاضر (١٤) .

(١٣) انظر عن هذه الغزوات بالتفصيل . د. خالد الصوفى : تاريخ العرب في إسبانيا (عصر المنصور الأندلسي ٨ ص ١١٣ وبعدها) (١٤) يرجع نظام العثور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أثناء ولايته على البصرة أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خذ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما ، ولا تأخذ منهم فيما دون المسائتين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقد أفتى الإمام الشافعى بأن للإمام أن يزيد على العشر أو ينقص منه إلى النصف إذا رأى في ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكررت قُدومه

ولا شك أن هذا المورد كان يمثل دخلا كبيرا للأندلس في العصر
الأموي حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان في أوروبا
والشرق . وإن كانت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ - المكوس : وهي الضرائب التي نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها

لزيادة مواردها ، وخاصة في أوقات القحط والأزمات والشدائد ، وفي
أوقات الحروب وقد شملت هذه المكوس أغلب السلع التي كانت تباع
بالأسواق ، وكذلك البضائع الواردة من الخارج - وهو شبيه بما تفرضه
الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية - ومن الطريف أن المآصر
وهي السلاسل الحديدية التي كانت تشد في البحر عند مداخل الموانئ
لحمايتها من غارات السفن المعادية صارت تستخدم بعد ذلك لفرض
جمع المكوس من السفن القادمة قبل دخولها الميناء ، ثم أصبحت تطلق
على الضريبة نفسها (١٥) .

ولا شك أن هذه المكوس قد أصبحت تمثل موردا خصباً للدولة ،
ولكنها كانت تسبب إرهاقا وعنتا للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منها
خاصة وأن جبايتها أخذت تتسم بشيء من العنف وسوء المعاملة والتقدير .
ومثال ذلك ما حدث في عهد الحكم الرضوي حين وضع عشر الأطعمة
في كل سنة على أهل الأندلس من غير حرص ففكروا ذلك كما يقول
ابن الأثير (١٦) . وترك الحرية لربيع قومي النصاري لفرض الضرائب

(=)

في السنة الواحدة (د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢
ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ
الحضارة الإسلامية ص ٣١٢) .

(١٥) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

والمخيارم وجبايتها هو واتباعه من الصقالبة بطرق عنيفة (١٧) .
 وكان ذلك سبباً من أسباب قيامهم بالثورة المعروفة بثورة الريض .
 ويذكر ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر قد اسقط عن أهل
 الأندلس سدس جميع مغرم الحثد الأزف حلول ادائه وانفذ بذلك كتاباً
 إلى جميع الأقطار (١٨) .
 ويذكر ابن الرحالة الأندلسي ابن خبير عنما قدم إلى مصر في العصر
 الأيوبي فقال من أهم المعاملة للتجار والحجاج القادمين والخارجين ومن
 تسوية الإجراءات على الموانئ ، غير أن مصر وحدها لم تكن كذلك ، فقد
 كانت الأندلس أيضاً تعاني من هذه المكوس خاصة وأنها أصبحت
 تعطى التزاماً ، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحياناً ، فكانوا يشتطون
 في المعاملة وعرف هذا النظام باسم (القبالة) وعرف الملتزم
 بالمكوس باسم (المتقبل) . وقد انتقل هذا الاسم إلى اللغة الأسبانية
 بلفظه ومعناه Cabala (١٩) .

٨ — الاحباس (الأوقاف) : وقد مثلت مصدراً غير مباشر من مصادر
 الدولة أيضاً ، حيث كانت تسد جزءاً من نفقاتها على المؤسسات العامة ،
 حيث يحبس أصحاب هذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحسان ،

-
- (١٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
 المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٢٣ ، د. حسين مؤنس :
 شيوخ العصر في الأندلس ص ٢١ .
 (١٨) المقتبس في أخبار بلد الأندلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبد الرحمن
 الحجى ، خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩ —
 ٢٠ . ويبدو أن مغرم الحثد نوع من الضرائب التي كانت تفرض
 للاستعداد للحملة الحربية .
 (١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢١٣ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والمكاتب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك (٢٠) .

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى اثار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جهادى الاولى (٣٦٤ هـ) انفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم اولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة واشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنفعة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لورائته » (٢١) . وقد بلغ من كثرة الاحباس ان كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الاحباس . كما يتضح من النص التالى الذى اوردته ابن عذارى فى حوادث سنة ٣٥٣ هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فامر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد (قاضى القضاة) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الاحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من اموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه » (٢٢) .

وهناك ضريبة اخرى فرضت فى الاندلس بعد العصر الاموى فى عهد المرابطين اطلق عليها اسم التعتيب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ / ١١٢٥ م وكان الفرض منها ترميم الحصون والقلاع والاسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على اهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو أن هذه الضريبة

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) المقتبس ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ربيرا :

التربية الإسلامية فى الاندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكي .

(٢٢) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامي بالأندلس . وقد أجازها فقهاء الأندلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشافعى معتدداً على قيام المصلحة التى إن لم يتم بها الناس فيعطون ضاعت عليهم » (٢٣) .

هذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخلاً كبيراً للدولة ، ومن حصيلتها كانت تقوم بالاتفاق فى الأوجه المختلفة مثل : أرزاق الجند والموظفين ، وإنشاء المشروعات العامة ، مثل حفر الترع والقنوات وإنشاء القناطر والجسور ، وبناء المساجد ، ونفقات الحملات العسكرية ، وشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسكس والدرايين لحراسة الأسواق والطرق والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى (أنه كان للأندلس دروب تغلق ليلاً ، وتحرس بواسطة رجال الشرطة المسجون (بالدرايين) ، وأن كل واحد كان معه سلاح وكلب وسراج) . ولا تزال عادة غلق الأبواب متبعة فى بعض مناطق إسبانيا إلى اليوم منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة رجال الشرطة (دراين) بملامون باسم (سيرنيوس) . وكان من يريد الخروج أو الدخول إلى منزله ليلاً ينادى الحارس بواسطة التصفيق (٢٤) .

ومما يدل على تزايد هذه الموارد من عهد إلى عهد أن الجبالية فى عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين ديناراً ، ومن القمح أربعة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة

(٢٣) الروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وسبعمائة وسبعة وأربعون مديا (٢٥) .

ويبلغت في عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط ألف ألف دينار في السنة (٢٦) . وارتفعت في عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف وأربعمائة وثمانين ألف دينار من الكور والقرى ، ومن الأسواق والمستخلص (الجمارك) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التي لا يحصيها ديوان (٢٧) . ويذكر المقرئ نقلا عن ابن خلدون : أن الناصر خلف في بيوت المال خمسة آلاف ألف ولا ندري هل هذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويغلب على الظن أنه بالدرهم لأنه إذا كان بالدينار تجاوز الملايين وفي هذا كثير من المبالغة (٢٨) ، وأنه كان ينقسم الجباية ثلاثة أقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الناصر استطاع أن يدخر حتى سنة ٣٤٠ هـ نحو ٢٠ مليون دينار ، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع توفير هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب القنصفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ) (٢٩) .

وذكر بعض الباحثين المعاصرين أن الدخل السنوي عن طريق الضرائب والكوس في عهده بلغ ٢٠ مليون دينار (٣٠) ، ونقل من برزوفسكال أنها

(٢٥) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٦) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عذاري .

البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢٨) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢٩) المسالك والممالك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

بلغت فيها بعدد ٤٠ مليون . وبها كانت صحة هذه الأرقام ، فمن
من الواضح أن موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة في عصر الخلافة ،
وخاصة في عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٤٧ هـ
على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية في الأندلس من الضخامة واتساع
الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذي قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك
الأندلس بمثلها ، وقد أعجب بها الناصر أيضا إعجاب وكافا الوزير بزيادة راتبه
إلى ٨٠ ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إليه ألف دينار ، وسماه
ذا الوزارتين ، وكان أول من تسمى بذلك في الأندلس (٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقلبي الحاجب للخليفة المستنصر يوم ولايته
وكانت عبارة عن « مائة مملوك من الإفرنج على خيول صامئة كاملو الشبكة
والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والقراس ، والقلائس الهندية ،
وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ،
ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمونها
الطشطانة ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة
جواشن فضة مذهب ، وعشرون قرنا مذهب من قرون الجاموس » (٣٢) .
وقد ذكر البعض أن النظام المالي في الأندلس كان يدور حول
أمور ثلاثة هي : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة
الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن
المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التي تجبى من الكور

(٣١) انظر تفصيلها في نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٨ ، محمد دياب :

تاريخ العرب في أسبانيا ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٤٠ .

(٣٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٨ .

والقرى (٣٣) . ومن أهمها أموال التركات التى يموت عنها أصحابها بدون وراث (الموارث الحشرية) . والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجبركية على السفن والخراج والجزية والأعشار (٣٤) .

وأما بيت المال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقره بجامع قرطبة ويقوم بحفظ المنشآت الدينية ، ودفع رواتب موظفى المساجد وتوزيع الصدقات فى أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضاة ومن ينوب عنه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

وأما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالإشراف على أراضى الأمير أو الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين يأخذون جزءا من محصولها فى مقابل ذلك (٣٥) .



(٣٣) الكور جمع كورة وتعنى المقاطعة أو الولاية ولا يعرف أصل هذه الكلمة ويرى البعض أنها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، أو مشتقة من الكلمة اللاتينية (خورة) بمعنى الأرض أو الريف ، أو من اللفظ اللاتينى كوربا بمعنى الحى (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٦٣ هامش ١) .

(٣٤) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

الفصل السادس

الحالة العلمية والثقافية

الحالة العامة والثقافية

يظهر أن نشأة العلوم في المجتمعات الإسلامية المختلفة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت واثمرت . هذا ما حدث في المشرق ، وهو بعينه أو شبيها به ما حدث للعلم والثقافة في المغرب والأندلس .

نقد جاء الإسلام فمهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية ، ومضى زمن أخذت تتطور فيه هذه العلوم ، ثم كان الاتصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فاستقى المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، وأضافوا إليها ، حتى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الأندلس كانت هناك في البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبية القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدأت الأمور في الهدوء والاستقرار وخاصة بعد عصر الولاة — الذي كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات في معظمه — وأخذت الدولة الأموية ترسي قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدأت الحركة العلمية المنظمة في الظهور والنمو (١) .

(١) لا ينبغي أن يفهم من هذا أن عصر الولاة كان خلوا من أي اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٦٩١) وغيره

ونستطيع ان نقول : إنه كانت هناك عدة زوايد لتغذية هذه الحركة ومنها :

١ - قدوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقات التى كانوا يعتقدونها فى المساجد وغيرها (٢) .

وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار أثناء حكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخذ شكلا جماعيا منظما مثل الذى حدث بعد ذلك فى العصر الأموى وهذا أمر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدعم والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصادر واحدا من صغار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنذر أو المنيزر الأسلمى ، وأنه حدث بحديث عن رسول الله ذكره ابن الأثير والمقرئ وهو (من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيا ، فأنا الزعيم لأخذن بيده حتى أدخله الجنة) . (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٣ ص ٦) .

وقد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الأندلس من التابعين ، لكن من المؤكد أنهم كثيرون (انظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ - ١٥٦) . وقد وضع ابن بشكوال كتابا بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) أشار

٢ - قدوم كثير من العلماء والادباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأمراء والخلفاء ، مثل أبي على القالى صاحب الأملى ، وصاعد البغدادى وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتعلموا على أيديهم الكثير من أهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال صاحب ابن عباد عن كتاب العقد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التى عرفها (٣) .

٣ - رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق للتعلم على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن المطقب (بشبظون) الذى ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تعلمه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثى المصودى الذى رحل إلى المدينة أيضا وتعلم على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فآخذ عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم المعتقى إمام المالكية فى مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمى ، والغازى بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال فى طلب العلم ، أن الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق (٤) .

إليه المقرئ ولكنه لم يصلنا (انظر : نفع الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ - ٦١ ، التكملة لكتاب الصلاة ج ١ ص ٢٨٢ ، ج ٢ ص ٧٠٤) .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٤ ، انظر فى الراحلين من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ - جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روافد الحركة العلمية - إن لم تكن أهمها - فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الأندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن أشهرهم فى ذلك الخليفة الحكم المستنصر ، الذى أسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ ألف مجلد فى علوم شتى . وأخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى أنحاء الأندلس سواء فى قرطبة أو غيرها ، للعلم ، أو للتباهى بها (٥) .

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل أندلسى تبدو عليه أمارات الغنى والرياسة ، حيث أقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتاباً حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، وأخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمناً زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حداً لا يستطيعه . فاعتقد أنه فقيه فقال له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أتمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه » (انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٤٦٢ - ٤٦٣) .

وذكر البعض ان مكتبات الاندلس العلمية بلغت سبعين مكتبة (٦) .
٥ - كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمساجد ، والمكاتب ، والقصور ،
والدور وغيرها . مما كان له اثر كبير فى نهضة الحركة العلمية (٧) .

٦ - تقدير الامويين للعلم والعلماء حبا فى العلم من ناحية
ورغبة فى منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى (٨) . ولذلك
فقد قربوا الكثيرين منهم - وخاصة الفقهاء - وولّوهم المناصب الرسمية
فى الدولة ، كالفتيا والقضاء وغير ذلك (٩) .

=

وحتى لو بدا فى هذه الرواية طابع المبالغة أو التكلف ، أو انها
قيّلت فى مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شىء من
الدلالة على مدى حب الاندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهى ثروة
على أية حال ، وهى مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من
الهوية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء فى عصرنا
اليوم . (انظر : المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام
ج ٣ ص ٢٣ - ٢٧ ، خوليان ربيرا ، التربية الإسلامية فى الاندلس
ص ١٩٠ وبعدها ، ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى أسبانيا
ص ٦١) .

(٦) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ص ٣١٧ .
(٧) انظر : خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الاندلس ص ١٤٥
وبعدها .

(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى (الفصل الرابع عن
مكانة العلماء وجمال أقدارهم) ص ٩٧ وبعدها .

(٩) انظر فى ذلك ما ذكره المقرئ من أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف

=

(م ٢٥ - المجتمع الأندلسى)

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدأت الحركة العلمية بالاندلس
فى النمو والازدهار ، واخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تشيع ،
والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم وعم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار
صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التى أعقبت فتح الاندلس ، والتى تسمى عصر الولاة
(٩٢ — ١٣٨ هـ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك —
ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة — فقد شهدت هذه الفترة
قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الاولى التى تؤذن ببدء ذلك بمشرق
الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت
ايضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الاولى للأدب الاندلسى
فما بعد (١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتى كانت بمثابة فترة
علاج للكثير من الأدواء التى سبقتها ، وقد خطت الاندلس فى هذه الفترة
اولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل
منها :

١ — وفود كثير من الأمويين وانصارهم إلى الاندلس ، ولا شك
انه كان منهم كثيرون على حظ وافر من العلم والمعرفة .

=

قرية فى كل واحدة منها مسجد وفقه مقلص — المقلص غطاء
للرأس — تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا ممن حفظ الموطأ ، أو عشرة
آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون
يأتون للصلاة مع الخليفة فى يوم الجمعة بقرطبة ، ويطلبونه
بأحوال بلادهم . (نفح الطيب ج ١ ص ٢١٣) .

(١٠) د. أحمد هيكل : الأدب الاندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .

٢ - عودة أول فوج من الأندلسيين الذين درسوا بالشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم في نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازي بن قيس الذي تتلمذ على الإمام مالك ثم عاد في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، فأكرمه وعرض عليه القضاء فأبى وأخذ في نشر علمه (١١) . وغيره ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثي ، وزباد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ - إنشاء المساجد - وعلى رأسها مسجد قرطبة الجامع - والتي كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية في الأندلس ، شأنها في ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفي هذه الفترة أيضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الأندلسي ، والتي أخذت تتضح فيما بعد لتعطي صورته الواضحة المتميزة (١٢) .

٤ - جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الأندلس ، سواء على يد الأندلسيين أو المشاركين الذين قدموا إلى الأندلس .

والتد شهدت هذه الفترة ، وخاصة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٢٨ هـ) - دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه (بالعروس) (١٣) . فقد كان

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ابن الفرضي :

تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٠١٥) .

(١٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٧٤ - ٧٧ .

(١٣) العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ ، د. مصطفى

الشكعة : الأدب الأندلسي ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ

المسلمين وأثارهم ص ٢٢٨ .

هذا الأمير أديبا مثقفا ، وشاعرا مطبوعا ذا همة عالية ، مغرما بالفنون والعلوم ، حريصا على اقتناء الكتب ، وجلبها من الأمصار . فقد أرسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هند وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التي عمرت في عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله — رغم تقلب الأحوال السياسية في عهده — محبا للعلم مشاركاً فيه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفا في فنون من العلم ، متحققا منها ، عالما بلسان العرب ، بصيرا بلغاتها وأيامها ، حافظا للغريب والأخبار » (١٥) .

وقد أدت هذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء في علوم شتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى في العلوم العقلية والطبيعية . ويعتد عباس بن فرناس من مظاهر هذه الوثبة العلمية في هذه الفترة ، ويعتبر من مفاخر الفكر الأندلسي بل والعالمي أيضا ، حيث نسبت إليه عدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران في الفضاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت (١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهارا عظيما ، كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

-
- (١٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .
(١٥) ، المتعبس ص ٣٢ . نشر ملثور أنطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .
(١٦) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ .

ولا شك إن ظروف التوحيد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى الذى تحقق فى هذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير فى ذلك ، هذا بالإضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات (١٧) .

وإذا كان الفضل يعود لعبد الرحمن الناصر فى إعادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والفتائل التى سادت فى أواخر عهد الإمارة ، فإن الفضل يعود لابنه المستنصر فى ازدهار الحركة العلمية بصورة كبيرة ، حتى يمكن أن نطلق عليه اللقب الذى أطلق على الخليفة المأمون العباسى وهو (الخليفة العالم) .

فقد كان مولفًا بالكتب حتى قبل جلوسه على عرش الخلافة فى الأندلس ، حريصًا على جلبها ، ودفع الأثمان الفالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ ألف مجلد (١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلك : أنه أرسل إلى أبى الفرج الأصفهاني ألف دينار ذهبًا حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغاني ، فبعثها إليه قبل أن يظهر فى بغداد (١٩) .

وقد كانت هذه المكتبة كما ذكر تحتوى على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع فى خمسين ورقة ، وكانت هذه المدارس تكتفى بذكر أسماء الكتب ومصنفها فقط ، كما كان فى هذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساخ والقومة والمندوبين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجليد والزخرفة ،

(١٧) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠١ ، المغرب : نفع الطيب

ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ .

(١٩) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٠ .

- والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك (٢٠) .
- وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميادين أو الموضوعات التي يؤلفون فيها ، ويشاركهم في وضع مناهجها . فيذكر أنه اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة) وهو يشير إلى ذلك في صدر هذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدي تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) .
- وقد أشار إلى ذلك أيضا (٢١) .
- كما اقترح على ابن الصفار تأليف كتاب في أشعار بني أمية بالمشرق ، وطلب من أبي الفرج الأصفهاني تأليف كتاب في أنساب بني أمية فالفه له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزية (٢٢) .
- وقد كان الحكم شغوفًا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا عجب في ذلك فقد كان كما يقول المقرئ : « غزير العلم واسع الاطلاع ، ذا معرفة بالأخبار والأنساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب » (٢٣) .

-
- (٢٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين ورقة . د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٨١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .
- (٢١) انظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ — ١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٥ .
- (٢٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٥ ، د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ١٩١ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩٧ — ١٩٨ .
- (٢٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

وينقول ابن حيان : « وكان له وراثون بأقطار البلاد ، ينتخبون
له غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهم بكتبه ، والتصحيح لها ،
والمطالعة لفوائدها . وقلما تجد كتابا فى خزائنه إلا وله فيه قراءة
ونظر من أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه ...
وكان موثوقا به بأهونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين
وإمامتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به » (٢٤) .

كما قرب الحكم العلماء وأغدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب
لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام فى ساحة المسجد
الجامع قرطبة وحوله بعد الزيادة التى أضافها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم
أولاد الضعفاء والمساكين ، وأقام كذلك أربعة وعشرين مكتبا فى أرباض
قرطبة وفى ذلك يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتبها اللتى فى نواحيها

أو مكنت سور القرآن من كلام

نادتك يا خير نالها وواعيها (٢٥)

كما حبس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه
المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضى محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانباً
من دار الملك يجلسون فيه للتأليف والنسخ والترجمة والمقارنة (٢٦) .
ومن الغريب بعد هذا كله أن نجد البعض ينتقد الخليفة الحكم

(٢٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢٦) جذوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى

الأندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي . ومنهم د . حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان » (٢٧) . ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يكتف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يوسعان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المأمون العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحي السياسية والإدارية . والعجيب أن د . مؤنس عاد بعد ذلك ليقول عن سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فأغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لغزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه (٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، واشتغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من خبراته وتجاربه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقربه من السيدة صبح زوجة الحكم ، وتوليها الحجابة على ابنها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

بوسائل حديثة غير مشروعة في سبيل الوصول إلى هدفه (٢٩) .

وفي فترة الحجابة اهتم المنصور بن أبي عامر أيضًا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التي أعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما في خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعمامة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على أنهم زنادقة — وأنه كان في قرارة نفسه يميل إليها ، ويطلع عليها (٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الأسفار ، مثل كتاب حسان بن أبي عبدة (ربيعة وعقيل) ، الذي وصفه ابن حزم بأنه من ألمح ما ألف في هذا المعنى (٣١) .

والكتب ذات الطنابع القصصى مثل كتاب (الهججف بن غدقان ابن يثرى مع الخنوت بن مخرمة بن نوفل) ، وكتاب (الجواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفرأ) . وقد ألفها له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصاله به ، كما ألف له أيضا كتاب (القصوص) على غرار كتاب النوادر لأبى على القالى . وقيل إن المنصور كان شغوفا

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفى : العرب في إسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٤٢ ويغدها .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ الأهم ص ٦٦ ، ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب في إسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليلة (٣٢) .

ويذكر ابن حيان : أن المنصور أثنى صاعدا على كتاب الفصوص
بخمسة آلاف دينار ، وأنه أمره أن يسمعه الناس في مسجد مدينة الزاهرة
التي بناها (٣٣) .

وقد كان للمنصور مجلس في قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء
والشعراء ، وكان يشاركونهم أحيانا في مناقشاتهم ، ويدلى فيها بدلوه ،
ولا غرو فقد كان أديبا شاعرا ومن شعره :

رميت بنفسى هول كل كريمة
وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع
واسمر خطى وابيض باتر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تالقيها أسود خوادر (٣٤)

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجم الأدباء ج ١ :
ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، بغية الملتبس ترجمة (٨٥٢) ص ٣١٩ —
٣٢٠ .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن
المنصور اغتاض مرة من كثرة أكاذيب صاعد — وقد اتهم بالكذب —
فأمر بإخراجه من مجلسه ، وقذف هذا الكتاب في النهر . وفي
ذلك يقول أحد الشعراء متهميا :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقیل يفوص

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديواناً خاصاً سمي
(ديوان الندماء) ، مهمته ترتيب الشعراء في طبقات ، وبذل العطاء لهم
على أقدارهم في الشعر . وكان على رأسه واحد من كبار الأدباء النقاد
وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معه
في غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحسيس الجند ووصف المعارك ، وتكر أنه
اصطحب مرة في إحدى الغزوات أربعين شاعراً من كل طبقة (٣٥) .
وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على كثرة الشعراء في ذلك الوقت .
والى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يغفل العلوم
الدينية واللغوية فقد ذكر أنه كلف ابن المكي الإشبيلي ، وأبا مروان
المعيطي الفقيه بجميع أقوال الإمام مالك في كتاب على نحو كتاب (الباهر)
الذي جمع فيه ابن الحداد المصري أقوال الإمام الشافعي فأخرجاً له
هذا الكتاب على أكمل صورة (٣٦) .

كما أنه اتخذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي قنينا للتدقيق
والضبط في مكتبته ، وقد استعان بذلك في تأليف كتاب عن تاريخ بني عامر
قدمه للمنصور (٣٧) .

فرد عليه صاعداً قائلاً :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار النصوص

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هذا الكتاب ، ورموه
في نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . (انظر نفح الطيب ج ٤)
ص ٧٦ - ٧٨) .

(٣٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د. خالد الصوفي : مرجع سابق
ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٣٥) د. خالد الصوفي : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣٦) جذوة المقتبس ص ١٣٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ .

كل هذا وغيره مما جعل الحديدى يصفه بقوله « كان للمنصور همة رفيعة فى العلوم » (٣٨) .

لقد نشطت الحركة العلمية نشاطا منقطع النظير فى الأندلس ، وازدهرت فى عصر بنى أمية - وخاصة فى العاصمة قرطبة التى نائست حواضر العالم الإسلامى والأوروبى آنذاك - ولم تكن وقفنا على عنصر دون آخر ، بل شاركت فيها شتى عناصر المجتمع من عرب وبربر وموالى ومولدين ومستعربين ، كما شاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشاعرات والكاتبات والناسخات للمصاحف ، والمعلمات فى المكاتب للفتيات وغير ذلك (٣٩) .

وقد أشاد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرئ : (إن قرطبة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة بها) (٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنها جوهرة العالم (٤١) . وعنها قال الشاعر الأندلسى مفتخرا :

باربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان شتان والزهراء نالشة

والعلم أعظم شىء وهو رابعها (٤٢)

(٣٨) جذوة المقتبس ص ١٣٣ ترجمة ٢٣١ .

(٣٩) انظر فى ذلك : باب النساء فى بغية المتبس ص ٤٤٣ وبعدها .

جذوة المقتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ربيرا : التربية الإسلامية فى

الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، المعجب ص ٢٤٨ .

(٤٠) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤١) ليفى بروفسال : حضارة العرب فى أسبانيا ص ١١٤ ،

د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٤ .

(٤٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

التعليم عند الأندلسيين :

وكان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها ، شمول التعليم في الأندلس في ذلك العصر ، فقد أصبح علما يشمل الجنسين ، وكثرت أماكنته ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموها (بالمستعربين) .

ويذكر أن هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذي جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق في انتشارها وفي اعتناق الكثيرين للإسلام (٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام في التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك في كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضاً في الناحية التعليمية . فكان الطلاب يتلقون فيها مبادئ العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب في عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم . وفي ذلك يقول ابن عذاري : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن في مكاتب حول المسجد الجامع ، وبكل ريف من أرياض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وباقياها

(٤٣) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٢٧٨ .

فى كل ريف من أرياض المدينة» (٤٤) .

ونستطيع القول بأن هذه المكاتب قد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعد ذلك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٤٥) . ويشير ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى أنه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقرأون جميع العلوم فى المساجد باجرة (٤٦) . وفى هذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجاوزون عيذكرون أنه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على الكتاتيب أو المكاتب هذا اللفظ (٤٧) ، ومعلوم أن المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك عندما أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٦٣٥هـ — ٨٩٧هـ) (٤٨) .

وقد قام المؤدبون بدور كبير فى التعليم حيث أدبوا أبناء العامة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الغازى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة عند دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأبو الفهر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب (ت ٢٠٩هـ) ، وكان عالما بالنحو

(٤٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .

(٤٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٤٧) انظر خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٣ --

١٤ ، ص ٢٠ .

(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الأحمر : تاريخ

فرائد الجمان ص ٥٠ .

واللغة ، ولعبد ابن نعيم وكان مؤدبا بحيان وطيطة ، وجابر بن غيث
الذي اشتهر بشدته على الطلاب فقل من تأدب عنده (٤٩) .

ومحمد بن حزم - وهو غير ابن حزم الفقيه المشهور - الذي
كان يساعده ابنه وابنته في تعليم الصبيان والبنات في مكتبة قرطبة .
وسعيد بن سلمون بن سيد أبيه ، وكان من أهل قرطبة له كتاب
يؤدب فيه ، وكان صالحا قرا عليه كثير من الناس القرآن (٥٠) .

ومن مؤدبي أبناء الأمراء والخاصة : هشام بن الوليد الغافقي مؤدب
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وأبو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي ،
وكان عالما بالنحو واللغة ، مبرزا في الشعر ، أدب أبناء الأمير
عبد الرحمن الأوسط ، وابن أرقم مؤدب عبد الرحمن الناصر (٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبي (ت ٣٢٥ هـ) مؤدب الحكم
المستنصر (٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنجي (الطنجي)
ت ٣٥٢ هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر
فيه ، شرح شعر أبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، فأخذ الناس عنه ذلك .
« كان مؤدبا بعيد الاسم في التأديب ، يتنافس فيه الملوك » كما قال
ابن الفرضي (٥٣) .

(٤٩) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ربيرا : المجمع
السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٩٣ - ٢٩٩ ، المقتبس في أخبار بلاد
الأندلس ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى
المغرب ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبي (٣٩٠ هـ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لأبناء المنصور ابن ابي عامر (٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدي وكان يختلف إليه في علم العربية كثيرون من أولاد الخاصة والكبراء (٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جمالا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتيان والحقق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم (الحزقة) (٥٦) .

أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، واغدى عليهم الكثير والكثير (٥٧) .

ويذكر الزبيدي طبيعة التحصيل العلمى عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبي العربية ، ولا عند غيرهم ممن عنى بالنحو كبير علم ... وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .

(٥٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .

(٥٥) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٥٤ .

(٥٦) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٧٨ .

(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين (التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٢١ وبمدها) .

لشأنها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا إنية ، ولا يجيئون في شيء منها » (٥٨) .

فهو يتهم مؤدبي العربية والنحو بقلة التحصيل العلمي ، غير أن هذا الحكم العام يأتي جائرا ومجففا في حق الكثير من المؤدبين الذين وصلوا إلى مراتب عليا في العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة في نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الأندلسية ومنها طبقات الزبيدي نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبي جرش الذي ضرب به المثل في الفصاحة ، وأبي بكر الكنانى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ، وصالح بن معاني ، والرشاشى وغيرهم (٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادئ التعليم عند الأندلسيين فقال : « إنهم يجعلون القرآن أصلا للتعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما يفعل سائر أهل المغرب ، وإنما يخلطون في تعليمهم رواية الشعر والترسل ، والاختذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشببية ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتابة ، وتعلق بأذبال العلم على الجملة » . ويمتدح هذا المنهج التعليمي فيقول : « فأفادهم التفنن في التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربى » (٦٠) .

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥٩) الصدر السابق : ص ٢٨١ - ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ - ٣٩٨ المطبعة البهية د. ت .
(م ٢٦ - المجتمع الأندلسى)

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضي أبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة في التعليم حيث قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبي بحفظ القرآن في أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط في التعليم عثمان إلا إذا كان المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه » (٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبي القرآن في الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربي إلى المنهج الذي سار عليه الاندلسيون في تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبي عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختصمون له بأحكام ابن سهل » (٦٢) .

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خرويان ريبيرا : التربية الإسلامية في الاندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هي مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفراء النيسابوري ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . (د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) .

(٦٣) انظر : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ - ٩ .

«طريقة ابن العربي في التعليم أن هذا المنهج الذي رآه ابن العربي قد طبق ، ولذا قال :» وقد ذكر ابن خلدون وابن العربي أن الأندلسيين «طريقة في التعليم تختلف عن طريقة أهل المشرق . فهم في المشرق يحفظون القرآن للصبي قبل أن يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضة للفهم الخاطئ الذي يبقى في ذهنه على مر الأيام ، أما في الأندلس فيعلمون اللغة العربية أولا ثم يحفظون القرآن بعد القدرة على الفهم ، وعيب هذه الطريقة أن بعض المتعلمين قد يتخلفون عن حفظ القرآن أو تعلم العربية ، ثم ينقطعون عن التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن أولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية وقد استطاع الفهم» (٦٣) .

غير أن قول ابن خلدون (إنهم يجعلون القرآن أصلا في التعليم) ، وقول ابن العربي (فصار الصبي عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله) يفيدان غير ما قال به الأستاذ أحمد أمين ، والواقع أن الأندلسيين مثل المشاركة ساروا على تعليم أبنائهم القرآن الكريم أولا لأن هذا هو الأصل ، وهو الأجدي في الحفظ ، وأن المنهج الذي وضعه ابن العربي لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحية أخرى كما قال ابن خلدون .

الإجازات العلمية :

وكما أن الإجازات العلمية كانت معروفة في المشرق ، فقد انتقلت إلى الأندلس أيضا بانتقال الكثير من العلماء المشاركة . وأصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه أمرا شائعا ، بعد تتلمذهم على يديه . وكانت تسجل في وثيقة من الرق أو الكاغد (الورق) ، أو في

الكتب التي درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه (٦٤) . ومن أمثلة هذه الإجازات ما ذكره ابن الفرضي من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني الشذوني الذي رحل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجاز له جميع ما رواه وتوفي سنة ٣٨٣هـ (٦٥) .

ولم تكن هذه الإجازات مقصورة على الرجال فقط بل نالتها بعض النساء أيضا . فقد ذكر الضبي : أن أبا عمرو الداني المقيم (عثمان ابن سعيد) المعروف بابن الصيرفي (ت ٤٤٤ هـ) كان يقرئ بالمرية ، وقرأت عليه امرأة تسمى (ربحانة) ، وكانت تقعد خلف ستر فتقرأ ، ويشير إليها بقضيب في يده إلى الوقف ، وأنها أكلت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطالبته بالإجازة فكتب لها إجازتها بعد توقف (٦٦) .

وقد وضع أبو العباس المعري وليد بن بكر بن مخلد (٣٩٢ هـ) - وكان من أهل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء في بلاد عديدة - كتابا في تجوز الإجازة سماه (كتاب الوجازة) . وهو في هذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنها غير موثوق بها ، وأن الزيف قد ثنابها (٦٧) . وهذا دليل على قيام البغض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدي للإثراء والتدريس طمعا في المكانة والمنصب ، والحصول على المكاسب المادية .

(٦٤) ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٤٨ .

(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٦٦) الضبي : بغية المتبس ترجمة ١١٨٦ .

(٦٧) الضبي : بغية المتبس ترجمة ١٤١١ .

وقد ذكره خوليان ربيرا باسم (الوجازة في صحة القول بالإجازة) . ولم يشر إلى المصدر الذي أتى منه بذلك (التربية الإسلامية ص ١٤٩)

أهم العلوم وأشهر العلماء

أولا : العلوم الدينية والعربية

اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح (٧). وبعده . وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا فاتحين ، حملة علم ومعرفة ومثلوا اللبنة الأولى في العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حملوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتعلموا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خُطت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ - علم التفسير : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسي ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعلى رأسها علم التفسير ، ومن العلوم أن المفسرين قد اتجهوا في تفسير القرآن اتجاهين :

(أ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبي ﷺ وصحابته من

أقوال في تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب

النقل ، وربما أكثر (١) .

ومن مشاهير المفسرين في عصر بني أمية بالأندلس بقى بن مخلد (ت ٢٧٣ ، ٢٧٦ هـ) الذي ألف تفسيرا للقرآن الكريم أطلع عليه

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور في الأندلس والذين وصلتنا كتبهم

ابن عطية أبو محمد بن عبد الحق (ت ٥٤٦ هـ) ، ومن أشهر

المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الشهير بالإمام

القرطبي (٦٧١ هـ) صاحب الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير

القرطبي .

أبن حزم وقال عنه « أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في مثله ،
لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره » (٢) .

وكذلك ابن محامس عثمان بن محمد (ت ٣٠٦ هـ) المكنى بأبى سعيد ،
« وكان من أهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : (كان حافضا للتفسير ،
عالما بأخبار الدهور ، وله في ذلك كتاب نقل أكثره على ظهر قلب) » (٣) .
وقد اشتهر بالزهد والعزوف عن الدنيا . يروى أنه كتب على باب داره
(يا عثمان لا تطمع) (٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خمير المكنى بأبى سعيد وهو من أهل
قرطبة ، كان إماما للمسجد الجامع بها ، وقرأ الناس عليه كتاب التفسير
النسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى (٥) .

٢. — علم الحديث : ازدهر علم الحديث بالأندلس ، واشتغل به
كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رفيعة » (٦) .

ويذكر ابن الفرضى : أن صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢ هـ)
تلميذ الإمام الأوزاعي كان أول من أدخل الحديث إلى الأندلس (٧) .
كما يذكر أن الغازي بن قيس (ت ١٩٩ هـ) كان أول من أدخل الموطأ

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية
اللمس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية اللمس ترجمة ١١٩٤ وقد
ورد اسمه فيها عثمان بن محامس .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٦١٠ .

تلقى زجاجه قسماً من بعض رفاقه .
إلى الأندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤ هـ ،
وقيل إنه كان يحفظه (٨) .

غير أننا نجد فيها ومجداً مشهوراً دخل الأندلس منذ سنة
١٢٣ هـ ، واستقر في مالقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية
ابن صالح الحضرمي الحمصي ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى
الأندلس عهد إليه بعدة أمور منها : أنه وجهه بكتاب إلى أخته أم الأصبع ،
وكان عبد الرحمن قد تركها في الشام ، ثم ولاه القضاء . ويعتبر هو
مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الميثني ،
وقد أقرده له ابن الأبار كتاباً خاصاً سماه (المدخل الصالح في حديث
معاوية بن صالح) وقد توفي سنة ١٥٨ هـ (٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل
صعصعة والغازي بن قيس . ويعتبر بقي ابن مخطد أيضاً من أشهر علماء
الحديث إلى جانب التفسير والفقه . وكان قد أدخل مسند ابن أبي شيبة
كاملاً ، وأخذ يدرسه في قرطبة ، فأنار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف
في الحديث كتاباً رتب على أسماء الصحابة ، روى فيه عن ألف وثلاثمائة
صحابي ونيف ، كما رتب على أبواب الفقه المختلفة أيضاً . فهو مصنف
ومسند معاً ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما
أعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فيه

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٤٥٨ ، جزوة المقتبس
ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ - ٣١٥ ، تضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٤٢ ،
تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا
ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر أعلامهم مشاهير (١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ،
وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت (ت ٣٠٢ هـ) الذى عنى
بجمع الحديث والفقهاء ، وألف فى غريب الحديث كتابا سماه (الدلائل)
أثنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو على القالى الذى قال عنه « لم يؤلف
بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم فى شرح الحديث » (١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى ويعرف بابن عمريلا
ت ٣١٢ هـ وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيرا بعلمه ، إماما فيه ،
وكانت الرحلة إليه فى وقته (١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ) الذى رحل إلى القيروان
ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر فى الحديث والرجال ،
والف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه (المجتنى) ، وقدمه للحكم
المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا
فى سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل فى نشر
العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر فى بيان صحيح
الحديث وغريبه (١٤) .

(١٠) بغية الملتبس ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .

(١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر أنه مات قبل إكماله
فأكمل له أبوه بعد وفاته .

(١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .

(١٤) انظر ترجمة فى تاريخ علماء الأندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام

ج ٣ ص ٥٠ .

٣ - علم القراءات : نما علم القراءات فى الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبى ، صاحب الرسالة المشهورة (حرز الأمانى) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، والتي عمت شهرتها الآفاق ، ولا تزال مرجعا للكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليوم (١٥) .

وكانت قراءة نافع هى القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقدسى (وأما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع) (١٦) ويقول ابن سعيد (وقراءة القرآن عندهم بالسبع) (١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات فى الأندلس فى العصر الأموى سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طليطلة ، غلب عليه العلم بالقراءات وكان فيها إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، رحل حاجا قبل التسعين من عمره ، ثم استوطن مصر وتوفى بها (١٨) . ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزارى القرطبى (ت ٣٦١ هـ) ، وقد عنى بالقراءات والتفسير ، وكان عابدا زاهدا (١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطلمنكى ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما فى القراءات مذكورا ، وثقة فى

(١٥) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٣ ، د. أحمد شلبى :

موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، أحمد أمين : ظهر

الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(١٧) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروابع مشهوراً ، توفي سنة ٤٢٨هـ (٢٠) .

ومن أشهر من عرف بالقراءات في الأندلس قبل الإمام الشاطبي :
أبو عمر الداني (عثمان بن سعيد المقرئ) وكان قد رحل إلى المشرق
قبل الأربعمائة ، وطلب علم القراءات ، وقرأ وسمع الكثير ، ثم عاد
إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ،
ونظمها في أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته في الإقراء ، وقد توفي
في دانية سنة ٤٤٤هـ (٢١) .

علم الفقه :

يقول ابن سعيد عن الفقه في الأندلس : « والفقه رونق ووجاهة
ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب
ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون
الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي
الفقيه لأنها عندهم من أرفع السمات » (٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة
الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن
الداخل على مذهب الإمام الأوزاعي (٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

(٢٠) بغية الملتبس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية الملتبس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى الأوزاعي نسبة إلى

الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقريية سميت بذلك تقع خارج
باب الفراديس من دمشق . ولد في بعلبك سنة ٨٨ ، ٩٣هـ ، ثم

عبد من العلماء ومن أشهرهم تلميذه ونائبر مذهبه أبو عبد الله صمصمة ابن سلام الشامي ت ١٩٢ هـ ، الذي كانت الفتيا دائرة عليه في عهد عبد الرحمن الداخل ، وصدرنا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون مثل عبد الملك بن حبيب السلمي ت ٢٣٨ هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦ هـ) وابن زريق الملقب (بزونان) الذي تولى الفتيا في عهد هشام وكان يذهب بمذهب الأوزاعي (٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك في الانتشار في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل . ويذكر أن الفضل في ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤ هـ ، الذي يقال : إنه أول من أدخل فقه الإمام مالك إلى الأندلس (٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا في الفقه أيضا عيسى بن دينار الغافقي (ت ٢١٢ هـ) قال عنه محمد بن عبد الملك (كان عيسى بن دينار عالما متفنا مفتقا ، وهو الذي علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه) .

وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول « فتيه الأندلس عيسى ابن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعائلها يحيى بن يحيى » .

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر في بيروت حتى توفي بها سنة ١٥٧ هـ ودفن بقرية قريبة منها تسمى (جنتوس) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهد والورع وطول الصمت وكان رأسا في العلم والعمل (وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر في خبر من غبر ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .

(٢٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١) .

وقال عنه ابن الفرضي « كان إماما في الفقه على مذهب مالك بن أنس ، وعلى طريقة عاتية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث » (٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤ هـ) وكان إماما في الفقه مقدما على أهل زمانه في حفظ الرأي ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الرأي ستين سنة ، وانفرد بالفتيا في عهد الناصر (٢٧) .

ومنهم أيضا لبابة محمد بن يحيى بن عمر (ت ٣٣٠ هـ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالما بعقد الشروط ، بصيرا بعلمها ، ولى قضاء البيرة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله في الفقه كتب مؤلفة . منها كتاب المنتخب الذي قال عنه ابن حزم « وما رأيت لـالكي كتابا أنبل منه في جميع روايات المذهب . . الخ » (٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ) — زعيم الفقهاء في ثورة الريض — والذي لقب بعاتل الأندلس وقد أصبحت له الفتيا بالأندلس بعد عيسى بن دينار ، وغدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة في عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١١٤٤) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ ج ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ ج ٢ ص ٥١ ، بغية المتتمس

ترجمة (٣١١) .

الاندلس في وقته (٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الالهاني ، وكان ورعا فاضلا ، اشتهر بالفقه والفرائض ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة بقرطبة ، فكان عند حسن ظنه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبة في حكم من الاحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منه لذلك ويذمونه ، وعلى رأسهم يحيى الليثي الذي ظل به حتى عزل من القضاء (٣٠) .

وكذلك كان عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) من الفقهاء المشهورين . وله في الفقه كتاب (الواضحة) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الاندلس كما قال ابن لبابة (٣١) .

وكذلك ابن مرتينيل عبد الله بن محمد بن خالد (ت ٢٥٦ هـ) الذي اعتبره ابن الفريسي رأس المالكية بالاندلس والقائم بها والذاب عنها في عصره (٣٢) .

وفي عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) غدا

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، يقال إنه سمي بعاقل الاندلس لأنه لما رحل إلى المدينة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هناك فيلا عظيما فخرج الكثيرون لرؤيته فقال له الامام مالك : لماذا لا تخرج لتري الفيل ، فقال : إنما جئت لأتعلم منك (نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨) .

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، المرقى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ ج ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المالكي المكانة الاولى في الاندلس ، واصبح المذهب الرسمي ،
وتقلص مذهب الاوزاعي ، وبدأ في الاندثار ، ولم يبق منه إلا مسألة إياحة
زراعة الأشجار في ساحة المساجد .

ومن أعلام المالكية في فترة الخلافة عبد الله بن أبي دليم الذي صنف
كتاب (الطبقات فيمن روى عن مالك من الأنصار) (٣٣) ، ويحيى
ابن عبد الله بن يحيى الليثي (٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المالكية ممن
ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ)
المسمى (ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك) .
وإلى جانب فقهاء المذهب المالكي فقد وجد فقهاء على المذاهب
الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعي . ومن
علمائه ابن أبي بردة البغدادى « الذى كان من أعلم الناس بمذهب الشافعي ،
واحسنهم قياما به ، ولم يصل إلى الاندلس أفهم منه بهذا المذهب »
كما قال ابن الفرضي (٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سيار البياني وكان محدثا فقيها على هذا
المذهب ، وله مؤلفات في الرد على مخالفيه ومنها كتاب (الإيضاح في
الرد على المقلدين) (٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبي سعيد الكنانى (٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

(٣٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ترجمة (٧٠٧) .

(٣٤) المصدر السابق ترجمة (١٥٩٧) .

(٣٥) نفس المصدر ترجمة (١٤٠٣) .

(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة (٧٦٤) .

(٣٧) تاريخ علماء الاندلس ترجمة (٨٩٢) .

ابن هاشم (٣٨) ، واحمد بن عبد الوهاب بن يونس (٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفى : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبى ، الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقهاء أهل العراق كما ذكر ابن الفرضى (٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيروانى الذى قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب مذهب العراقيين كما ذكر ابن الفرضى ، وتوفى ببجاية سنة ٢٩٦هـ (٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهرى مثل القاضى منذر بن سعيد البلوطى « الذى غلب عليه التفقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لقائلته ، ويأخذ به نفسه وبنييه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكى لأنه المذهب المعمول به فى الأندلس » (٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ (٤٣) ، والحسن ابن دحية الظاهرى . والفقهاء المشهورون ابن حزم الذى حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر (٤٤) .

(٣٨) المصدر السابق ترجمة (٢٨٠) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٥٤) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة (٢٠٠) .

(٤١) ابن حيان المتتبع ص ٢٠٨ - ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٤٠٤) ، نفح الطيب ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٩٥٥) .

(٤٤) تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٣١١ - ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة أخرى رأينا أن الاختلافات أو الخلافات بين
وقد تحدثت بالتفصيل عن هذه المذاهب في الفصل الثالث .
الفقهاء في المشرق قد اشتدت ، والفت في ذلك الكتب المتعددة ، حيث
سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وبخاصة الفقه .
فوجد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا في كثير من المسائل الفقهية .
وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بعلم الاختلاف . ويؤثر عن أيوب .
السختياني قوله (لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف) (٤٥) .
وقد أدى هذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل في آرائهم ،
وناسفوا أدلتهم ، وسموا بأهل الرأي لغلبة القياس على فقههم وكان
أكثرهم بالعراق وفي مقابلهم أهل الحديث ، وكان أكثرهم بالحجاز (٤٦) .
وقد اشتد الخلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه في الأعم
الأغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس الهوى
والتعصب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخر ومثال ذلك تلك المناظرة
التي جرت بين أبي حنيفة وهو صاحب الرأي والقياس ، وبين الأوزاعي
وهو من أهل الحديث في دار الخياطين بمكة حول رفع الأيدي عند
الركوع وعند الرفع منه (٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة في كل مسألة ، وأفوا في
اختلاف الرأي كتباً كثيرة مثل الطبري في كتابه (اختلاف الفقهاء) (٤٨) .

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٨ .

(٤٦) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٤ .

(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجدل ص ٣٢١ .

(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخنت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت

وقد انتقل ذلك إلى الأندلس فراينا مثلا ابن رشد الحفيد يؤلف كتابا
فى اختلاف المذاهب وعللها سماه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) .
وهو يذكر الخلاف فى كل مسألة فقهية حدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى
سببه ، ويضع قاعدة عامة فى ذلك يطبقها على كل أنواع الخلاف فى
الفقه تطبيقا بديعا فكان هذا فى الواقع خطوة جديدة .

ولما وجدت مذاهب أخرى فى الأندلس إلى جانب المذهب المالكي
ومن قبله مذهب الأوزاعي كثر الجدل بعد أن كان الأندلسيون
منصرفين عنه فى البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى فى
مجالس العزاء ، وكان لكثرة الجدل بين الفرق والمذاهب فى المشرق أثر
فى ذلك (٤٩) .

علاوم اللغة :

بالرغم من قدوم الكثير من العرب أثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ،
ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبذرهم البذرة الأولى ،
إلا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بثشاء دولتهم
ومنافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهار
المتركة العلمية ، ومن هنا رأيناهم يستدعون كبار العلماء من المشرق
للمساهمة فى نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من قدم بنفسه . ومنهم
أبو على القالى اسماعيل بن القاسم بن عبدون الذى كان أبوه مولى

==

عنوان (كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف
الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى) فى ليدن سنة ١٩٣٣م .
(انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٩٤ هامش ٢)
(٤٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .
(م ٢٧ - المجتهد الأندلسى)

لعبد الملك بن مروان واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه » (٥٠) .

وقد تعلم على يديه الكثيرون بالأندلس ، وأملى على طلابه كتابه الشهير (الأمالى) ، وكذلك كتاب (النوادر) . وكان من أشهر تلاميذه الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى تأدب على يديه ، وكان لذلك أثره الكبير فى حبه للعلم ، وجمعه للكتب . وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس .

يقول ابن حزم — وهو من هو — « كتاب نوادر أبى على وهو ذيل الأمالى ، ميار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد أكثر نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا » (٥١) .

ومن مؤلفاته أيضا : كتاب المدود والمقصود ، وكتاب البارع فى اللغة ، رتبته على حروف المعجم ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ورقة ،

(٥٠) لقب بالقالى نسبة إلى قالى قلا (قاليقلا) . وذكر أنه ولد فى منازجرد (ملانجرد) بديار بكر التى تقع الآن فى تركيا . انظر معجم البلدان ج ٧ ص ١٧ . وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ (ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ — ٨٤) . بينما ذكر د. أحمد هيكل أنه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ (الأدب الأندلسى ص ١٩٢) . والصحيح أنه رحل إليها سنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣) . والحميدى (جذوة المقتبس ترجمة ٣٠٣) . ولم يذكر لناد . هيكل المصدر الذى رجع إليه فى ذلك ، ونعتقد أنه ربما يكون خطأ مطبعيا .

(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ .

ونذكر أنه لم يؤلف مثله ، وقد ظل في قرطبة ينشر علمه حتى توفى سنة ٣٥٦هـ (٥٢) .

وقد برز في هذه الفترة أيضا عدد من الأندلسيين الذين تتلمذوا على يد القالى مثل : أبى بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، والـف كتاب طبقات النحويين واللغويين ، وكتاب لحن العمامة ، وكتاب الأبنية فى النحو ، وكتاب الواضح فى العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر (٥٣) .

ومن الأندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) الذى برع فى الفقه والتاريخ أيضا . يقول عنه ابن الفرضى « وكان عالما بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه ، وله فى هذا الفن مؤلفات حسان منها كتاب تصاريـف الأفعال ، وكتاب المقصور والمدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه » (٥٤) .

ويقول عنه الحيدى : « كان إماما فى العربية ، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثله » (٥٥) .

ومن الذين برعوا فى هذا المجال أيضا : صاعد البغدادى ، الذى وفد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقاه

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦٩ (٢٢٣) ، جذوة المقتبس ص ١٦٥ (٣٠٣) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠ ترجمة (١٣٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المقتبس ص ٧٦ ترجمة (١١١) .

وأكرمه ، مثبها بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى . وكان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مع الكثيرين أثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية والأدبية . وله كتاب (الفصوص) الذى أملاه فى مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصور على غرار الأمالى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافأه عليه بخمسة آلاف دينار (٥٦) .

الأدب : ما كاد العرب يضعون أقدامهم فى الأندلس ، ويستقرون فيها حتى أخذوا فى نشر لغتهم وأدبهم ، وقد كان للانشغال بالفتح ، وتثبيت أقدام المسلمين فى البلاد أثره فى قلة الأدب شعرا ونثرا فى عصر الولاة (٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد فى عصر الإمارة (١٣٨ - ٣٠٠ هـ) أولى الخطوات نحو أدب أندلسى له سماته وخصائصه المميزة (٥٨) .

فقد ظهر أول جيل من الأدباء والشعراء الذين اهتموا بالبيئة الأندلسية وأحداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشعب ، بل شارك فيه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعد وقفنا على الوافدين

(٥٦) جذوة المقتبس ص ٢٤٠ ترجمة (٥٠٩) ، بغية الملتبس ص ٣١٩ ترجمة (٨٥٢) ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٥٨) من أهم هذه السمات : التجديد فى الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الفنى سواء من ناحية الشكل أو المضمون ، ووضوح العاطفة وصدقها (الأدب الأندلسى ص ٧٨ وبعدها) .

من المشرق فقط ، كما كان الحال عموما في عصر الولاة . وبالرغم من أن الشعر الأندلسي في هذه الفترة قد ساعد في اتجاه المدرسة التقليدية في المشرق ، إلا أنه وجدت له سمات أخذت تشكل أولى ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسي .

ومن أهم شعراء هذه الفترة : أبو المخشى عاصم بن زيد العبادي الذي يتصل نسبه بالعباد نصارى الحيرة ، وكان والده من جند الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة البيرة ، فنشأ ابنه في بلدة تسمى (شوف) ونبغ في الشعر حتى صار المع شعراء هذه الفترة . وقد اشتهر بالهجاء المتذع لمخالفه حتى عبر بأصله النصراني ، وقد اختص في أول أمره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مديحه ، وامتد به العمر حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفي في عهد الحكم الريضى .

قال عنه الرازي مؤرخ الأندلس الأول « كان شاعر الأندلس في حينه ، وهو صاحب المعاني الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقول الغزير » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل (٥٩) .

ومن يعدون من شعراء هذه الفترة أيضا الأمير عبد الرحمن الداخل ، وكان شاعرا مجيدا ونائرا بليغا وله أبيات مشهورة في وصف نخلة وهي :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تأعت بارض الغرب عن بلد النخل

(٥٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ - ٣٦ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٩٠ .

فقلت تسبيهي في التغرب والنوى
وطول الثنائى عن بنى وعن اهلى
نشأت بارض انت فيها غريبة
فمئلك فى الإقصاء والمتأى مئلى
سقتك غواذى المزن فى المتأى الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل (٦٠).

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح الثقفى ،
وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ،
فنال حظا من العلم فى الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحكم
ابن هشام ومدحه ، فاستقضاه على شذونة والجزيرة (٦١) . ويتسم شعره
بنزعة بدوية واضحة ، فيه الكثير من الخشونة وقلة الصقل ،
والسذاجة فى الأفكار والصور والخلق فى الألفاظ (٦٢) ، ومما يدل على
ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

تجاف عن الدنيا فما لعجز ولا عاجز إلا الذى خط بالقام

فقال له يحيى الغزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنه مطبوع :
« أيها الشيخ وما يفعل مفعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول انت قال
أقول :

تجاف عن الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذى خط بالقام

فقال : والله يا بنى لقد طلبها منك يوما فما وجدها (٦٣) .

(٦٠) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ .

(٦١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .

(٦٢) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسى ص ١٠٥ .

ومن شعره فى الزهد ايضا :

ما خير مدة عيش المرء لو جعلت

كمدة الدهر والايام تفنيها

فأرغب بنفسك أن ترضى بغير رضى

وابتغ نجاتك بالدنيا وما فيها (٦٤)

ومن شاعرات هذه الفترة كذلك (حسنة القميية) التى تعتبر
أولى شواعر الاندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقد ورثت
الشعر عن أبيها أبى الحسين . وعندما توفى لجأت إلى الحكم الرضى
قائلة :

إني إليك أبا العاصى موجهة

أبا الحسين سقته الواكف الليم

قد كنت ارتع فى نعماه عاكفة

فاللوم آوى إلى نعماك يا حكم

أنت الإمام الذى انقاد الأنام له

وملكته مقاليد النهى الأمم

لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفا

آوى إليه ولا يعرف لى القدم

لا زلت بالعزة القعساء مرتديا

حتى تذل إليك العرب والعجم

فأمر بأجراء رزق شهرى عليها ، وكتب إلى علمه على البيرة (جابر
ابن لبيد) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولما توفى الحكم لم ينفذ هذا

(٦٣) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥ .

(٦٤) بغية المتبس ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منه شيء من الضر فشكت للأمير الجديد.
عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيات شعرية فعزل هذا العامل وأمر
لها بصلة فبعثت إليه بأبيات تشكره فيها ومنها :

قل للإمام أيا خير الورى نسبا
مقابلا بين آباء وأجداد
جودت طبعي ولم ترض الظلامه لى
فهاك فضل ثناء رائج غادى
فإن أقميت ففى نعماك عاكفة
وإن رحلت فقد زودتنى زادى (٦٥)

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية.
منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شاع البذخ والترف ، وازدهر فن
الغناء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض
وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كاشعار اللهو والمجون والخمر والتغزل
بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد (يحيى الفزال) الذى أكثر من القول
فى الخمرىات مثل قوله :

ولما رايت الشرب اكنت سهاؤهم
تأبطت زقى واحتسبت غنائى
فلما أتيت الحان ناديت ربه
فهب خفيف الروح نحو ندائى (٦٦)

(٦٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب.

الأندلسى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٦٦) ابن دحية : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفريت عمرى فى الشر ب والوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلا ولا اطلاق الصباح
أحيى الليالى سهدا فى نشوة ومزاح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح (٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى فتى يلقب بابن القط فيقول :

قولا لمنصور أبا نصر بحرمة المضارب والنقر
ألا حكمت اليوم لابن الذى لقب بالقط على البدر
لا والذى طامت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كان هاروت نعى طرفة إذا رنا ينفث بالسحر (٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت اشعار الزهد كرد
فعل لهذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى
من الأبيات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور (منصور اليهودى) المعنى المشهور فى
عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغه الأجل حتام يلهيك الأمل
حتام لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجا ولا نجا لمن غفل
هيهات تشفقك المنى ولما يدوم لك الشغل
فكان يومك لم يكن وكان نعيمك لم يزل (٦٩)

(٦٧) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٦٨) ابن حيان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملثور انطونية .

(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس
ص ١٥٣ .

كما ظهر في أواخر هذه الفترة (إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الأدبية المعبرة عن تبلور الشخصية الأندلسية في ميدان الأدب . وهي التي منحت تميزا خاصا عن الشعر المشرقي (٧٠) .

أما في فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحيد الأندلس سياسيا بالقضاء على الفتن والثورات ، ورقيا اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطوُّر الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبي وخصوبته ، نظرا لكثرة الأدباء والشعراء ، والتشجيع الذي لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون عاما بين الأندلسيين . حتى أنه كان في بعض الأحيان يؤدي وظيفة الرسائل أو البطاقات ، وأحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات (٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على السنة الطيور . ولعل في قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها أحضرت زرزورا وعلمته أبياتا من

-
- (٧٠) عن الموشحات انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٤٥ — ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٣٧١ وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٧٠ — ٧١ ، د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .
- (٧١) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما تعبد الناصر في بهو قصره بمدينة الزهراء للفصد ، وبدأ الطبيب في ذلك اطل الزرور ووقف على إثناء من الذهب كان بلجلجس وأخذ يردد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

فأعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك أخبر بأن إحدى زوجاته وهم أم ولده المستنصر ، قد ربت هذا الطائر ، وحفظته هذه الأبيات ليقولها بهذه المناسبة (٧٢) .

وإذا كان البعض يرى في هذه الحكاية شيئا من المبالغة أو الاختراع ، فإنها مع ذلك تدل على مدى شيوع الشعر في هذه الفترة بين الأندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسي في هذه الفترة ثمتي جوانب الحياة الأندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يتغلغل في حياتهم اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة (٧٣) .

أما عن شعراء هذه الفترة فهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر والمستنصر ، ومنهم الوزراء كابن جهور وابن شهيد ، ومنهم العلماء كالأزبدي ، ومنهم القضاة كبنذر بن سعيد البلوطي ، ومنهم الأدباء كابن عبد ربه وابن هانيء الأندلسي ، وابن دراج القسطلبي (متنبى المغرب) (٧٤) .

(٧٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ . د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٣ .

(٧٤) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١١٣ . ويعدها د. أحمد هيك ص ٢٣٢ . ويعدها .

وفى هذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جديد وهو النثر
الثائفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقد تأثر النثر الأدبى فى هذه
الفترة بمذهب الجاحظ فى المنهجية ، والعناية بالبداية والموضوع
والخاتمة ، وانعكست عليه الفخامة والجزالة فى الألفاظ ، والعبارات
الاعتراضية ، والميل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات
والتفاصيل كأثر لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة (٧٥) .

كما لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من
الأدباء المقتدرين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابه ، كابن
فطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى عامر وجعفر المصطفى
وغيرهم (٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجال بل كانت هناك كتابات من النساء
كمحنة كاتبة الخليفة الناصر (ت ٣٥٨هـ) ولبنى كاتبة الخليفة
المستنصر (ت ٣٧٤هـ) (٧٧) .

أما النثر الثائفى خلال فترة الخلافة فمقدم يمثل فى فرعين :
التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحديث عن
الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان
(طبقات الشعراء بالاندلس) ، وما ألفه محمد بن هشام المروانى
بعنوان (أخبار الشعراء بالاندلس) (٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيائى .

(٧٥) د. أحمد هيكى : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ وبعدها .

(٧٧) انظر الضبى : بغية الملتبس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بانثشا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكى : الأدب
الأندلسى ص ٢٦٦ .

بمقتوان (الحداثى) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني ،
وقدّمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى
القرن الرابع الهجرى (٧٩) . (١) .
ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بأسلوب المشاركة فى هذا النوع ،
إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدائع الروح
القومية ، التى كانت تدعوهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليف كتب أدب
بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التاديب والتثديب ،
فمن أشهر كتبه كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا
كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والفنر والأخلاق والعادات وغير ذلك
مما حواه (٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ،
ولم يحدث فيه تطور عما كان عليه فى فترة الخلافة ، بل أخذت
بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلمى والفلسفى الذى كان قد بدأ فى
الظهور والنمو فى عهد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور
من أبى عامر بسبب التضيق على الفلسفة ، ومطاردة المشتغلين بها ،
ونشطت أغراض أخرى كالخبريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاستبداد
تيار الترف ، والإقبال على المتع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح
والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

(٧٩) بغية المتيسر ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جذوة المتيسر ص ١٠٤
— ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د. هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د. إحسان
عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذي اشتهر
بشعر اللهو . ومن أبياته فيه :

انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
ما بنفس اتيك كل الرزايا
ورسول الإله اسهم في النوى
لن لم يخب فيه المطايا (٨١)
وقوله :

ولرب حان قد شملت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا
يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر
كالخشف جملة التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وثر بهم
لسلافه والاكل من خنزيرة (٨٢)

وكذلك ابن دراج القسطلی الذي اشتهر بمذائحه للمنصور . قال
عنه ابن حيان : « القسطلی سباق في حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة
محسنى اهل الاندلس اجمعين » .

وقال عنه الحميدى : « وهو معدود في جملة العلماء ، والمقدمين من

(٨١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .

(٨٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

السفرء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله طريقة فى البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته (٨٣) .

وقال عنه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد (٨٤) .

وكذلك الرمادى يوسف بن هارون الكندى الذى اشتهر بوقفة شعره وكان جريئاً مستهتراً فيه ، وله شعر يدافع فيه عن الخبر حين أراد الحكم المستنصر أن يقطع أشجار الكروم . وكان فيه ميل إلى التشيع . قال عنه الفتح خاتان : إنه شاعر مطلق ، انفرج له من الصناعة المطلق ، ومضى له بريقها المؤثلق ، وسال بها طبعه كالماء المتدفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق .

وكان شيوخ الأندلس يقولون (فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة) يعنون إمرأ القيس والمتنبى والرمادى (٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة لدرجة أنه ذكر أن المنصور صاحب معه فى إحدى غزواته أربعين شاعراً من طبقات مختلفة (٨٦) .

أما عن النثر فى هذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبى الخالص حيث وجد ديوان للكتاب يحررون فيه الرسائل والمنشورات ، ويصفون

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغية المتنبس ترجمة ٣٤٢ .

(٨٤) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بابى جنيس وهى كلمة رومانية صارت فى الأسبانية Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادى (انظر : أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠) .

(٨٦) بالفتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ ، د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ٢٥٦ .

المعارك والغزوات التي يقوم بها المنصور . كما برز النثر الوصفي أيضا . وقد تأثر النثر عموما في هذه الفترة بطريقة ابن العميد في الميل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعة بكثرة . ومن كتاب هذه الفترة أبو مروان الجزيري ، وابن دراج القسطلی ، والمنصور ابن أبي عامر أيضا .

وفي الفترة التي سبقت سقوط الخلافة والمسماة بالفتنة البربرية تأثر الأدب تأثرا واضحا بأحداثها فانتشر أدب التلهي والنفاق والتفاهة ، أو أدب الفتن والحروب بمعنى أشمل . كما ظهر أدب التأمل والتذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثاني بصفة عامة . ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر الذي ضاقت أغراضه ، وقيل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من أتون الفتنة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهل والأحباب أو وصف لأشياء تافهة مثل وصف أبي عامر بن شهيد للبرغوث (٨٧) .

وأهم ما يلاحظ على الشعر في هذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منه لم يكن على شكل قصائد مستقلة ، وإنما كأجزاء من رسائل أو كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كان الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر (٨٨) .



(٨٧) د. أحمد هيك : الأدب الاندلسي ص ٢٩٠ - ٣٩٢ .

(٨٨) د. أحمد هيك : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ثانياً - العلوم العقلية

الترجمة : لم تصل الترجمة في الأندلس إلى ما وصلت إليه في بغداد في عصر المنصور والرشيد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التي ترجمت في الأندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أنه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الأندلس دون بذل جهد في ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد أنه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التي تمت ترجمتها في الأندلس وهما : كتاب ديستوريدس (الأدوية المفردة) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية (١) ، وكتاب أورسيوس (هروسيوس أو هروشيئش في المصادر العربية) . ويسمى (التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين) وهو باللاتينية (٢) .

(١) ديستوريدس : طبيب وعشاب يوناني ، ولد في بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمي في المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio أي (ديستوريدس العين زربي) . وقد عاش في القرن الأول الميلادي ، واشتهر بكتاباته عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه (الأدوية المفردة) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، وما زالت له قيمة علمية بالرغم من التقدم الطبى حتى الوقت الحاضر (انظر : عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الأول - القسم الثاني ص ١٠٨ هامش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤) .

(٢) باولوس أورسيوس : راهب ومؤرخ روماني الأصل ، أسباني المولد والنشأة ، عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن

وهذان الكتابان كان قد أرسل بهما الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بها إليه سنة ٣٣٨هـ (٣) .

الخامس الميلادى ، ووضع هذا الكتاب الذى أرخ فيه للعالم القديم منذ بدء الخليفة حتى عصره (٤١٦م) . وهذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب (مدينة الله) لأسفاده القديس أوغسطين ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بتاريخ العالم القديم . وقد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليه الكثيرون من بعد ، ومنهم بعض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت أسبانيا قبل الفتح الإسلامى . (عنان : المرجع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨) .

(٣) اختلف فى تاريخ هذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى سنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت سنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت سنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى أنها كانت سنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فىمن أرسلها فذكر البعض أنه قسطنطين ، وذكر البعض أنه ابنه رومانوس الذى تولى بعده ، ولعل مرجع هذا يعود إلى الاختلاف فى تحديد تاريخها ، وإن كان الراجح أنها كانت سنة ٣٣٨هـ فى عهد قسطنطين . وربما كان الامبراطور هو الذى أرسل السفارة وبعث ابنه بالكتابين معها ، وربما يكون الامبراطور قد أرسل السفارة باسمه واسم ابنه الذى كان يعده للحكم بذليل أن الخطاب الذى أرسله للخليفة يبدأ

وكان الكتاب الأول قد ترجم فى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل العباس (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) على يد (آصف أو أسطفن بن باسيل) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة (حنين بن إسحاق) . وقد وضع إسطفن أسماء غريبة للنباتات فى مقابلة الكلمات اليونانية ، غير أن بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون أن الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص (حسداى بن شروط) ، وحمد النباتى ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلى وكان له إلمام بالعقاقير والنباتات بالنظر فيه وترجمته ، غير أنه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فأرسل إليه الراهب نيقولا ، الذى كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ٣٤٠ هـ ، ففسر أسماء العقاقير

=

بقوله « من قسطنطين ورومانيين المؤمنين بالمسيح الكين العظيمين ملكى الروم » . (انظر : نفع الطبيب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢) ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٤٢ ، ابن جليل : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ص ٦٧ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٩ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣

ص ٢٣٣) .

المجهولة ، وتتلذ على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والاعشاب (٤) .
وقد كان لذلك اثره فى إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة
الطب والعقاقير متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم .

وأما الكتاب الثانى فيذكر انه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل
الخلافة ، ويبدو انه أخذه من والده الناصر — قاضى النصارى بقرطبة
وليـد بن حيزون (٥) الذى قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك
ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه فى هذه
الترجمة قاسم بن أصبغ البياتى — نسبة إلى بيسانة — المتوفى سنة
٣٤٠هـ (٦) .

(٤) يذكر أن الامبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى
فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك
الأدوية ، وأما كتاب هروسيوس فعندك فى بلدك من اللطينيين
(اللاتينيين) من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه
من اللطينى إلى اللسان العربى . (احمد أمين : ظهر الإسلام
ص ٢٣٤ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ ،
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ١٠٩) .

(٥) انظر : المقبرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د. السيد
سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره
البعض باسم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله
خطأ فى الطبع (انظر : د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ
العربى ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩) .

(٦) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د. إحسان عباس
أن يكون قاسم قد شارك فى ترجمة هذا الكتاب حيث توفى سنة

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازي (٢٤٤هـ) إلى ابن خلدون (٨٠٨هـ) . ومنهم من نقل من هذا الكتاب ونص على ذلك صراحة (٧) .
وليس ببعيد أن تكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية في الأندلس ، بالرغم من عدم إشارة المصادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافي ، وتوافرت كافة الإمكانيات التي تساعد على الترجمة (٨) .

٣٤هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هرويسيس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب . (انظر : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ هامش ٢) .

ولا يستبعد أن يكون قاسم قد شارك في ترجمة هذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستنصر قبل خلافته ، واختصر له كتاب المسفن لأبي داود ، وسماه (المجتنى) سنة ٣٢٤هـ . وكان يجيد اللغة اللاتينية (اللطينية) كما يتضح من قول الإمبراطور لعبد الرحمن الناصر . (انظر : المقرئ ج ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣١٥ هامش ١) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب في مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك . وقد أضيف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخول طارق بن زياد إسبانيا . وهذه الإضافات في أغلب الظن نقلت عن مؤرخين لاتينيين ، وتقع هذه النسخة تحت رقم H 893712 x . (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٢٤) .

(٧) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

الفلسفة : يظهر ان نشأة الفلسفة في الأندلس كانت كنشأتها في المشرق فقد نشأت في المشرق من الاشتغال بالطب والتنجيم لعناية الكثير من الخلفاء بها . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيه ، وإنما برغبة في حب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجري .

وكذلك كان الشأن في الأندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطباء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطب والنجوم يسلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى أن الفلاسفة الأندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرماني ، وأبو جعفر بن حميس ، وحميد بن أبان ، أو من المنجمين مثل ابن السمين ، ومسلمة بن أحمد المجريطي ، وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم (٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالأندلس عدة عوامل منها :

١٠ - رحيل بعض الأطباء من المشرق إلى الأندلس مثل اسحاق ابن عمران الذي كان طبيبا مشهورا في بغداد .

٣ - اهتمام بعض الخلفاء الأمويين بالكتب العلمية والفلسفية مثل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الأندلس وترجمتها ، فيذكر ابن أبي أصيبعة أن الكرماني رحل إلى المشرق وجلب معه عند عودته رسائل اخوان الصفا (١٠) .

٣ - التبادل الثقافي بين الأندلس وبعض البلاد الأجنبية مثل الدولة البيزنطية مما أدى إلى إهداء بعض الكتب للخلفاء الأمويين وترجمتها .

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٣ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٧ .

وقد أدت هذه العوامل وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيا .
والحقيقة أنه رغم ذلك فإن غالبية الأندلسيين لم يتلقوا الفلسفة بالقبول الذي تلقوا به الطب وغيره من العلوم العملية ، حيث كان جل اهتمامهم موجها إلى العلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام في العصر الأموي ، وكان المشتغلون بها موضع نفور واضطهاد ، ورعى بالكفر والإلحاد والمزمنة .

يقول ابن سعيد المغربي « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بهما يجتهد في إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العامة ويقتل ، أو يحرق هو وكتبه » (١١) . كما فعل المنصور بن أبي عامر تقربا إلى العامة والفقهاء .

وقد أخذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة بعد سنين ، حتى رأينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم وأثرهم في هذا المجال . كابن باجة وابن رشد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) حال الفلسفة في الأندلس فيقول « إن هذا العلم أندر من الكبريت الأحمر ، لاسيما في هذا الصقع الذي نحن فيه ، لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر منه بشيء لم يكلم الناس إلا رمزا » (١٢) .

ويظهر أن الاشتغال بالفلسفة في الأندلس كان على نوعين : نوع يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة . وأتباع هذا النوع قد ساروا على طريقة أفلاطون ، وكان من أوائهم ابن مسرة وابن سعيد ، وهذه

(١١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢) أحمد أمّين : ظهر الإسلام ص ٢٣٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثانى : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن باجة (ت ٥٤٤ هـ) ، وابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٤ هـ) (١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله (ت ٣١٩ هـ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالاندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨ هـ ، ولقى أهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فأظهر الورع والتنسك ، وأصبح له تلاميذ يلتقونهم مذهبهم الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمي بالجبلي (١٤) .

وقد أثار ذلك العامة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فاشاعوا عنه أنه زنديق مما اضطره إلى مغادرة الاندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله ، ثم عاد فى عهد الناصر ، فواصل الدعوة لمذهبه ، وانضم إليه الكثيرون لظهوره الورع الزاهد ، وألف كتباً منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منهما . ويذكر أن الخليفة الناصر قد أمر بإحراق كتبه خارج

(١٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة المناسك ترجمة ٨٣ .

جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات قن منازل المحدثين غير داحضة (١٥) . ويبدو أنه كان يقن تلاميذه نوعا من الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية (١٦) .

ثم بدأت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى في عهد الحكم المستنصر في ظل التسامح الذي أشاعه ، واهتمامه بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت مدرسة ابن حنبل من جديد ، وأخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجد طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة في عهد المستنصر ملحان « الذي كان ذا نظر في حد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة » (١٧) .

وإدريس بن مقيم « الذي كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الأوائل حاذقا بعلم الحساب والتنجيم » (١٨) ، ومحمد بن يحيى الرباحي « الذي طالع كتب أهل الكلام ، ونظر في المنطقيات فأحكمها ، إلا أنه كان لا يتقاد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقود أصلا من أصولهم ، وإنما كان يقول على ما يميل إليه في الوقت ، ويؤثره في الحاضرة » (١٩) .

(١٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ج ١ ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيك : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ ، وإحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٣٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

ومن عرف بدراسة المنطق والفلسفة أيضا في هذه الفترة
ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى
ببغداد (٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق
والحساب ايضا (٢١) .

ويبدو أن هؤلاء قد اكتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ،
حيث لم يؤلفوا كتباً ، على عكس الحال فى علوم الطب والهندسة والفلك
والحساب . غير أن الفلسفة ما لبثت أن انتكست مرة أخرى فى عهد
المنصور بن أبى عامر نتيجة لضغوط الفقهاء والعمامة حيث اضطهد
الفلاسفة ، وأحرق كتبهم تقرباً للعمامة وترضية للفقهاء ، رغم ميله
إليها فى الباطن كما ذكر (٢٢) .

وقد لقيت الفلسفة بعد ذلك — وخاصة فى القرن السادس
الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من أمثال ابن باجة
وابن طفيل وابن رشد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دويلاً فى
العالمين الإسلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) أنه رأى من كتب الفلسفة « رسائل
مجموعة وعيوننا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من
هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المنجى أيضا ويعرف بابن الكتانى

(٢٠) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، مساعد : طبقات الأئمة
ص ٦٦ .

د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٤٠ ، د. خاليد

الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان متقدما فى علوم الطب والمنطق (٢٣) .

يقول الضبى عن السرقسطى « له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق يعرف بالحصار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن أحمد . (ابن حزم) « (٢٤) .

وذكر الحميدى أن ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :

ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه

بالذى ليس فيه إذ جهلوه

لو دروا حقه لما أنكروه

أو دروا فضله إذن فضلوه

كذبوا والله لو عرفوه

لنفوا عنه كل ما نكروه (٢٥)

الطب : كان من مظاهر تقدم الثقافة الأندلسية فى فترة الإمارة ظهور أوائل المشتغلين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إياس القرطبى ، الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ، وله مؤلفات فى الطب .

ثم أخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

(٢٣) بغية المتلمس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .

(٢٤) بغية المتلمس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .

(٢٥) جذوة المتقرب ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس وأخوه عمر الذين
اشتهرا بالمهارة فى تحضير الأدوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة
علاج العيون (٢٦) .

وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى الترطى ، الذى رحل إلى مصر
سنة ٣٣٧هـ ، وأشرف على بیمارستان مصر ، والوزير أبو المطرف
عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب (الأدوية المفردة) الذى يقول عنه
المقرئ : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع
ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان
لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما يقرب منها . وإذا
اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله
غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر
علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه
كتاب ديستوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه
أحسن ترتيب » (٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى
ابن شبروط الذى اتخذ الناصر طبيا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى أن
شأنجة ملك ليون الذى كان بائع بالسمين نظرا لسميته الزائدة — وذكر

-
- (٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف
الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ .
د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ .
(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور المأماكة —
 قد طلب من الناصر أن يرسل له طبيباً لعلاج من ذلك ، فأرسل إليه
 طبيباً حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه (٢٨) .

ومن أشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة
 أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى — نسبة إلى مدينة الزهراء التى
 الناصر — والذى اتخذها المستنصر طبيباً خاصاً ، وألف عدة كتب فى الطب
 ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepilitoris الذى ترجمه
 جيرارد الكريمنى ، وكتبه فى الجراحة الذى ترجمه جيدوى كاوليك إلى
 اللاتينية أيضاً سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chriur-gtaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحين المسلمين — أطباء الجراحة —
 وقد ترك مرجعاً فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحها
 بالرسوم ، وهو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى ظل مرجعاً
 يعول عليه لدراسة الطب فى أوروبا عدة قرون بعد ترجمته إلى
 اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ،
 ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك (٣٠) .

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣٠ ، لين بول :
 قصة العرب فى إسبانيا ص ١٠٩ ، عفان : دولة الإسلام فى
 الأندلس ج ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب
 والأندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة
 الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية المتتمس رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
 المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عاشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية
 ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبي ابن زيد الذي كان مختصا بالخليفة المستنصر
والف كتاب (تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان) (٣١) .

كما نبغ في الطب أيضا في عهد هشام المؤيد ابن الخليفة .
المستنصر الطبيب الأندلسي المشهور ابن جلجل (أبو داود سليمان
ابن حسان) ت ٣٩٩ هـ ، الذي كان طبيا لهشام المؤيد ، وضع كتابا في
طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديستوريدس ،
وأوضح ما غمض منها في كتابه (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب
ديستوريدس) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطب
والأدب ، له كتاب في أخبار الأطباء بالأندلس » (٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبي عامر . وقد
الف عدة كتب عن الأدوية المفردة (٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبي
المؤرخ (ت ٣٦٩ هـ) طبيا أيضا وله مؤلفات في الطب منها كتاب (خلق
الجنين وتدبير الحبالى والمولود) وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال (٣٤) .

الفلك والنجوم : اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها ،
وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم .
والحقيقة أن التنجيم على هذا الأساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل
وعلم الغيب إنما هو الله عز وجل لا يظهر عاينه أحدا إلا من ارتضى من
رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا .

(٣١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ .

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٤٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه (طبقات الأطباء) ضمن منشورات
المعهد الفرنسي بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥ م .

(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .

الأدب الأندلسي ص ١٩٤ .

(٣٤) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، د. هيكال :

ورغم ذلك فإن بعض حكام المسلمين كانوا يطلبون النجمين لاستشارتهم والاخذ برأيهم قبل الإقدام على عمل هام كالبناء أو الحرب أو غير ذلك (٣٥) .

ومن أمراء الأندلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدعى النجم الضبي من بلده بالجزيرة الخضراء ، وكان بارعا في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية كما قيل حتى لقب (ببطليموس) لحذقه وإصابته .

ورغم عدم اعتقاد هشام في التنجيم ، إلا أنه كان يحب أن يسمع ما يقوله الضبي « حيث أن النفس طلعة كما قال » . وقد أخبره هذا النجم بأنه لن يستمر في ملكه أكثر من ثمانية أعوام فكان كما قال — وهذا من باب المصادفات فقد كذب النجمون ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد في الدنيا ولزم أعمال الخير بعد أن أخبره بذلك (٣٦) .

وكذلك كان من النجمين أحمد بن فارس البصري ، الذي كان زعيم هذه الصناعة بالأندلس على عهد الحكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقلا عن ابن حبان (٣٧) . ومنهم أيضا عبد الله بن الشمر ابن نمير القرطبي ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديه قبل الإمارة . ذكر أنه بشره بأن الأمر سيصير إليه ، فلما صار إليه قربه وفادته ، وأجرى عليه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم (٣٨) .

وكذلك إدريس ابن مقيم الذي كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحساب والتنجيم (٣٩) .

-
- (٣٥) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدي : ص ٣٣٢ .

وقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنادى معظمهم بعدم
تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى
النفس أو السعد . وعلى ذلك فقد وجد من بين علماء الأندلس من
رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس
ابن فرناس الذى يمكن أن تعده من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى
جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبة
تشبه السماء ، وزودها بالآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى
أعلىها نجوماً وغيوماً تبدو للناس وكأنها حقيقية (٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماماً بجلب
الكتب القديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشاعر إلى
المشرق لجلبها . فجاء بكتاب (السند هند) وغيره منها ، ويعتبر أول
من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها (٤١) .

(٤٠) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال :
الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٩٦ - ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للكثيرين
فى كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لم يترجم لعباس بن فرناس رغم
شهرة الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية المتهمس والحميدى فى
جنوة المقتبس ولم يذكر شيئاً عن ذلك . (انظر تاريخ علماء
الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٩ ، جنوة المقتبس ترجمة ٧٣١ ،
بغية المتهمس ترجمة ١٢٤٧) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٥ ،
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتاب
السند هند يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفد على
بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحد الهند ومعه
نسخة من هذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى
بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمد

ويعتبر مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي القرطبي (٢٩٥ هـ) من أوائل المشتغلين بالفلك والنجوم في الأندلس أيضا ، وكان يعرف (صاحب القبلة) لأنه كان مولعا بالتشريق في قبلته مفتونا بذلك كما قيل (٤٢) .

وقد قال بكروية الأرض ، واختلاف الفصول حسب المناخ ، وقد تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المتلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذي قال فيه :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر
تحكيه إلا سواء والذي سالا
أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا
ولم تصب رأى من أرجى أو اعتزلا
كذلك القبلة الأولى بمسألة
وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت ترزقنا
لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك
بهم يحيط وفيهم يقسم الأجيلا
والأرض كوربة حف السماء بها
فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا

عليه في وضع زيجته المشهور بعد أن أدخل عليه تعديلات وإضافات عدة . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١١) .

(٤٢) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم

١٤٢٠ .

(م ٢٩ - المجتمع الأندلسي) .

صيف الجنوب ثناء للشمال بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكانون فى صنعا وقرطبة
فردا وأيلول ينكى فيهما السؤلا
هذا الليل ولا قول عززت به
من القوانين يجرى القول والعملا
كما استمر ابن موسى فى غوايته
فوعر السهل حتى خلفه الجبلا
أبلغ معاوية المصطفى أقولهما
أنى كفرت بما قالوا وما فعلا (٤٣)
ويقول ابن عبد ربه أيضا فى مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :
فأين الزيج والقانون والأركند والكمة
وإين السند هند البطل والجدول هل ثمة
سوى الإفك على الله تعالى منشئ الرمة
إذا كان أخو الغيب
يرى الغيب بما ضمه
إلى أن يطالب الرزق
طلاب العاجز الهمة
وهذى الأرض قد وارت
كنسوزا عدة جمّة

(٤٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧
وابن موسى هو الأقبشين أو الأقتشين ، ومعاوية هو ابن الشبانس
القرشى ويظهر أنهما كانا من أصحاب ابن أبى عبيدة والقائلين
بأقواله .

فلا والله ما لله

خلق يحتوى عليه (٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة الجريطى (٣٩٨ هـ) من علماء الفلك
ايضا يقول عنه صاعد : إنه أعلم من كان قبله بعلم الأنلاك ،
وحركات النجوم ، وكانت له غناية بأرصاد الكواكب (٤٥) .

الكيمياء : اشتغل بعض علماء الأندلس بعلم الكيمياء ، ومن أوائل
المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن أحمد الجريطى (ت ٣٩٨ هـ) الذى
يعد شيخ الأندلس فى هذا العلم فى العصر الأموى ، وقد ألف
فيه كتابا سماه (رتبة الحكيم) ، وجعله قرينا لكتاب آخر ألفه
فى السحر والطلسمات وسماه (غاية الحكيم) . ومن كبار تلاميذه فى
هذا المجال أبو بكر بن بشرون (٤٦) .

ويمكن أن نعد عباس بن فرناس بـت ٨٨٦ م) من الذين نبغوا
فى هذا العلم أيضا ، حيث له اتهامات متعددة ، وينكر أنه كان أول
من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى
معالجات بطرق كيميائية (٤٧) .

(٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

(٤٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع

السابق ص ٥٢ .

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .

(٤٧) انظر نفج الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١

ص ٣٣٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. أحمد

شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن

الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

الرياضيات : يلاحظ أن كثيرا من علماء الأندلس كانوا ينبغيون في عدة علوم ولا يقتصرون على علم واحد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق معروفا في ذلك الوقت .

ومن هنا فقد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك ينبغيون في الرياضيات أو العكس . وكان من أوائل من اشتغل بالرياضيات في الأندلس ، ولفت الأنظار إليها أبو القاسم مسلمة المجريطي (ت ٣٩٨ هـ) الذي وصفه صاعد بأنه « كان إمام الرياضيين في وقته » وتخرج على يديه كثير من الطلاب مثل ابن السمع وابن الصفار والزهرأوى والكرمانى وغيرهم (٥٠) .

كما كان من أوائل من اشتهروا بالرياضيات أيضا أبو عبيده مسلم ابن أحمد الليثي (ت ٢٩٥ هـ) المعروف بصاحب القبلية ، وكان عالما بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأحكامها (٥١) .
ويحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينه وكان بصيرا بالحساب والنجوم (٥٢) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى - الثالث الهجرى (ت ٨٨٦ م) في علم العدد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلة المعروفة بالمقاتة لمعرفة الوقت على غير رسم وهثال . وقام بأول محاولة للطيران في العالم

(٥٠) د . إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٢ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .
(٥١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ ج ٢ ص ١٨٨ .

الإسلامي ، وكان متعدد المواهب برز في مجالات شتى (٥٣) .

وكذلك القاسم بن أصبغ بن السمع (ت ٤٢٦ هـ) الذي برع في علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب (المدخل إلى الهندسة) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان في الاسطرلاب ، وكتاب آخر في الهندسة (٥٤) .

وكذلك أبو الحسن الزهراوى (على بن سليمان) - وهو غير أبو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور - وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب في الهندسة بعنوان : (المقابلات عن طريق البرهان) (٥٥) .
كما اشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨ هـ) بالهندسة أيضا وكان قد رحل إلى المشرق في طلبها ، وخاصة في حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يشق له غبار فيها ، وهو أول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس (٥٦) .

وكذلك ابن الصفار الذي اشتهر بالحساب والهندسة والفلك أيضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات أيضا في عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسري ، وكان الحكم يحله ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان مقدما في علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها (٥٧) .

(٥٣) انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب ج ٢ ج ٢ ص ١٩٦ وبعدها .

(٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٥) الضبى : بغية المتيسر ترجمة ١٢٢٠ .

(٥٦) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٧) د. أحمد هيكل : تاريخ الادب الأندلسي ص ١٣٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالاندلس أيضا محمد بن الفرج الرشاشي الذي عرف بالذراع نظرا لانه ابتكر وحدة قياسية للمسافات هي الذراع الذي نسب إليه فأصبح يعرف بالذراع الرشاشي ، وكان أهل الاندلس يقيسون به . وبلغ طوله ضعف الذراع المأموني الذي كان معروفا في المشرق (١٧١ اسم) ويذكر أن الإدريسي والبكري قد استخدماه في قياس بعض المعالم الأثرية التي تحدثنا عنها كمئارة الإسكندرية ، وجامع قرطبة وغيرهما (٥٨) .

التاريخ : لم يكن ظهور علم التاريخ في الاندلس منفصلا عن جذوره التي نشأ فيها وتطور عنها في المشرق ، وقد تأثرت الاندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذي تأثر في بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هرويسيس في التاريخ الذي تمت ترجمته ، واستفاد منه الكثير من المؤرخين الاندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الاندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتعصبوا له مما يدل على ظهور الروح القومية الاندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة في فضل علماء الاندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم مع كثرتهم ، وفي مآثرهم وفضائلهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم .

-
- (٥٨) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢٥ - ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكي .
وقد ذكره ابن الفرضي باسم محمد بن الفرج الذراع المعروف بالرشاشي من أهل قرطبة ، وهو الذي ينسب إليه الذراع .
ونعتقد انه قد حدث خطأ في الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان .
(انظر : تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣) .
(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٧ .

كما وضع الشقندى - نسبة إلى شقندة وهى ربض من أرباض قرطبة - رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فقال : إن الإجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الأفاق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم (٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن والأقاليم الأندلسية حيث تعصب أهل كل مدينة لها ، وألفوا فى فضائلها .

ويمتدبر عبد الملك بن حبيب السلمى (ت ٢٣٨ هـ) - الذى لقبه بعالم الأندلس - أول مؤرخ أندلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من أوضح الأمثلة على تأثر الأندلس بالتأثيرات المشرقية فى تدوين التاريخ . فقد رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك ، واكتسبه ذلك توسعا وفيها فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفرضى بأنه (كان نصوبيا عروضا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل اللسان ، متصرفا فى فنون العلم) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان (٦١) .

وقد ألف ابن حبيب فى التاريخ العام كتابا شسبها بكتاب الطبرى ، بداه بالحديث عن نشأة الخلق ، وتاريخ الأنبياء والرسل . وهذا القسم ملئ بالأساطير عن فتح الأندلس وسير ولاتها وأمراتها إلى عصره ، ولكنه خلط فى هذا القسم أيضا بين الأحداث التاريخية والأساطير ، مثل حديثه عن رؤيا طارق بن زياد التى رآها فى منامه وكانت سببا فى الفتح كما ذكر ، وحديثه عن طلسم لذريق ، ومائدة سليمان عليه السلام التى عثر

(٦٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ - ١٠ .

(٦١) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨١٦) ج ١ ص ٢٦٩ -

عليها في الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التي عثر عليها المسلمون وغير ذلك .

ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى هذا الكتاب حيث نجد فيه أخبارا عن عصر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم أن ابن حبيب توفي قبل إمارته سنة ٢٣٨هـ (٦٢) .

وقد أخذ ابن حبيب معظم الأخبار والروايات عن شيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والأساطير إلى كتابه . ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هذا يعد أول محاولة أندلسية

(٦٢) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا في مكتبة البودليانا في أكسفورد

تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من أطلع عليه أنه ليس بذى قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الأساطير فيه . وإن كان هذا لا يقلل من قدر ابن حبيب الذي كان أول رائدا في هذا المجال ، والريادة غالبا لا تتسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٨ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د. أحمد هيكمل : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ .

وقد قام د. محمود مكى بدراسة وافية لهذا الكتاب ، ونشر الجزء الخاص بالأندلس منه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هذه النسخة هي مختصر لكتاب ابن حبيب الأصلي ، وأن الذي قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن أبي الرقاع (انظر نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١٠) .

لكتابة تاريخ الأندلس . ورغم ما حفل به من أساطير ، وما شابه من قصور
ونقص في بعض النواحي (٦٢) .
ويعتبر (معارك بن مروان) وهو حفيد موسى بن نصير (القرن
الثالث الهجري) من المؤرخين الأندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين
في تاريخ الأندلس . حيث يشير الحميدى إلى أنه ألف كتابا في فتح
الأندلس تناول فيه أخبار جده موسى (٦٤) .

ويرى د. محمود مكي أن القسم الذي يدور حول حياة موسى
ابن نصير في كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة مأخوذ عن
كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه أيضا الكثير من الأساطير والروايات
الخيالية (٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك (عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١ هـ) والذي
يعتبر بداية لمرحلة جديدة في التدوين التاريخي تخلت عن الأساطير ،
وركزت على موضوعات أندلسية . فقد ألف كتابا في الانساب بعنوان
(انساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم) أهده للخليفة
الناصر سنة ٣٣٠ هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات
نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر في القرن الرابع الهجري مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

(٦٣) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس
ص ٩ - ١٠ .

(٦٤) جذوة المقتبس ترجمة (موسى بن نصير) رقم ٧٩٣ ص ٣٣٨ .
(٦٥) قام د. محمود مكي بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق
بالأندلس في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد
الخامس سنة ١٩٥٧م (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١١) .

ويعد محمد بن خازن الخشبي (ت ٣٦١ هـ) من أبرزهم في هذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكيم العديد من الكتب في هذا المجال مثل كتاب (أخبار القضاة بالاندلس) وكتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) (٦٦) .

وكذلك ابن الفرضي أبو الوليد بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذي يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضع أسس لعلم التاريخ في الأندلس وهي أسرة الرازي ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت ٣٤٤ هـ) الذي كان مؤرخا وجغرافيا ، ولقب (بالتاريخي) لكثرة مؤلفاته في مجال التاريخ ، وله كتاب (أخبار ملوك الأندلس) وكتاب (الاستيعاب في أنساب مشاهير الأندلس) ويقع في خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخر في مسائل الأندلس ومراسيها

(٦٦) نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ١٣ - ١٤ . وقد نشر الكتاب الأول في مدريد لأول مرة سنة ١٩١٤م بواسطة المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا مع ترجمة إسبانية ، كما نشر في مصر بعناية عزت العطار سنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان (قضاة قرطبة) في القاهرة سنة ١٩٦٦م وهي الطبعة التي اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثاني فيوجد في مكتبة القصر الملكي بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالأندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١٣ - ١٤) .

قصة راجع قريشاً قريشاً لصحة منفتحاً بها لفرع من راجع قريشاً
وامهات ايمان مديها واخبارها ، وكتاب عن كتاب الموالى
السيرة هنيئة بلغة لوان راجعاً عبد هو مبعدا راجعاً راجعاً راجعاً
الاندلسيين (٦٧) .

(٧٧) - حاتم راجع

ثم جاء بعده ابنه عيسى فاكمل ما بداه ، وقد ألف كتاباً فى تاريخ
الاندلس للخليفة المستنصر ، كما ألف كتابين آخرين للتصور بن ابى عامر
أحدهما عن الوزارة والوزراء بالاندلس . والثانى عن الحجاب بالاندلس ،
كما أخذ فى إكمال كتاب أبيه عن أخبار ملوك الاندلس (٦٨) .

وقد تركت أسرة الرازى اثراً كبيراً فى مجال التدوين التاريخى .
فقد كان أحمد بن محمد أول من أدخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا
فى الاندلس ، وأخذها عنه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) الذى برع فى علوم اللغة ، كما
برع فى التاريخ أيضاً « وكان حافظاً لأخبار الاندلس يملئها عن ظهر
قلب » كما ذكر ابن الفرضى (٦٩) .

ويعتبر كتابه الذى وصلنا وهو (تاريخ افتتاح الاندلس) أهم ما بقى
من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الاندلس من الفتح إلى نهاية إمارة عبد الله
ابن محمد (٢٩٩ هـ) .

ويبدو أنه أملاه على بعض تلاميذه ، وقد أورد فى هذا الكتاب
أخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميله إلى
أصله القوطى حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما أنه يأتى بحوادث

(٦٧) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ٤٢ ترجمة ١٣٧ ،
الحيدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. أحمد هيك :
الأدب الاندلسى ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٧٦ ترجمة (١٣١٨) .

اسبانية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية اسبانية مثل قصة القومس اربطاس الذى اعجب به عبد الرحمن ايما إعجاب وعينه قومسا لاهل ملته (٧٠) .

ورغم ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجال التدوين التاريخى فى الاندلس نظرا لما تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الاندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى (٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى (٢٦٩ - ٢٧٠ هـ) من مشاهير المؤرخين فى الاندلس ايضا ، وهو من اصل اسبانى اسلم آباؤه ، وكان والده يعمل كاتباً لدى الخليفة الحكم المستنصر ، ثم عمل هو ايضا لديه ، وقد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليه أخبار المغرب والاندلس ويسمى (صلة تاريخ الطبرى) (٧٢) . وقد حاول فيه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن أحداث الفتح مثل قصة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « وأصاب طارق مائدة مظلومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داود عليها السلام ، ولم تكن كذلك . غير أن أهل الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنائس بمال تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل فى الأعياد فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه

(٧٠) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ - ١٨ .

(٧٢) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

المالوك « (٧٣) .

وهذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعبادات الاسبان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربي ابن الشباط (٦٨١ هـ) على ذلك قائلا « واعلم أن هذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيها علمت غيره ، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان بن داود » (٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضا ابن أبى الفياض (٤٥٩ هـ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منه إلا قطعة صغيرة وصلتنا ، إلى جانب نصوص منه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين فى مؤلفاتهم (٧٥) .

ومنهم أيضا : أحمد بن عمر العذرى (٤٧٨ هـ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب (افتضاى اىكار اوائل الاخبار) ، وكتاب (اعلام النبوة) ، وكتاب (ترصيع الاخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك) وهو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منه إلا قطعة صغيرة معظم أخبارها عن الأندلس (٧٦) .

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نصاب جديان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧١ م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحد ذنون هذه القطعة المتبقية من كتاب ابن أبى الفياض بعنوان (نص أندلسى جديد من تاريخ ابن أبى الفياض) بمجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الأول - المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣ م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الأهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخير

وكان العذرى من أوائل المؤرخين الأندلسيين الذين ذكروا نص
المعاهدة التى عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم شرق
الأندلس (٧٧) .

ثم يأتى عمدة مؤرخى الأندلس ابن حيان (٤٦٩ هـ) وكان من كتاب
المنصور بن أبى عامر ، وقد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا أجزاء
من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتين . أما المقتبس فيقع فى عشرة أجزاء ،
وتتضمن تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف (٧٨) .

وأما كتابه المتين فقليل إنه يقع فى ستين جزءا ، ولكنه للأسف

فى مدريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان (نصوص عن الأندلس من كتاب
ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) .
(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ .

(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضها ، منها
قطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الله نشرها ملثور أنطونيه فى
باريس سنة ١٩٣٧ م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الرحمن
الأوسط وابنه محمد نشرها د. محمود مكى فى القاهرة سنة ١٩٧١ م ،
وبيروت سنة ١٩٧٣ م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الحكم المستنصر
نشرها د. عبد الرحمن الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥ م ، كما نشر
ليفى بروفنسال قطعة من الجزء الثانى فى مجلة (الأندلس)
الاسبانية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٥٥ م .
ويوجد الجزء الخامس مخطوطا فى المكتبة الملكية بالرباط
برقم ٨٧ .

ثم يصلنا منه شيء إلا فقرات نقلها منه بعض المؤرخين اللاحقين كابن بسام فى الذخيرة .

وقد اشتهر ابن حبان بالصراحة البالغة ، والنقد الشديد ، وذكر المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم أنه كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقد بعض أفراد أسرته ولو من بعيد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه أنه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به حباً ، فاعد له عدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا أنه غير رأيه فنشره فى الناس . وإن كنا نرى فى هذا مبالغة شديدة (٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس ابو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى (٤٨٨ هـ) فى كتابه المسمى (جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس) وهو الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصل عددها إلى تسعة عشر (٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعسد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ فى الأندلس سواء كان تاريخاً عاماً ، أو تراجم رجال أنه قد تأثر بعلم الحديث ومنهجه فى المشرق . ويرجع ذلك إلى أن أكثر المؤرخين فى الأندلس محدثين وفقهاء أشعبيه ما يكونون بالطبرى ، وكان منهجهم منهجاً يسوده فى الغالب فقه الإمام

(٧٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاوويت الطنجى ، ثم أعيد طبعه فى الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ (انظر مقدمة هذه الطبعة) .

مالك وما ينبى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يسلمهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما أن التاريخ فى الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان أكثر المؤرخين أدباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية فى يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكلما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية فى الأندلس أشد وأقوى (٨١) .

الجغرافية : أما عن الجغرافية فإنها لم تفرق عن التاريخ فى الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا فى نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربى (٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والتنقل والأسفار ، وكان الواحد منهم يعاب بأنه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم فى وصفها من نواحي شتى ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احتل وصف وطنهم الأندلس مكانا بارزا فى مؤلفاتهم ، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومساكنها ومدنها وكورها ، وأنهارها وجبالها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

(٨١) انظر : أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس .

ص ٩٥ - ٩٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الاسماء الاعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ،
وابتكروا طريقة لطيفة في هذا المجال لإظهار مخاسن كل مدينة عن طريق
إقامة مناظرات على السنة المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها ،
وتظهر أوصافها ومزاياها التي لا توجد في غيرها (٨٣) .

وقد جمع الكثير من المؤرخين الأندلسيين معلومات جغرافية في
كتبهم ، وخاصة عن الأندلس ومنهم ابن حيان ، كما ألف بعضهم كتباً في
الجغرافيا أيضاً إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازي (٣٤٤ هـ)
الذي ألف كتاباً في مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها ، ويدور
معظمه حول صفة الأندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير في
التاريخ عن أخبار ملوك الأندلس (٨٤) .

ومحمد بن يوسف الملقب بالتاريخي الوراق ، الذي ألف للحكم
المستنصر كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها ، كما ألف في أخبار
ملوكها وحروبهم ، وفي أخبار تيهرت ، ووهران وتونس وسجلها وكنكور
وغیرها (٨٥) .

وأحمد بن عمر العذري (٤٧٨ هـ) الذي جمع في كتابه (ترصيع
الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع
الممالك معلومات جغرافية كثيرة (٨٦) .

(٨٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٣٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ،
نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٣٣ — ٣٦ .

(٨٥) بغية الملتبس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٦٠
ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٥٥ — ٥٧ .
(م ٣٠ — المجلد مع الأندلسي)

ولا شك ان الجغرافيين الاندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التى وضعت فى تاريخ الاندلس وجغرافيتها مثل كتاب هرويسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجى والمسمى (اصول الكلمات) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازى والعذرى والبكرى وغيرهم ، وهذا لا يقلل مطلقا من قيمة العمل الذى قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وامانتهم العلمية واتساع افقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين (٨٧) .

اما اول الجغرافيين الاندلسيين الحقيقيين واقدمهم فهو البكرى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن ايوب (٤٣٢ — ٤٨٧ هـ) ، الذى ألف معجما جغرافيا فى اسماء البلاد والاماكن لازال بين ايدينا وهو (معجم ما استعجم) ، وله ايضا كتاب (المسالك والممالك) الذى وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نقلا من التاريخ إلى جانب الجغرافيا ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والاندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفى الاجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكرى فى ذكر الاسماء ونطقها وتفسير بعض اصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتينى تولاطو Tolatom ومعناها فرح ساكنها لخصانتها » ، وقد ثبت ان فى مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى ، وقوله عن

(٨٧) بالنسبة : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى القسم الاول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية » ورايت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى (إشبالي Hispalis) ومعناه المدينة المنسطة . وقوله في وصف مدينة ماردة « وقد أحرق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالعجمية براءة لأهل إيلياء » (٨٩) .

وحسب البكري فخر ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بها زمانه مثل قوله « وايتانس البحر المحيط (الأتيانوس أو المحيط الاطلنطي) لا يدري ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر (الخالدات) — وهي التي تعرف اليوم بجزر كنارياس أو الكناريا — وبالعكس » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هي الفكرة التي جعلت من كولبس من هو في تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكري بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكري من أبناء ولبة وهي على أميال قليلة من الربطة Larabida وفيها الدير الذي لجأ كولبس إلى أحباره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور في إشبيليته البلد الذي عاش فيه كولومبوس زمانا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشيء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء (سان لوكار) أقرب بلد إلى ولبة والمسافة

(٨٩) د. أحمد العبادي : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن

الشباط ص ١٣٩ مدريد سنة ١٩٧١ م .

بينهما بضعة كيلو مقرات « (٩٠) .

وفى هذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تأثير البيئة المحلية :
الاندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبكرى وغيره من الاندلسيين
الذين حاولوا قبل كولومبس كشف غياهب بحر الظلمات أو البحر
الأخضر أو الأقيانوس (المحيط الأطلسى) الذى تطل عليه الاندلس .

فيحدثنا البكرى : عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذى خاطر مع
جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بغنائم كثيرة
وأخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول
الاندلسى الذى تصدى لغارات النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط .
(٢٠٦ — ٢٢٨ هـ) .

وهذا يذكرنا بمحاولة أخرى قام بها فتية من أهل لشبونة
(لشبونة) فى القرن الرابع الهجرى أطلق عليهم الفتية المفرورين .
أو المفررين أو المغربيين وكانوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الأطلسى
حتى وصلوا إلى جزر أخرى غير (جزر الأزور) القريبة من ساحل
المغرب) . ويذكر أنهم ساروا فيه أحد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا
حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها (بجزيرة
الغنم) تتميز بكثرة أغنامها ، وبوجود رجال فيها ثقر الوجوه شعورهم .
سبطة (٩١) .

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس ص ٩٧ ، مجلة المختار من
عالم الفكر ص ١١٤ — ١١٥ .
(٩١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦١ — ٨١ ،
الحميرى : الروض المعطار ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر
ص ١١٥ .

ثم جاء بعد ذلك الشريف الإدريسي أشهر الجغرافيين الأندلسيين بل والمسلمين (٤٩٢ — ٥٦٠ هـ) الذي تلقى تعليمه في قرطبة ولذلك عرف بالقرطبي ، واتصل بالملك روجر الثاني ملك صقلية — فعرف بالصقلي أيضا — ولف بتشجيع منه كتابه الشفير (نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والأفاق) والذي يعرف بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق وملاه بالخرائط اللازمة التي تزيد عن أربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أن ترجموه إلى اللاتينية في وقت مبكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات تتفق مع ذلك ، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء مصورا (٩٢) .

ويذكر أنه عندما طلب منه روجر الثاني وضع خريطة للأرض ، طلب منه أن يصنع له كرة كبيرة من الفضة لرسم عليها معالم الأرض ، ولذلك فإنه يعد باعتراف علماء الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروي مما كان له أثر في تحديد معالم الكرة الأرضية تحديدا

« (٩٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون في مقدمته ما يدل على أنه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير في البحر المحيط بمحاذاة سواحل إفريقيا فيقول : « وفي بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بظليموس بأخذ أطوال البلاد ... وهي في البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة ، وقد بلغنا أن سفائن الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة (المائة الثالثة) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى (المقدمة ص ٤٩) .

واقعيًا سلميًّا (٩٣) .

الرحلات : ونما يتصل بالجغرافيا أكبر اتصال الرحلات ، وكما كان في المشرق رحالة كثيرون فكذا كان في الأندلس رحالة كثيرون . جابوا الكثير من الأقطار والبلدان ووصفوها وصفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن من كتابة الرحلات كتابة علمية قد بدأ في الأندلس فرأينا نخبة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأيوبي — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم في البلاد التي زاروها من نواحي شتى جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كابن بطوطة وابن جبير وابن العربي وأبو حامد الفرناطى وغيرهم .

ومن أوائل الرحالة الأندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودي الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويبدو أنه أسلم وتسمى باسم إبراهيم بن أحمد ، ودخل في خدمة الخليفة الحكم المستنصر ، وكان من تجار الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من ألمانيا وشرق أوروبا من الصقلية والروس .

وقد قدم إبراهيم وصفا لرحلته إلى الخليفة المستنصر أودعه مكتبته ، وعنه نقل ابن عذارى المراكشى ، كما نقل عنه البكرى في كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافية تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوروبا وشرقها خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . فقد زار إبراهيم بن يعقوب بلاد الملك أوتو الأكبر إمبراطور الدولة القبوتونية ، ووصف بلاده وما فيها وسفا ممتعا ، كما زار شرق أوروبا

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات في الحضارة الإسلامية ج ١

ص ٢٥٠ .

وجاء عنها بأنباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بها علماء الالمان والروس
عناية كبيرة . وقد أيد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من انه لقي
الامبراطور سنة ٩٧٢م (٣٦٢ - ٣٦٣ هـ) .

ومع ان النقول التي اخذت من وصفه قد خرفت إلا ان المحققين
والدارسين استطاعوا ان يقوموها ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمة
ساعدت كثيرا في دراسة جغرافية هذه البلاد (٩٤) .



(٩٤) د . سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٧٨ - ٧٩ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣
ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر القديمة

- ١ — ابن الأبار : الحلة السيرة ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٢ — ابن الأثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٠٢ هـ .
- ٣ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٤ — ابن الأحرر (الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧ هـ) : نثر فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محمد رضوان الداية ، المكتبة الأندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- ٥ — ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شجول الكلام ، نشر ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦ م .
- ٦ — ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى نشر ليفى بروفنسال — الرباط ١٩٣٨ م .
- ٧ — ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، سلسلة تراثنا ، المكتبة الأندلسية (٢) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٨ — ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خوليان ربيرا مدريد سنة ١٩٢٦ م ، وتحقيق عبد الله أنيس الطباع بيروت ١٩٥٨ م .
- ٩ — ابن بسام الشنتريشى : الذخيرة فى محامنين اهل الجزيرة ، طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥م ، وطبع
دار الثقافة بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٠ - ابن بشكوال : كتاب الصلة في أصحاب القاضى أبى عبد الله
الصدفى نشر فرنسيسكو كوديرة مدريد سنة ١٨٨٣م ، وطبع
القاهرة سنة ١٩٥٥م .

١١ - ابن جابل : طبقات الاطباء ، تحقيق فؤاد سيد مطبوعات المعهد
العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م .

١٢ - ابن حزم الاندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ،
القاهرة سنة ١٣١٧هـ .

١٣ - ابن حزم الاندلسى : جهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام
هارون ، سلسلة ذخائر العرب (٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف
بمصر سنة ١٩٧٧م .

١٤ - ابن حزم الاندلسى : رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان
عباس ، بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٥ - ابن حزم الاندلسى : طوق الحمامة فى الإلفة والآلاف ، تحقيق
د. الطاهر مكى - الطبعة الخامسة - دار المعارف بمصر ١٩٩٣م .

١٦ - ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة لندن سنة ١٩٣٨م .
وطبعة دار الحياة بيروت د. ت .

١٧ - ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملثور
أنطونية ، باريس سنة ١٩٣٧م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن
الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكى ،
طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١م
ونشر دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

- ١٨ - ابن خاقان (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل
الاندلس قسطنطينية ، الجزائر ، ١٣٠٢ هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤ م
- ١٩ - ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بنصر د. ت ، الأميرية ١٣٢٠ هـ
- ★ - ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠ - ابن دحية الكلبي : المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق
ابراهيم الأبيارى وآخران ، الأميرية سنة ١٩٥٤ م ، وتحقيق
د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤ م .
- ٢١ - ابن سعيد المغربي : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي
ضريف طبعا دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروغنسال ، باريس
سنة ١٩٤٧ م .
- ٢٣ - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ،
دوزى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦ م .
- ٢٤ - ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشر
د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
سنة ١٩٥٩ م .
- ٢٥ - أبو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية - تحقيق د. محمد
شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- ٢٦ - الإدريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق نشر
دوزى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦ م .
- ٢٧ - البكرى (أبو عزيز الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد
أفريقية والمغرب نشر دى بلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩ م .

٢٨ — البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧٩ م .

٢٩ — الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة .
سنة ١٩٦٦ م .

٣٠ — الحميدى : الزوض المعطار فى خبر الأقطار ، ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧ م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت .
سنة ١٩٧٥ م .

٣١ — الخشنى : قضاة قرطبة — سلسلة تراثنا — المكتبة الأندلسية .
(١) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

٣٢ — الزبيدى : طبقات النحويين والمفويين — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٣٣ — الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة .
سنة ١٩٥١ م .

٣٤ — الضبى : بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) — دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧ م .

٣٥ — الطرطوشى : الحوادث والبدع — تحقيق محمد الطالبي — تونس .
سنة ١٩٥٩ م .

٣٦ — المراكشى (عبد الواحد بن على التميمي) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩ م .

٣٧ — المقدسى البشارى : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ط ٣ مطبعة بريل ، لندن سنة ١٩٠٦ م — مكتبة المثنى ببغداد .

- ٣٨ - المقرئ : نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .
- ٣٩ - الفباهي (أبو الحسن بن عبد الله) : تاريخ قضاة الاندلس المسمى (المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، نشر ليفي بروفنسال ، دار المكاتب العربي القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٤٠ - مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها ، مجريط سنة ١٨٦٧ م ، مكتبة المثنى ببغداد .
- ٤١ - ياقوت الحموي : معجم الادباء طبعة د. أحمد رفاعي مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د. ت .
- ٤٢ - ياقوت الحموي : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠ م .

ثانيا : المراجع

- ١ — د. ابراهيم احمد المدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د.ت .
- ٢ — د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- ٣ — د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٤ — أبو صالح الأئفى : الفن الإسلامى (أصوله — فلسفته — مذهب) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ م .
- ٥ — د. إحسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الأموى ، منشورات دار اليقظة بيروت د.ت .
- ٦ — د. إحسان عباس : تاريخ الادب الاندلسى (عصر سيادة قرطبة) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠ م .
- ٧ — أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ م
- ٨ — أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .
- ٩ — د. أحمد الشعراوى : الأمويون أمراء الاندلس الاول ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٠ — د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ١١ — د. أحمد العبادى : المجلد فى تاريخ الاندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية (١) القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- ١٢ — د. أحمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩ م .

- ★ — د. أحمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨ م .
- ١٣ — د. أحمد ثلثى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ج ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، ج ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢ م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .
- ١٤ — د. أحمد هيكى : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ م .
- ١٥ — آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريده . ط ٣ مطبعة لجنة التأليف ١٩٥٧ م .
- ١٦ — البير حبيب : الحركة الثغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ م .
- ١٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان سنة ١٩٦٢ م .
- ١٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٨٤ م .
- ١٩ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م .
- ٢٠ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

- ٢١ - الفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١. لجنة النشر للجامعيين ،
مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٢٢ - بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة
الخامسة دار المعارف بمصر د.ت .
- ٢٣ - بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة أمين نكلا ،
القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٢٤ - توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم
وآخرين مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .
- ٢٥ - جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ط ١ دار
المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م .
- ٢٦ - جنثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ،
القاهرة سنة ١٩٥٥م .
- ٢٧ - د. جوده هلال وآخر : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، المكتبة
الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والنشر ، القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .
- ٢٨ - د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها
على أوروبا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .
- ٢٩ - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني
والثقافي والاجتماعي ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩م ، ج ٢ ط ١٠ سنة
١٩٨٣م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
- ٣٠ - د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب (القرن الثالث
الهجري) ، دار النهر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

- ٣١ - د. حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الاندلس - المكتبة الثقافية .
(١٤٦) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٣٢ - د. حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ٣٣ - د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ط ١ ، دار
مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٣٤ - د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور
الاندلسى) دار الكاتب العربى د. ت .
- ٣٥ - خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الاندلس ، أصولها المشرقية
وتأثيراتها الغربية ، ترجمة د. الطاهر مكى ، دار المعارف بمصر
سنة ١٩٨٤ م .
- ٣٦ - ديلاس اوليرى : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ . ترجمة د. تمام
حسان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦١ م .
- ٣٧ - رينهارت دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ج ١ (الحروب الاهلية) ،
ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٨ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا فى العصور الوسطى ج ١ ،
الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨ م .
- ٣٩ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ،
نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧ م .
- ٤٠ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات
معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .
- ٤١ - د. سعيد عبد الفتاح وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة

الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ/

١٩٨٦م .

٤٢ — سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام أبى حنيفة
ط ١ نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر د.ت .

٤٣ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى أوربا وجزر البحر
المتوسط ، مطبعة الحلبي القاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٤ — صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر
مكتبة نهضة الشرق — جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٤٥ — صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ، ترجمة د. عبد الحميد
شيحة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٤٦ — د. طه الحاجرى : ابن حزم صور اندلسية ، دار الفكر العربى ،
مطبعة الاعتماد بالقاهرة د.ت .

٤٧ — طاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا — طرابلس .

٤٨ — طاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط ، دار الفكر بيروت د.ت .

٤٩ — عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع
انترناسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٠ — د. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى
حتى سقوط غرناطة ، ط ١ مصورة ، دار الاعتصام بالقاهرة
١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٥١ — د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى ،
ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٥٢ — د. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة سنة
١٩٥٧م .

- ٥٣ - د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس ، النهضة العربية
بيروت سنة ١٩٧٦ م .
- ٥٤ - د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ .
الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩ م .
- ٥٥ - د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى
الأندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة - دار
الثقاة الثقافية العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٦ - د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الأنجلو
المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٥٧ - فرناندو دى لاجرانخا : مقامات ورسائل أندلسية (نصوص
ودراسات) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة
العربية بالقاهرة د.ت .
- ٥٨ - د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الأندلسى ، دار المعارف
بمصر د.ت .
- ٥٩ - فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر
مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٠ - د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، سلسلة المكتبة
التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- ٦١ - لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر
المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٦٢ - لويس مطوف : المنجد فى اللغة والإعلام . دار المشرق بيروت
١٩٨٦ م .
- ٦٣ - ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد
عبد الهادى شعيرة ، الأهرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م .

- ٦٤ - ليفى بروغنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفى عبد البديع ، محمد حلمى القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٦٥ - ليفى بروغنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧ م .
- ٦٦ - لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٧ - لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .
- ٦٨ - مجموعة مؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٩ - د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، المكتبة الثقافية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٧٠ - محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ، ج ١ القاهرة ١٩١٤ م .
- ٧١ - د. محمد زكريا عنانى : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠ م .
- ٧٢ - محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د. ت .
- ٧٣ - محمد عبد الله عذان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الأول (القسم الأول) ط ١ مطبعة لجنة التأليف القاهرة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ، العصر الأول (القسم الثانى - عصر الفتنة) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

- ٧٤ - محمد على الصابوني : روائع البيان فى تفسير آيات الاحكام ،
ط ٢ منشورات مكتبة الغزالي بدمشق ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٧٥ - د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى
القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٧٦ - د. محمد محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ج ١ ،
الطبعة الاولى دار الوفاء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .
- ٧٧ - د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة
الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .
- ٧٨ - د. محمود على حياية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ،
ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .
- ٧٩ - د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (موضوعاته وفنونه)
ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .
- ٨٠ - مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرا (٢٣٠)
فبراير سنة ١٩٦٢م دار المعارف بمصر .
- ٨١ - د. منى محمد محمود : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة
(٩٢ هـ - ٢٠٦ هـ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .
- ٨٢ - د. نعيم محمد نعيم : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق
والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
سنة ١٩٧٣م .

... ثالثا : الدوريات

- ١ — دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .
- ٢ — مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ ، السعودية سنة ١٩٨٤م .
- ٣ — مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .
- ٤ — مجلة المختار من عالم الفكر — (١) دراسات إسلامية ، الكويت سنة ١٩٨٤م .
- ٥ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر سنة ١٩٧٩م الكويت .
- ٦ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٢) عدد (١) (حضارة الأندلس) سنة ١٩٨١م الكويت .
- ٧ — مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) (كتابات في الحضارة) سنة ١٩٨٤م الكويت .
- ٨ — مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، المجلد الثاني ١٩٥٤م .
- ٩ — مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، المجلد الخامس ١٩٥٧م .
- ١٠ — مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧ — ٣	المقدمة
٦٦ — ٨	الفصل الأول : (عناصر السكان في الأندلس)
١٣ — ٨	تمهيد:
٢٠ — ١٤	أولا : العنصر العربي
٢٩ — ٢١	ثانيا : العنصر البربري
٣٣ — ٣٠	ثالثا : الموالي
٤٠ — ٣٤	رابعا : العنصر الأسباني
٤٥ — ٤١	خامسا : عنصر المولدين
٥٠ — ٤٦	سادسا : اليهود
٦٠ — ٥١	سابعا : الصقلية
٦٦ — ٦١	ثامنا : النورمان (الفايكنج)
١٣٤ — ٦٧	الفصل الثاني : (العلاقات بين عناصر السكان)
٧٨ — ٦٩	أولا : الاختلاط بين الأجناس
٨٥ — ٧٩	ثانيا : الامتزاج بين الثقافات
١٢٥ — ٨٦	ثالثا : النزاع بين عناصر السكان
	النزاع بين العرب وبعضهم — النزاع بين
	العرب والبربر — الفتن بين العرب
	والمولدين — ثورة ابن حفصون
١٣٤ — ١٢٦	رابعا : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة
٢٠٠ — ١٣٥	الفصل الثالث : (الحالة الدينية)

الموضوع	الصفحة
أولا : المذاهب الفقهية	١٣٧ — ١٦٥
المذهب المالكي — المذهب الشافعي — المذهب الحنفي — المذهب الظاهري	
ثانيا : المذاهب الدينية (الكلامية)	١٦٦ — ٢٠٠
مذهب الشيعة — مذهب المعتزلة — مذهب الخوارج — التصوف	
الفصل الرابع : (مظاهر الحياة الاجتماعية)	٢٠١ — ٢٣٣
أولا : العمارة (الدينية والمدنية)	٢٠٣ — ٢٦٤
ثانيا : مجالس الموسيقى والغناء	٢٦٦ — ٢٨٧
ثالثا : الطعام والشراب	٢٨٨ — ٢٩١
رابعا : الملابس والأزياء والزينة	٢٩٢ — ٣٠١
خامسا : الأعياد والمواسم والحفلات	٣٠٢ — ٣١١
سادسا : وسائل اللهو والتسلية	٣١١ — ٣١٨
سابعاً : المرأة ودورها	٣١٩ — ٣٣٣
الفصل الخامس : (الحالة الاقتصادية)	٣٣٣ — ٣٧٩
أولا : موقع الأندلس ومناخها	٣٣٥ — ٣٣٧
ثانيا : البيئة الطبيعية للأندلس	٣٣٧ — ٣٤٠
ثالثا : الزراعة	٣٤٠ — ٣٤٦
رابعا : الصناعة	٣٤٧ — ٣٥٨
خامسا : التجارة	٣٥٩ — ٣٦٤
سادسا : موارد الدولة ونظامها المالي	٣٦٥ — ٣٧٩
الفصل السادس : (الحالة العلمية والثقافية)	٣٨٠ — ٤٧١

الموضوع	الصفحة
أولا : روافد الحركة العلمية وعوامل نشاطها ...	٣٨٢ — ٣٩٦
ثانيا : التعليم عند الأندلسيين ...	٣٩٧ — ٤٠٣
ثالثا : الإجازات العلمية ...	٤٠٣ — ٤٠٥
رابعا : أهم العلوم وأشهر العلماء ...	٤٠٥ — ٤٧١
١ — العلوم الدينية والعربية ...	٤٠٥ — ٤٣٢
٢ — العلوم العقلية ...	٤٣٣ — ٤٧١
قائمة المصادر والمراجع ...	٤٧٣ — ٤٨٧
فهرس الموضوعات ...	٤٨٨ — ٤٨٩

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

رقم ١/٩١٩٤/٢٥٤٧

تحريرا فى ١٢٩٤/١/٢٥

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

